موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

الندوات الاذاعية

طريق الهدى

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 01 - 30 : لماذا خلق الإنسان ، كيف الإنسان مكرم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

في قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (56))

هذه اللام في: (لِيَعْبُدُونِ) لام التعليل، يعني أن علة وجودنا على وجه الأرض أن نعبد الله.

أعطيتَ الجواب، ومن ثم طرحت السؤال ـ نعم ـ ولكن ليكون السؤال أشمل وأعم.

العبادة في أدق تعاريفها: طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

في هذا التعريف كليات ثلاث، كلية معرفية، وكلية سلوكية، وكلية جمالية.

لنبدأ بالكلية الأولى، ألا وهي المعرفية.

لا بد من أن نعرف الله، كيف نعبده قبل أن نعرفه ؟! لا بد من أن نعرفه، ومن ثم نعظمه، ومعرفة الله أصل الدين، في الدين أصول، وفي الدين فروع، والله عز وجل كل شيءٍ في الكون خلقه لينطق بوجوده ووحدانيته وكماله،

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

فإذا تأملت في خلق السماوات والأرض، هذا الكون العظيم الذي ينطوي على عدد من المجرات لا يحصيها مُحْصٍ، بعضهم قدر أن في الكون مئة ألف مليون مجرة، وفي كل مجرة من النجوم ما يقترب من مئة ألف مليون نجم، وهذا عدد لا يزال قيد البحث والدرس، هذا الكون العظيم يجسد أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فإذا أردنا أن نعرف الله فعلينا بالنظر في آياته الكونية، لآن الله عز وجل يقول:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران: 190 - 191)

إذاً أراد الله لهذا الكون أن يكون مبيّناً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فأكبر باب من أبواب معرفة الله هذا الكون، ثم إن هناك بابًا آخر هو أفعاله، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ (11))

(سورة الأنعام: 11)

فخلْقه يدل عليه، وأفعاله تدل عليه، والمصدر الثالث لمعرفته كلامه.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

(سورة محمد: 24)

بل إن الشيء الذي يلفت النظر هو أن في القرآن ما يزيد على ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، والنبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه إلهي جاءه، أو لحكمة اجتهادية ما فسر هذه الآيات أبداً، وهناك حكمة لا تقدر بثمن، ذلك لو أنه فسرها تفسيراً مبسطاً يفهمه من حوله لأنكرنا عليه، ولو فسرها تفسيراً عميقاً فلأن الله أطلعه على حقائق الكون.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم: 18)

لو فسرها تفسيراً يتناسب مع التقدم العلمي لأنكر عليه أصحابه، فترك هذه الآيات لتطورات العلم، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من عظمة هذا الكون، إذاً القرآن الكريم بما فيه من إشارات دقيقة علمية يعد معجزة مستمرة إلى يوم القيامة، بينما معجزات الأنبياء كعود الثقاب يتألق مرة واحدة، ثم ينطفئ، ويبقى خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه، وهذا الموضوع، موضوع الأعجاز العلمي في القرآن الكريم موضوع واسع جداً، وقد أفاض فيه العلماء المسلمون، حيث إن كل ذرة في جسمك، وكل قطرة في دمك تؤمن أن هذا كلام الله، وإن شاء الله في حلقات قادمة سأورد بعض من هذه الومضات الإعجازية في القرآن الكريم.

إذاً، مبدئياً الكون أحد طرائق معرفة الله عز وجل وأفعاله

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

تدل على أنه يبطش بالظالم، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم: 42)

لكن لوجه الحقيقة أقول: الله عز وجل يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين، ولكن الحساب الختامي، لكن الرصيد يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: 185)

فإذا رأيت إنساناً أو جهة، أو فئة قوية جداً، وهي تطغى، وتبغي، وتتغطرس، وتستعلي ليس معنى هذا أنها على حق، إنما الله يؤخرها ليوم تشخص فيه الأبصار.

بقي الشيء الثالث، هو كلامه، فخلقه يدل عليه، وفعله يدل عليه، وكلامه يدل عليه، ولكن اسمح لي أستاذ زياد ـ جزاك الله خيراً ـ أن أوضح حقيقة هي من أخطر الحقائق.

إذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من هذا الأمر، وما أكثر الفتاوى التي أباحت كل المعاصي، ما أكثر الاجتهادات الضعيفة، فلا بد من معرفة الآمر، ثم معرفة الأمر، وهذا هو منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله، بينما مناهج الدعاة الذين جاؤوا من بعده، والذين لم يطلعوا على منهجه القويم في الدعوة اكتفوا بتعريف الناس بالأحكام الشرعية، الأحكام بين أيدينا، ولا أحد يطبقها، لأن الناس ما عرفوا الآمر.

مثل بسيط: قد تأتيك ورقة من إدارة البريد، تقول لك: تعال غداً لكي تقابلنا لاستلام رسالة مسجلة، لا تتحرك شعرة في جلدك، وقد تذهب، وقد لا تذهب، لضيق الوقت، وقد تأتي ورقة من جهة أخرى لا تنام الليل، ما الذي حملك على أن تهتم بالورقة الثانية، وألا تتهم في الأولى، هو المصدر، مُنشئ الورقة الأولى جهة، ومُنشئ الورقة الثانية جهة أخرى، فإذا عرفت من هو الآمر تفانيت في طاعته، وإذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت منه، إذاً الكون بما فيه من آيات، وأفعال الله بما فيها من دلالات، والقرآن بما ينطوي عليه من آيات مصادر ثلاثة لمعرفة الله، ومعرفة الله أصل الدين.

الأستاذ زياد:

فضيلة الشيخ، لنعد إلى سؤالنا الأول، دكتور محمد راتب النابلسي، الإنسان وجد على هذه الأرض، وهو من أكرم مخلوقات الله عز وجل، فما هو هدف وجوده ؟ أيقتصر على العبادة ؟ العبادة هي ما نتعارف عليه من العبادات ؟ أم أنها تشمل كل حركاتنا وسكناتنا ؟

الأستاذ راتب:

الحقيقة أن العبادة لها مفهومان، مفهوم ضيق يترسخ في أذهان عوام المسلمين، هو أن تصلي، وتصوم، وتحج، وتؤدي الزكاة، هذه عبادات شعائرية، لكن المفهوم الواسع للعبادة هي أن كل حركة وكل سكنة، وكل صلة وكل قطعية، وكل غضب وكل رضًى، وكل منع وكل بذل، يجب أن ينضبط بمنهج الله، عوام المسلمين فهموا الدين فقرات خمسًا، بينما هو الدين في حقيقته مئة ألف فقرة، منهج تفصيل كامل، لا يمكن أن تقطف ثماره إلا إذا أخذته كله، العبادة بمفهومها الواسع أن تعبد الله فيما أقامك، أقامك غنياً عبادتك الأولى أن تنفق المال، أقامك عالماً عبادتك الأولى أن تعلم الناس، أقامك قوياً عبادتك الأولى أن تحق الحق، أقامكِ امرأة عبادتكِ الأولى رعاية زوجك وأولادك، يجب أن تعبد الله فيما أقامك، وفي الظرف الذي وضعك فيه، عندك أب مريض، تمريض الأب هو العبادة الأولى، عندك

أولاد صغار، تربيتهم هي العبادة الأولى، هذا المفهوم الواسع للعبادة يفتقر إليه المسلمون اليوم، هناك عبادات تعاملية، وهناك عبادات شعائرية.

منهم من ذهب إلى إدراج المعاملات في منزلة العبادات، هناك في علم الشرعية عقيدة وشريعة ومعاملات، هل يصح هذا إدراج المعاملات في منزلة العبادات ؟

أنا سأورد لك نصاً صحيحاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد هذه الحقيقة، النبي سأل أصحابه مرة عن المفلس، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله من لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فيقعُدُ فَيَقْتَصّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ))

[أخرجه مسلم والترمذي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ فِي هِرّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأكلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتّى مَاتَتْ))

[البخاري مسلم]

فما قولك فيما فوق الهرة ؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنّهَا تَصَدّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنّةِ))

[أخرجه أحمد]

سيدنا جعفر ابن أبي طالب هذا الصحابي الجليل حينما سأله النجاشي عن الإسلام أجابه إجابة رائعة فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنّا الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفّ

عَنْ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ))

[أحمد]

هذا تعريف الدين من صحابي جليل، إنه منظومة القيم الأخلاقية، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا المعنى حينما قال:

((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ))

[متفق عليه عن ابن عمر]

هذه الخمس دعامات، وليست هي الإسلام، الإسلام بناء آخر،

((بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ))

فالصوم والصلاة والحج والزكاة والشهادة هذه أعمدة، وليست هي البناء، فالبناء أخلاقي لذلك من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، مثلاً يقول الله عز وجل:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت: 45)

فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ما حقق الغاية من الصلاة، هذا الذي يحج بيت الله الحرام، بمال حرام يضع رجله في الركاب يناديه منادٍ أن لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردودٌ عليك، هذا الذي يصوم في رمضان، ولا يأتمر بأمر الواحد الديان، يناديه مناد أن هذا الصائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، هذا الذي ينفق رئاء الناس:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة: 53)

فقضية الدين قضية خطيرة جداً، يفهمها البسطاء على أنها عبادات شعائرية، وفصلوا بينه وبين الحياة، مع أن الدين هو الحياة، دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد فيما بين الصلاتين فرأى رجل يتعبد سأله من يطعمك، قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، لأنه يعمل، وقال: والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهرٍ، واعتكافه في مسجد هذا، فأكد على ضرورة الانضباط، والبذل والعطاء هذه هي حقيقة الدين إذا العبادة.

سنتطرق بالتفصيل إلى كل هذا بإذن الله تعالى، لأن هناك البعض يفهم هذا خطأً، فيقول: لأن أمشي في حاجة الناس أفضل لي من أن أصوم شهراً بكماله، وهذا لا ينفي وجوب الصيام ووجوب الصلاة، الصلاة المفروضة وأدائها.

لكن إذا وازنا بين العبادة والعمل المقصود بالعبادة النافلة، أما الفرائض فهذه فوق كل شيء، إن الله لا يقبل نافلة ما لم تؤدِّ الفريضة، نحن إذا قلنا: أفضل من الصلاة والصيام الصلاة النافلة، والصيام النافلة.

الإنسان هو المخلوق المكرم، هو المكلف، وهو حامل هذه الأمانة التي عرضت على الجبال والأرض والسماوات، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، كم في الآية القرآنية الكريمة لهذا الإنسان قيمة كبيرة وعالية جداً، ومكانة كبيرة وعالية جداً، كونه المخاطب والمكلف، سنفصل مزايا هذا الإنسان، وما هو المطلوب بالمقابل منه كي ينعم بجنات النعيم التي وعدنا بها، وكي يتجنب جحيم النار، والعياذ بالله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 02 - 30 : مقومات حمل الأمانة1 : الكون ، العقل ، الفطرة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق المكرم، لقوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء: 70)

والإنسان هو المخلوق المكلف، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات: 56)

الإنسان خليفة الله في الأرض، بل إن الكون كله مسخر له بنص الآية الكريمة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: 13)

كلفه حمل الأمانة، العلماء يجمعون على أن الأمانة هي نفسه التي بين جنبيه، يؤكد هذا قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

فهذه النفس إما أن تعرفها بالله، وإما أن تبقيها جاهلة، إما أن تحملها على طاعة الله، وإما أن تطلق شهواتها كما تريد، إما أن تضبطها بمنهج الله، وإما أن تجعلها تتفلت من منهج الله، فنفسك أمانة بين يديك، يسعد الإنسان أيما سعادة لو عرفها بربها، وحملها على طاعته، ودفعها إلى البذل من أجل رضوانه وجنته.

الأستاذ زياد:

وما يبعده عن ذلك ؟

الأستاذ راتب:

يبعده عن ذلك شهواته التي أودعه الله فيه لتكون سلماً يرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، فجعلها دركات يهوي بها في الظلمات.

لا بد من وقفة متأنية عند مقومات حمل الأمانة، فالله جل جلاله ما كلفنا حمل الأمانة إلا وأعطانا مقومات حملها، فأول هذه المقومات هو الكون الذي نتعرف من خلاله إلى الله.

ذكرت لكم في الحلقة السابقة ومضة من ومضات الكون، عُرض في مؤتمر للإعجاز العلمي عُقد في موسكو قبل سنوات، وألقيتْ فيه محاضرة علمية أساسها بحث علمي قيم عن هذه الآية، بما أن القرآن يخاطب أمة تعدُّ بالسنة القمرية، والقمر كما تعلمون يدور دورة حول الأرض كل شهر، فلو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر، ووصلنا بينهم بخط لكان هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، وحينما نضرب هذا الرقم باثنين ينتج القطر، فإذا ضربنا بـ 3.14 لكان محيط الدائرة، بحساب بسيط يستطيعه طلاب المرحلة الثانوية أن يحسب كم من الكيلومترات يقطع القمر في دورة حول الأرض ؟ إن ضربنا هذا الرقم بـ 12 كم يقطع في السنة، إن ضربناه بـ 1000، كم يقطع في ألف عام، أنا معي رقم كم من الكيلومترات يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، لو قسمت هذا الرقم على ثواني اليوم، طبعاً 60 × 60 × 24، المفاجئة الصاعقة أن الناتج هو سرعة الضوء الدقيقة، 299752 سرعة الضوء المطلقة هذا هو الرقم، معنى ذلك إنما يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطع الضوء في يوم، فإذا قسمنا على ثواني اليوم لكانت سرعة الضوء في الثانية 299752، الضوء كما تعلمون هو له تعريفات كثيرة، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر أن كتلته لا نهائية، أن حجمه لا نهائي، وكتلته صفر، فكل جسم سار مع الضوء أصبح ضوءًا، هذا ملخص ما يقوله أنشتاين أكبر علماء الفيزياء، الجسم إذا سار مع الضوء أصبح ضوءًا، وأصبحت كتلته صفراً، وحجمه لا نهائياً، فإذا سبق الضوء تراجع الزمن، نحن لو استطعنا أن نسبق الضوء لرأينا معركة بدر كما هي، لرأينا معركة حطين، معركة القادسية، لو سرنا مع الضوء أصبحنا ضوءًا، ولو سبقنا الضوء لتراجع الزمن، ولو سرنا مع الضوء توقف الزمن، هذه الجلسة لو أن هناك موجات ضوئية تتصاعد إلى الفضاء الخارجي، وأتيح لواحد أن يسير مع هذه الموجات لرأى هذه الجلسة إلى أبد الآبدين، أما إذا قصر عن الضوء تراخى الزمن، فآية الضوء هذه الآية، إذاً الكون أحد أسباب معرفة الله عز وجل، فمن أجل أن تعرف الله، وتعبده جعل الله هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، بل تجسيداً لعلمه ورحمته وحكمته وقدرته، فالكون بسماواته وأرضه، بالجبال والأنهار، وبالبحار والبحيرات، بالأقمار بالأطيار، وبالأسماك، بخلق الإنسان، بالطعام والشراب، كل ما حول الإنسان ينطق بعظمة الله، فهذا أول مقوم من مقومات حمل الأمانة، الإنسان غاص في أعماق البحار، وارتاد الفضاء الخارجي، ونقل الصوت والصورة، الإنجاز العلمي الآن مذهل، وندي قرص ليزري فيه ألف ومئتا كتاب، وبعض الكتب في خمسين جزءًا، بالنص الدقيق المضبوط وبالشكل، وإمكانية البحث في ثوانٍ، هناك أداة بحث تقرأ كل هذه الكتب في ثوان، فكأن الله يعاتب الإنسان يوم القيامة يقول له: يا عبدي، غزوتَ الفضاء، وغصت في أعماق البحار، ونقلت الصوت والصورة، لو بذلت من عقلك واحدًا بالمليار لعرفتني، ولسعدت بقربي، فالكون أحد مقومات حمل الأمانة.

الأستاذ زياد:

من سياق حديثكم العقل ثاني هذه المقومات.

الأستاذ راتب:

نَعم، الكون أول هذه المقومات، والعقل ثانياً، العقل جهاز لا يستطيع أن يفهم المحيط الخارجي إلا وفق مبادئ ثلاثة: هذه المبادئ متطابقة تماماً مع الكون.

مبدأ السببية.. لا يمكن أن تفهم شيئاً بلا سبب.

مبدأ الغائية.. لا يمكن أن تفهم شيئاً بلا غايـة.

مبدأ عدم التناقض.. ولأن الكون له أسباب، بل إن الله جلت حكمته صمم الكون وفق أسباب، وهو خالق الأسباب، فإذا أردت أن تصل من هذه النتيجة إلى سببها قادتك هذه القاعدة إلى مسبب الأسباب هو الله عز وجل، وإذا رأيت أن هذه البقرة تقدم أربعين كيلوًا من الحليب في اليوم، بينما وليدها يحتاج إلى 2 كيلو فقط، معنى ذلك أن هذا الحليب ليس لوليدها، هو للإنسان، بل إن توافق الحليب مع جسم الإنسان توافق مدهش، إذاً غاية هذه البقرة أن تكون غذاء للإنسان أساسي، حينما نفهم الأشياء بغاياتها، والأشياء بأسبابها، ولا نقبل التناقض، عندئذٍ يكون عقلنا قد أدى مهمته، الشيء الدقيق جداً أن سنن الله في خلقه متطابقة تماماً مع مبادئ عقل الإنسان، فالعقل والكون متكاملان، كون من دون عقل لا يجدي، وعقل بلا كون لا يجدي، لا بد من أن يكون العقل والكون متكاملين.

العقل أداة معرفة الأولى، ولكن العقل الصريح، هناك عقل تبريري، قد يستخدم الإنسان عقله لغير ما خلق له، قد يستخدم عقل للإيقاع بين الناس، لأعمال شريرة، يبررها فأنا أرفض العقل التبريري، العقل الصريح هو العقل المنطبق مع المبادئ التي أكرمه الله بها.

الأستاذ زياد:

وما علاقة الفطرة السليمة بهذا العقل الصحيح ؟

الأستاذ راتب:

الحقيقة هو أن العقل مقياس دقيق، ولكن الفطرة مقياس نفسي، وأنت أيها الإنسان مبرمج أو مصمم أو مجبول على اكتشاف خطئك بنفسك، لو أن إنسانًا عاش في جزيرة، ولم يتلقّ أيّ رسالة سماوية، ولم يتلقّ أي توجيه ديني، لو أنه أتى بطعام فأكله وحده، ولم يطعم أمه التي أنجبته يشعر بضيق، الفطرة مقياس نفسي دقيق، وفي الحديث عَنْ النَّوّاس بْن سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ:

((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُق، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[مسلم]

هناك آية تؤكد الفطرة:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)﴾

(سورة الشمس: 7 - 8)

طبعاً لا يمكن أن يكون المعنى أن الله خلق فيها الفجور، لا يمكن، هذا معنى يقال عنه في العقيدة معنى جبري، وهذا الشيء من العقائد الفاسدة، لكن ألهمها حين تفجر أنها فجرت، وألهمها حينما تتقي أنها أتقت،

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)﴾

والإنسان بفطرته السليمة يحب الخير، ولا يفعله، يحب العدل ولا يعدل، هناك فرق بين الفطرة والصبغة، كل إنسان مولود على الفطرة، كل إنسان كائنًا من كان حتى الذي يعبد الأصنام يحب الخير، يحب الرحمة يحب العدل يحب الإكرام، لكن أن تحب العدل شيء، وأن تعدل شيء آخر، أن تحب الرحمة شيء، وأن ترحم شيء آخر، أنت حينما تتصل بالله عز وجل تكتسب الرحمة والعدل، والتواضع والإحسان، فالفطرة أن تحب الرحمة، والصبغة أن ترحم، فكل مخلوق يولد على الفطرة، فطرته السليمة تكشف له خطأه، أنا أعتقد ومعي دليل، أن هذا الإنسان الذي لم تصله رسالة سماوية كيف يحاسب ؟ يحاسب على عقله الذي يكفي لمعرفة الله، ويحاسب على فطرته التي تكفي لمعرفة خطئه، لكنه يعفى من تفاصيل الشريعة، أما لو أن الإنسان قتل أمه مثلاً فيحاسب، لا بد من أن تكشف له فطرته خطأه، ولا بد من أن يكشف له عقله وجود ربه، فالفطرة مقياس نفسي، هنا أستوقف قليلاً، أكاد أقول: إن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط، يجب أن تتقاطع في هذه الدائرة، خط النقل الصحيح، وقلت: الصحيح احترازاً من النقل الضعيف، أو النقل الموضوع، أو من النقل الذي أول تأويلاً خاطئاً، النقل الصحيح، والعقل الصريح، قلت: الصريح احترازاً من العقل التبريري، والفطرة السليمة، قلت: السليمة، لأن هناك أناسًا من شدة انحرافهم طُمست فطرتهم، والواقع الموضوعي، وقلت: الموضوعي احترازاً من الواقع المزور، فخط العقل الصريح مع النقل الصحيح مع الفطرة السليمة مع الواقع الموضوعي هذه الخطوط إذا تقاطعت في دائرة فهذه الدائرة هي الحق، فلا يعقل أن يأتي وحيه مناقضاً لخلقه، أن يأتي وحيه مناقضًا لفطرة الإنسان، الوحي وحيه، والفطرة جبلة جبلنا عليها، والعقل مقياس أودعه الله فينا، والكون خلقه، وهذه كلها فروع، ومادامت فروع لأصل واحد فهي متحدة فيما بينها، لذلك بعض علماء الشريعة الكبار ألف كتاباً في حتمية توافق العقل مع النقل، ولكن لا يتناقض العقل مع النقل إلا في حالة واحدة، أن يكون النقل غير صحيح، أو أوّل تأويلاً غير صحيح، أو أن يكون العلم أو العقل اعتقد بنظرية، وليست بحقيقة، نظرية أنشتاين ليست حقيقة، الآن نقدت، فحينما تتعارض آية قرآنية مع ما يسمى حقيقة علمية، وهي ليس كذلك، تجد هناك تناقضًا، أما العقل الصريح مع النقل

الصحيح فلا بد من أن يتطابقا تتطابقاً تاماً، لأن العقل من خلق الله، والنقل من وحي الله.
إذاً توقفنا عند مقومات حمل الأمانة، مقوماتها التي جعلها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، الكون لمعرفته عز وجل، والعقل كذلك للدلالة على وجوده ووحدانيته، يبقى أن نتطرق إلى بقية الأمور، والفطرة تحدثنا عنها، الفطرة تشوهها البيئة إذا صح التعبير، أو تطبعها بطابع معين، أما في حال كان العقل صريحاً كانت الفطرة سليمة.

إذا كان العقل صريحاً، والنقل صحيحاً، والفطرة سليمة، والواقع موضوعياً تتطابق هذه جميعاً، وكانت هي الحق.

الأستاذ زياد:

الواقع الموضوعي ماذا تعني بهذا التعريف، أو بهذا المصطلح.

الأستاذ راتب:

لو أن إنساناً قال: إن سكان هذه البلدة سيئون، هذا واقع غير موضوعي، هذا واقع هوائي، أو واقع مزور، أما لو أجرينا إحصاء دقيقًا سنجد هناك صالحين وسيئين، فدائماً الإنسان حينما ينحاز إلى قضية يشوه الواقع، يأتي بانطباعات، وليس بإحصائيات، وقال بعضهم: التعميم من العمى، كل إنسان يعمم هو أعمى، أما النظرة الموضوعية فهي القيمة التي تشترك بين العلم والخلق، الموضوعية قيمة خلقية، والموضوعية قيمة علمية في وقت واحد، لكل إنسان علمي أخلاقي بهذا الموضوع، وكل إنسان أخلاقي علمي، أنت حينما تحكم على شخص، إذا كان الإنسان عالمًا أو أخلاقيًا يذكر ما له وما عليه، أما حينما يكون عامياً من سوقة الناس، إن أحبه أصبغ عليه كل صفات البطولة، وإن أبغضه جعله مجرماً، هذا تعميم من العمى، أما الموقف الموضوعي، النبي عليه الصلاة والسلام رأى صهره في الأسرى، زوج ابنته، جاء ليقاتله، وهو مشرك، فلما نظر إليه قال: والله ما ذممناه صهراً، يعني كصهر هو ممتاز، أرأيت إلى هذه النظرة الموضوعية، رأى صهره بين الأسرى، وقد جاء ليقاتله، وهو مشرك، ما نسي صفاته الفاضلة، قال: والله ما ذممناه صهراً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 03 - 30 : مقومات حمل الأمانة2 : الشهوة - الاختيار - القوة - الشرع - الزمن.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران)

الله جل جلاله أودع فينا الشهوات، إلا أن هذه الشهوات حيادية، أودعها فينا لنرقى إلى رب الأرض والسماوات، إلا أنه أودع فينا حب الطعام والشراب، وإلا لما رأيت في الأرض شيئاً، دافع الطعام والشراب يدفعك لتعمل، كل شيء تراه عينك من أجل أن تكسب مالاً تأكل به، فأودع فينا حب الطعام والشراب كي نبقى أحياء للحفاظ على الفرد، وأودع فينا حب المرأة للحفاظ على النوع، لولا هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان لانقرض النوع البشري، وأودع فينا تأكيد الذات كي نحافظ على بطولاتنا، أنت بحب الطعام والشراب تبقى حياً، وبالجنس يبقى المجتمع البشري مستمراً، وبتأكيد الذات يكون التفوق وإثبات الذات.

إذاً: هناك شهوات أودعها الله فينا حيادية، هي سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها، لأن الإنسان مخير فكل خصائصه حيادية، يمكن أن توظف في الخير أو أن توظف في الشر.

المذيع:

وهذا ما سنأتي عليه في درسنا عن الاختيار، ولكن هذه الشهوات قد يتساءل المرء ذو العقل الصريح: لماذا أنا أسعى، وأشقى في هذه الدنيا، هل لأكسب المال كي أطعم وأشرب، ولإشباع رغبتي في الطعام والشراب ؟ هل لأتزوج وأكوّن الأسرة لإشباع هذه الغريزة التي أودعها الله في نفسي، هناك مجموعة تساؤلات، لماذا يسعى، ويشقى في هذه الدنيا، ويحزن إن فشل في مسعاه ؟

الأستاذ:

أنا أضرب لك مثلا يوضح هذه الفكرة: لو أن إنسانًا سافر إلى بلد أجنبي، فرنسة مثلاً، ونزل في أحد فنادقها، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، وقال: إلى أين أذهب ؟ نقول له نحن: لماذا جئت إلى هنا ؟ إن كنت جئت طالب علم فاذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن جئت سائحاً فاذهب إلى المقاصف والمتنزهات، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، فلا يمكن أن تصح حركتك إلا إذا

عرفت سر وجودك، أنا أقول: مشكلة الإنسان اليوم الذي شرد عن الله أنه إنسان بلا هدف، كل حركته في طرق مسدودة، ينشأ فيرى المال كل شيء، في وسط عمره يراه شيئاً، وليس كل شيء، فإذا قارب على النهاية لا يراه شيئاً، عند أهل الدنيا تحديداً السعادة بتعريفهم لابد لها من ثلاثة شروط: لابد لها من وقت، ومن صحة، ومال، ودائماً يفتقد الإنسان أحد هذه الشروط، ففي أول حياته صحة جيدة، ووقت طويل، ليس معه مال في وسط حياته، يؤسس عملاً، يحتاج إلى دوام كامل، فصحة طيبة، ومال وفير، لكن لا يوجد وقت، في آخر حياته أسس عملاً، وسلمه لأولاده، وله دخل كبير، وقت طويل، ومال وفير، لكن لا يوجد صحة، لو أن الإنسان شرد عن الله، ونسي الهدف الذي خلق من أجله لشقي دائماً، لأنه يفقد دائماً أحد مقومات السعادة بالمفهوم المادي، أما المؤمن فلما عرف أن الله خلقه من أجل جنة عرضها السماوات والأرض، لذلك كان هدفه واضحًا، والوسائل واضحة أمامه، فسعادته بمعرفة ربه وبطاعته، وبخدمة خلقه، لذلك قال بعض العارفين بالله قال: " يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا النهار إلا بخدمة عبادك "، المؤمن تراه شاباً، وهو في التسعين، قضية الشباب لا علاقة لها بالزمن، أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، قد تجد شاباً في التسعين، وشيخاً في الأربعين، الإنسان الذي بلا هدف إنسان تافه، ملول، يسأم، يضجر، يقع في ظروف صعبة جداً، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي)

إذا نسي الإنسان الآخرة، وأسقطها من حساباته فهو إنسان شقي، لأنه يمشي في طريق مسدود، هذا المال الذي جمعه قِرشًا قرشًا يخسره في ثانية واحدة، الإنسان يتنامى، حينما يبلغ الأوج يأتيه ملك الموت، الحقيقة أن الصعق الذي لا يحتمل حينما يكتشف الإنسان عند الموت أنه خسر الآخرة.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(104))

(سورة الكهف)

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر)

فهذه الشهوات أودعها الله فينا لتكون قوى محركة هي تماماً كالمحرك في السيارة، ما قيمتها من دون محرك ؟ لكن ما قيمتها من دون مقود ؟ العقل هو المقود، والشهوة هي المحرك، وما أودع الله فينا شهوة ـ دقق أستاذ زياد ـ إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، ليس في الإسلام حرمان، أودع فيك حب النساء، وأمرك أن تتزوج من قناة نظيفة، أودع فيك حب المال، وسمح لك أن تسعى لكسبه من

طريق حلال، أودع فيك حب العلو في الأرض، وجعل هذا العلو عن طريق طاعة الله والعلم، لذلك هذه الشهوات حيادية مئة بالمئة، يمكن أن نصل بها إلى أعلى الدرجات، ما قيمة المال حينما تدفعه إلى فقير إن لم تكن تحبه ؟

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

(سورة البقرة)

ما قيمة غض البصر عن امرأة حسناء إن كنت لا تحب الناس ؟ ما قيمة التواضع إن كنت لا تحب العلو في الأرض ؟ لذلك قالوا: هناك طبع وهناك تكليف، وتناقض الطبع مع التكليف ثمن الجنة، فأنت بطبعك تتمنى أن تطلق بصرك في الطريق، والتكليف يأمرك بغض البصر، تتمنى أن تنام، والتكليف يأمرك أن تستيقظ وتصلي، تتمنى أن تأخذ المال، والتكليف يأمرك أن تدفع المال، لابد من تناقض الطبع مع التكليف، التناقض ثمن الجنة.

المذيع:

وقهر الشهوة ليس حرمانها، ولكن ضبطها.

الأستاذ:

يوجد دليل قوي:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

عند علماء الأصول هناك المعنى المخالف، يعني من يتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه، بل إن هذا يعد عملاً صالحاً، هذا الذي يحب زوجته، هذا الذي يكسب مالاً حلالاً ليطعم أولاده، هذا عند الله مكرّم، هو ماذا فعل ؟ جاء بالمال وتزوج، وهذه ميول طبيعية أودعها الله في الإنسان، مثلاً: أنت تحب أن تبوح بأسرار الناس، هذا هو الطبع ـ التكليف يقول لك: اصمت، لا تغتب فلاناً، الدليل القوي:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

حينما تنهى نفسك عن الهوى، أما الهوى حينما تستخدمه وفق منهج الله فلا شيء عليك، لذلك ليس في الإسلام حرمان، ولكن هناك تنظيم، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فالمؤمن حينما يتزوج، ويسعى، ويعمل، ويتفوق، يحقق ذاته، ولا يتناقض هذا مع بلوغه الجنة، هناك عند الناس مفهوم خاطئ: إما الدنيا أو الآخرة ؟ من قال لك ذلك ؟ الدنيا والآخرة متكاملتان، ورد في الأثر: " ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه "، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة النور)

إذاً هم يتاجرون، ويبيعون، ويشترون، هناك توازن، إذاً: الشهوات حيادية أودعها الله فينا كي نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، وهي قوى دافعة، تماماً كالوقود في المركبة، الوقود السائل، إذا وضع في مستودعاته المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب ولّد حركة نافعة نقلتك أنت وأهلك إلى مكان جميل، ماذا يحدث ؟ انفجار في المحرك، لكن في المكان الصحيح، والزمن الصحيح، تسبّب في حركة نافعة، أما لو خرج هذا الوقود عن مساره، وأصاب المركبة شرارة لأحرق المركبة ومَن فيها، الشر من أين يأتي ؟ من ممارسة الشهوة بخلاف منهج الله، هذا الشر، إنسان أودعت فيه الشهوات، وهنا موقع الاختيار، الإنسان مخير بتحريك هذه الشهوات، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، لا يمكن إلا أن يكون الإنسان مخيراً، لكن الله يعلم علم كشف لا علم جبر.

المذيع:

هو مسير في كونه متى خُلق ؟ متى يموت ؟ وهكذا، ومخيّر بتسيير هذه الشهوات في منهج الله، أو في غير ذلك.

الأستاذ:

أنت مسيّر في أشياء ثابتة في حياتك، كونك من فلان وفلانة، هذا لا اختيار لك فيهما، أمُّ الإنسان وأبوه هما قدَرُه، مسيّر في مكان ولادته، مسيّر في زمان ولادته، مسيّر في الإمكانيات التي أودعها الله فيه، إلا أن الحقيقة الصارخة أن كل هذه الأشياء التي سيّرك الله بها هي لصالحك، عبر عن هذه الحقيقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، فأمك وأبوك وبلدتك وزمن ولادتك وإمكانياتك هي أنسب شيء لسعادتك الأبدية، لذلك قيل: " واللهِ لو كشف الغطاء لرأيتم الذي وقع هو خير "، الذي وقع هناك حقيقة خطيرة جداً، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته ومتعلقة بالحكمة مطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لا يمكن أن يقع في ملك الله مالا يريده الله، وإذا رأيت الإنسان يطغى، ويبغي فخطة الله استوعبت خطته.

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

إن رأيت إنساناً قوياً يفعل، ويبطش، ويفعل مالا يرضي الله معنى ذلك أن الله سمح له لحكمة يريدها، أي أن خطة الله عز وجل استوعبت خطته، أما أن يقع في الكون شيء لا يريده الله فهذا شيء مستحيل.

(حتّى إذا أخَذَتِ الْأرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أهْلُهَا أنّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْهَا أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأمْسِ)

(سورة يونس)

(وَاللّهُ يَدْعُو إلَى دَارِ السّلَامِ)

المذيع:

إذاً الإنسان مسيّر كما ذكرتم في أمور تقريرية قررها الله سبحانه وتعالى، وحجب عنه أيّ خيار فيها، أما هو فمخيّر في كل مسار حياته.

الأستاذ:

هو مخيّر في كل ما كلف به بالضبط، كإنسان يركب مركبة، فجاء إلى تقاطع، هناك إشارة حمراء، هو مخير أن يتجاوز هذه الإشارة مخالفاً للقانون، أو أن يلتزم بقواعد السير، لو فرضنا إنسانًا اختار أن يغش المسلمين في البيع والشراء، يسلط الله عليه جهة قوية، تأخذ منه ماله الذي ربحه بالحرام، فأنا مخير في حدود ما كلفني الله به، لكن قبل هذا التخيير هناك تسيير لصالحي، والدتي ووالدي، ومكان وزمن ولادتي وإمكاناتي، وبعد هذا التكليف هناك تسيير لتربيتي، إما أن يكافئني ربي، أو أن يعاقبني بحسب اختياري، لأن الله رب العالمين، فأنت مسير ومخير، والتسيير والتخيير لا يتناقضان بل يتكاملان، لكنك بشكل واضح مخير فيما كلفت، أمرك أن تصلي، بإمكانك أن تصلي أو لا تصلي، أمرك أن تكون صادقاً بإمكانك أن تصدق أو لا تصدق، مخير فيما كلفت.

المذيع:

واعلم أن هناك ثوابًا وعقابًا لكل عمل، أو لكل اختيار تختاره.

الأستاذ:

أما حينما أختار شيئًا لا يرضي الله، سيسيّرني الله لدفع هذا الثمن تأديباً لي، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأكْبَرِ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

هذه حقيقة صارخة من دون اختيار العمل لا يثمّن، لو أن طالباً اشترى باقة زهر، وقدّمها لأستاذه، تراه طوال اليوم متألقًا، يرى عمله طيبًا أنْ قدم لأستاذه باقة زهر، لو أن أستاذه علم أن والد هذا الطالب عنده محل أزهار، وقال له: ائتني بباقة زهر غصباً، ما قيمة هذا العمل ؟ ليس له قيمة إطلاقاً، فالاختيار يثمّن العمل، ولولا الاختيار لما وجدت عملاً طيباً، الله عز وجل قال:

(إنّ الْإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إلّا الْمُصَلّينَ(22))

(سورة المعارج)

لأن المال تحبه وتحرص عليه إنفاقه ترقى به، فالمؤمن لا يصر على شيء، يصر على طاعة الله، بينما أهل الدنيا يصرون، فإذا أصروا أمدهم بما يشتهون.

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 04 - 30 : مقومات حمل الأمانة3 : الشرع - الزمن.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرع هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الإنسان، لأن الإنسان أُعطي شهوات حيادية وواسعة جداً، هذه الشهوات ينبغي أن تنضبط بمنهج، إنه افعل ولا تفعل، إنه الشرع.

لبعض العلماء الكبار مقولة رائعة: **" الشريعة عدل كلها، الشريعة رحمة كلها، الشريعة مصلحة كلها، الشريعة حكمة كلها، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ومن العدل، إلى الجور، ومن الحكمة إلى ضدها، ومن الرحمة إلى القسوة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".**

الشرع منهج خالق الأكوان، كما أن أسماء الله حسنى، أيضاً شرعه كامل، النبي عليه الصلاة والسلام جاءنا بمنهج كامل، أكد هذه الحقيقة القرآن الكريم قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

علماء اللغة يتوقفون عند كلمة الإتمام والإكمال، الإكمال نوعي، والإتمام عددي، أي إن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة، وطريقة المعالجة كاملة.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

إن إضافة أية قضية على الدين اتهام له بالنقص، وحذف أية قضية من الدين اتهام له بالزيادة، هذه هي البدعة، الدين لا يحتمل أن نبتدع، الابتداع في الدنيا، الابتداع أن نطور حياتنا، مساكننا، مدارسنا، مستشفياتنا، مصانعنا، أن نستخرج ثرواتنا، أن نصنعها، أن نحل مشكلاتنا، هذا كله بالإبداع، أما الدين فلا إبداع فيه، فالأمم الإسلامية حينما تبتدع في الدين، وتقلد في الدنيا تكون في مؤخرة الركب، تأتي بعبادات لا أصل لها، وبتصرفات لا وجود لها في الدين، حينما تبتدع بقدر ما تبتدع تضيع من أصول الدين.

من أجمل ما قرأت عن البدعة أنك إذا كنت مسافراً، وحملت أكياساً من الرمل لا تحتاجها إطلاقاً، إنها حملتك مالا تطيق، ولن تنفعك أبداً، لأن المنهج الذي جاء به النبي كامل في بلوغك أعلى درجات السعادة والقرب، فأية إضافة على هذا المنهج إضافة لا أصل لها.

المذيع:

هل هذا ينفي التجديد في استنباط الأحكام، والتجديد في الدين، وما هو معنى التجديد في الدين ؟

الأستاذ:

التجديد له معنى دقيق سأوضحه بمثل: عندنا بناء اسمه المحطة الحجازية، يوم كان القطار بين دمشق والمدينة، هذا القطار ينطلق من محطة الحجاز في دمشق، هذا البناء قديم جداً، يعود إلى العهد العثماني، حجره مع مضي الأيام أصبح أسود اللون، هناك أجهزة حديثة عن طريق الرمل، يُضرب الحجر بالرمل بقوة بالغة، فُينزع منه كل ما لصق به مما ليس منه، فإذا قلنا: تجديد في الدين، أي أن تنزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه، بيت بأربع غرف، لا يجوز أن تضاف غرفة، ولا أن تحذف غرفة، أما إذا كان الطلاء الخارجي أصابته أوساخ وغبار ودخان نزعت هذه الأوساخ والغبار والدخان عن هذا البناء، هذا هو التجديد، فالتجديد أن تعيد للدين أصله ورونقه.

عندنا نهر اسمه نهر بردى، وهو نهر مشهور، لو ذهبت إلى النبع لرأيت ماءً صافياً عذباً فراتاً، لو ذهبت إلى المصب لرأيت ماءً أسود اللون، لكثرة ما نزل على هذا النهر من الروافد، فحينما أريد ماءً صافياً ينبغي أن أذهب إلى الينابيع، لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، لأن هذا منهج الله، الله حكمته قديمة.

مثلاً: انظر إلى تطور صناعة السيارات، المحرك حركة واحدة، العجلات ليس فيها هواء، المصابيح تشعل بالكبريت، البوق عن طريق الهواء، شيء متواضع جداً، وازن بين أول سيارة صنعها الإنسان، وبين أحدث سيارة صنعها، الآن يوجد رقي في الصناعة يفوق حد الخيال، ما تفسيره ؟ تفسيره أن خبرة الإنسان تتنامى، وهي محدثة، بينما خبرة الله قديمة، فهل طرأ على خلق الله تعديل ؟ خبرة الله قديمة، إذاً الدين قديم، والحق قديم، والكمال قديم، فلا يمكن أن يحتاج الدين إلى إضافة، ولا يمكن أن يسمح بحذف شيء من الدين، إذا أضفنا أو إذا حذفنا فلا يمكن أن نقطف ثمار هذا الدين، لذلك في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ:

((مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ...))

(سنن النسائي)

هذا في العقائد والعبادات، أما في حياتنا لو أننا بردنا المساجد، وكيّفناها، لو جئنا بالماء الساخن في الشتاء، والماء البارد في الصيف، لو أننا كبرنا الصوت، وطبعنا الدروس على أشرطة قيمة، هذا كله

بدعة في اللغة، لا في الدين، في أمور دنيانا يجوز أن نبتدع في الوسائل، أما في أصول الدين، في عقيدته، وفي عباداته، لا يمكن أن نزيد شيئاً، ولا أن نحذف شيئاً.

المذيع:

كيف تتم معالجة النوازل، ما يستحدث من أمور وقضايا ؟ كيف نعالجها من خلال الشرع ؟

الأستاذ:

يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء)

الإمام الشافعي قال: **" أولي الأمر هم الأمراء والعلماء معاً "**، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر.

الآن دقق:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

إذا نشأت مشكلة، وكانت وجهات نظر مختلفة حول موضوع معين، إلهنا وربنا وخالقنا، وهو الذي شرع لنا هذا الدين قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

ارجعوا إلى كلام الله، وإلى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، هل تصدق، وتقبل عقلاً أن يحيلك الله إلى جهتين لتستمد منهما تشريعاً يغطي هذه الحالة المستجدة دون أن تجد شيئاً ؟ مستحيل وألف ألف مستحيل، حضرت مؤتمراً قبل أسبوعين في دمشق حول القضايا الفقهية المعاصرة، الذي لفت نظري أن العلة ليست في الإسلام، ولكن في المسلمين، ما من معضلة يعاني منها المسلمون إلا ولها تشريع رائع في أصل ديننا.

المذيع:

لكن قد يخالف هوى البعض.

الأستاذ:

طبعاً العلة في المسلمين لا في الإسلام، مثلاً: التأمين من منا يظن أن الله في كتابه حضنا على التأمين؟ التأمين التعاوني، التأمين التعاوني ليس مباحاً بل مندوباً، بل نحن مأمورون به، بينما التأمين التجاري استغلال، الآن أكبر الشركات الضخمة في العالم شركات تأمين، لأنها تعتمد على الاحتمالات، أما لو أن ألف تاجر مثلاً مستورد وضع كل واحد في الصندوق ألف مليون، خمسمائة ألف، مئة ألف، مبلغ ضخم، أي إنسان أصابته نازلة يأخذ من هذا الصندوق، هذا الصندوق فلنا جميعاً، لو لم يصب أحد

النازلة لتقاسمنا هذا المبلغ، واستثمرناه في مشروع تجاري، أو صناعي، أو زراعي، هذا تأمين تعاوني مندوب إليه، تحل مشكلاتنا بالمصرف الإسلامي، والتأمين التعاوني، ما من قضية معضلة إلا ولها غطاء شرعي، ولكن العلة ليست في الإسلام، بل في المسلمين.

أيعقل أن ينزّل الله على رسوله قرآناً، ويكلف النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرحه، وهو المعصوم، وهذا التشريع والمنهج لا يغطي حاجاتنا إلى يوم القيامة ؟ إنه تشريع الله عز وجل، بل إني أعتقد أنه ما مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان والجاهل يفعل في نفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به، الجاهل عدو نفسه، الإنسان آلة معقدة جداً تعقيدَ إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات الصيانة، فأنت انطلاقاً من حرصك على سلامة هذه الآلة، وعلى حسن مردودها، لابد من أن تتبع تعليمات الصانع، هذا هو الحق، بل إن المنهج الإلهي موضوعي، بمعنى أنه لو طبقه ملحد لقطف ثماره.

المذيع:

لقطف ثماره في الدنيا فقط، لأنه لا يؤمن، الإيمان شرط أساسي.

الأستاذ:

وهذا ما يلفت نظر الزائرين إلى بلاد الغرب، تجد أن كل إيجابياتها إسلامية، هم بذكائهم توصلوا أن هذا منهج مناسب للدين، كل إيمانيات بعض الدول إسلامية دون أن يشعروا، هم يعبدون المال من دون الله، ولأنهم يعبدون المال طبقوا منهج الله دون أن يشعروا، لأن هذا منهج موضوعي، كل من طبقه يقطف ثماره في الدنيا، لأن المؤمن كما تفضلت يقطف ثماره في الدنيا وفي الآخرة، فالتجديد يعني أن ننزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه بالضبط، أما أن نضيف شيئاً فهذا اتهام له بالنقص، أما أن نحذف شيئاً فهذا اتهام له بالزيادة، هذا هو أصل الدين.

المذيع:

الشرع من مقومات الأمانة التي حملها الإنسان، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديثه عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ...))

(صحيح البخاري)

هنا المفصل إذا صح التعبير، هذه الشبهات أو هذه المتشابهات التي لا يعلمها كثير من الناس.

الأستاذ:

يعلمها قلة من الناس والعلماء، والله عز وجل يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة النحل)

وهو القرآن، هناك مرجعية.

بالمناسبة لابد للمؤمن من مرجعية، الفرق الواضح بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن أن المؤمن له مرجع، كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن يعلمه، أما غير المؤمن فليس له مرجعية، يخطئ أخطاء فادحة جداً، يكون تدميره في تدبيره، قد يدفع الثمن باهظاً، قد يتعلم درساً بليغاً لا ينتفع به إطلاقاً. مثلاً: لو رأيت كرة قلت: هذه الكرة في جنوب لبنان، يا ترى قنبلة أم غير قنبلة ؟ لو أردت أن تعرفها بنفسك، وليس لك خبرة بالقنابل قد تنفجر، ولثانية واحدة تعلم أنها قنبلة، لكن لن تدع وقتاً في حياة الإنسان كي ينتفع من هذا الدرس، هذه مشكلة العالم اليوم، المنهج الإلهي منهج واضح جداً، يعطي ربنا جل جلاله حقائق أساسية، فالذي أعرض عن هذه الحقائق دفع الثمن باهظاً، فما كل درس ينتفع به، قد يعلم الإنسان علماً يقينياً بعد فوات الأوان، هذا ينقلني إلى حقيقة خطيرة جداً هو أنك مخير في مليون موضوع خيار قبول أو رفض، إلا في الإيمان فهو خيار وقت، هذا البيت لا يعجبك فترفضه، هذه الفتاة لا تعجبك فترفض الزواج منها، هذه الوظيفة ترى دخلها قليلاً، هذه السفرة تراها غير رابحة فترفضها، أما الإيمان فلا يمكن أن ترفضه، والدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون حينما أدركه الموت قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس)

إذًا أكفر كافر آمن، هذا يعني أن الإيمان لا بد منه، لكن إما أن تؤمن قبل فوات الأوان فتنتفع بإيمانك، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان فلا تنتفع بإيمانك، فقضية الخيار مع الإيمان قضية وقت فقط.

المذيع:

وهنا ننتقل إلى مقوّم مقومات أخرى من حملِ الأمانة، ألا وهو الزمن، وهو عامل أساسي.

الأستاذ:

الإنسان بضعة أيام، وكلما انقضى يوم انقضى بضع منه، حقيقته زمن، فكلما مضت ثانية أخذت هذه الثانية من عمره، فكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر،

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمول

فإذا حـملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمـول

وما من يوم ينشق فجره إلى وينادي: يا ابن آدم أنا خَلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة، أنت زمن، رأس مالك هو الزمن، أثمن شيء تملكه هو الزمن، الزمن وعاء عملك، وهذا الزمن له إنفاقان، إنفاق استهلاكي، وإنفاق استثماري، أنا حينما آكل، وأشرب، وأنام، وأرتاح، وأذهب إلى مكان جميل، ثم يأتيني الوقت، أكون قد أنفقت الوقت إنفاقاً استهلاكياً، لذلك يندم الإنسان أشد الندم حينما يأتيه ملك الموت

(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[المؤمنون]

أما المؤمن فينفقه إنفاقاً استثمارياً، يفعل في الزمن عملاً ينفعه بعد مضي الزمن، من هنا كانت هناك سورة عن الزمن، وهي سورة قصيرة، قال عنها الإمام الشافعي: " لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا)

(سورة العصر)

أقسم الله بمطلق الزمن لهذا المخلوق الضعيف، الذي هو في حقيقته زمن، جواب القسم: أنت أيها الإنسان خاسر لا محالة، ما معنى الخسارة هنا ؟ أي إن مضي الزمن يستهلكك، ماذا أفعل لتلافي هذه الخسارة ؟

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

عرف الله معرفة كافية كي يطيعه، إبليس قال: (فَبِعِزَّتِكَ)، آمن به عزيزاً، وإبليس قال: (خَلَقْتَنِي)، آمن به خالقاً، إبليس قال: (أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، آمن باليوم الآخر، ومع ذلك فهو إبليس، أما الإيمان الذي يحملك على طاعة الله فهو الإيمان المقصود، الإيمان العملي الذي حملك على طاعته، ومنعك من أن تقترف إثماً، أو أن تأكل مالاً حراماً، أو أن تعتدي على عرض.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الآن:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

هذا الحق إن لم نتواصَ به ضيقت عليه دوائر الباطل، فنحن بمقولة: نكون أو لا نكون، فإن لم نتواصَ بالحق ضيقت عليه دوائر الباطل، وأنهته، فنحن نتواصى بالحق لا للنماء، بل للمحافظة على الوجود، فلابد من دعاة كبار، ولابد من أن يدعو كل مسلم إلى الله عز وجل بطريقة أو بأخرى، ولهذا الموضوع إن شاء الله تفصيلات نتابع إن شاء الله قريبا.

المذيع:

غداً ـ إن شاء الله ـ سنتابع هذا الأمر، وأمر الدعوة، كيف ندعو إلى حمل هذه الأمانة التي فصلنا مقوماتها، والزمن، نتابع الوقوف عند سورة العصر، والعصر هنا أشكل على بعض العلماء تفسيرها، على أنها مطلق الزمن.

الأستاذ:

مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان خسارته، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، أما الحفاظ على قيمة الزمن فأن نفعل في الزمن عملاً ينفعنا بعد مضي الزمن، هنا قاعدة، هناك خط، أي عمل تعمله هل ينفعك في الدنيا أم في الآخرة ؟ إن نفعك في الدنيا فلا قيمة له، لأن الدنيا زائلة، أما إن نفعك في الآخرة فهو العمل الثمين، لذلك يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله ".**

المذيع:

فرعون آمن في هذا الوقت، نعلم من هو الغني، ومن هو الفقير.

الأستاذ:

أجمل مقولة للإمام علي كرم الله وجهه يقول: **" والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً "**، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، لأن الله عز وجل يقول:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

فرعون آمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل، المقولة الثانية: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "، لشدة اجتهاده، لو علم أن غداً أجله لن يستطيع أن يزيد في عمله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 05 - 30 : كيف ندعو ؟ كيفية حمل الأمانة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف ندعو إلى هذا الدين، وإلى كيفية حمل هذه الأمانة ؟ وسنجيب عن هذا السؤال من قاعدة أرساها الباري عز وجل في قوله تبارك وتعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل)

هل يصح لنا أن ننطلق من هذه الآية ؟

نعم، لأن الإنسان في الأصل مخير، والله جل جلاله ما أجبره على شيء، قال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة)

فكيف يمكن لإنسان أن يجبر إنساناً ؟ ولأن عظمة هذا الدين لا تكون إلا إذا أتيته طائعاً بمبادرة شخصية، وبرغبة ثابتة، وباختيار حقيقي.

الحقيقة أن في الآية ملمحاً رائعاً، قال تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

فالموعظة وصفت بأنها حسنة، لكن في آية أخرى:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل)

أحسن اسم تفضيل، الإنسان حينما يدعو إلى الله عز وجل أناساً يحبونه ينبغي أن يدعوهم بالموعظة الحسنة، أما إذا حاور إنساناً نداً له فكل واحد ربط كرامته بأفكاره، فأنت إن أردت أن تستجلبه، وأن تستلب قلبه، وأن تجعله يحبك فينبغي أن تتواضع له، فإذا كان هناك عدد كبير من الكلمات الحسنى ينبغي أن تنتقي أحسنها.

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

ففي المجادلة لا بد من اختيار أدق العبارات، بل أفضل العبارات، أما في الدعوة العادية لمن أقبل عليك محباً وواثقاً، فيكفي أن تستخدم العبارات الحسنى، أما في الحوار فتستخدم العبارة الحسنى.
والحقيقة أن الإنسان مفطور على حب وجوده، أيّ إنسان، قبل أشهر ولد في الهند الطفل الذي جعل سكان العالم ستة مليارات، الآن سكان العالم ستة مليارات، فهؤلاء الناس جميعاً على اختلاف مللهم

ونحلهم، وانتماءاتهم وأعراقهم، وأنسابهم وأديانهم، ومذاهبهم ومعتقداتهم، يحبون أنفسهم، الإنسان مفطور على حب وجوده، وحب سلامة وجوده، وحب كمال وجوده، وحب استمرار وجوده، فمن أين يأتي الشقاء إذاً ؟ من الجهل، أهل النار وهم في النار ماذا يقولون ؟ يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

هو علم أو جهل فقط، الجاهل عدو نفسه، إذاً لابد من الدعوة إلى الله، لأن الإنسان في الأصل يحب ذاته، يحب وجوده، يحب سلامة وجوده، يحب كمال وجوده، يحب استمرار وجوده، فأنت حينما تحسن مخاطبته، وتبين له ما الذي ينفعه، وما الذي يضره، ما الذي يسعده، وما الذي يشقيه، ما الذي يرفعه، وما الذي يخفضه يستجيب لك.

إذاً، الدعوة إلى الله جزء أساسي من الدين، ولاسيما في عصر كثرت فيه الشبهات، واستعرت الشهوات، وضلّ الناس سواء السبيل، وكان هناك مذاهب وضعية طرحت طروحات غريبة، والعلم لابد من أن يكون حصن للإنسان، فالدعاة إلى الله وجودهم أساسي جداً، وأنا أفرق بين الداعية والعالم، كل داعية ينبغي أن يكون عالماً، لكن ما كل عالم داعية، الداعية عنده وسائل للتوضيح وللتشويق وللتفسير، قد يكون عمل العالم مخبرياً، بينما عمل الداعية إعلاني، فنحن في أمسّ الحاجة إلى دعاة.

سألتني مرة امرأة في أمريكا: لماذا حرم النبي صلى الله عليه وسلم مصافحة النساء ؟ ببساطة بالغة كان يمكن أن أقول لها: الحكم الشرعي، وأصله النصي، فعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ تَقُولُ:

((جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ نُبَايِعُهُ، فَقَالَ لَنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ، وَأَطَقْتُنَّ، إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

(سنن ابن ماجة)

قلت لها: الملكة إليزابيث في بريطانية لا يصافحها إلا سبعة رجال من أقربائها، بحكم القانون البريطاني لعلو مكانتها، والمرأة المسلمة ملكة لا يصافحها إلا سبعة رجال بحكم القانون القرآني ! أعجبتها.

المذيع:

هذه لطيفة.

الأستاذ:

هذه إجابة دعوية، يوجد إجابة فقهية، المسلمين بحاجة إلى داعية لأن الشبهات كثيرة جداً، والدنيا ترقص، والدنيا خضرة نضرة، والمال والنساء والشهوات والحفلات والاختلاط في زحمة هذه الشهوات المستعرة والشبهات المنتشرة، لابد من داعية صادق مخلص يوضح الحقائق.

المذيع:

والحكيم يضع الأمور في نصابها، يتعرف إلى الواقع، ومن خلال هذا الواقع يعمل في علمه الذي تعلمه، وأعطاه الله إياه.

الأستاذ:

كأني أعتقد أن الإنسان إذا أخلص لله عز وجل، وكان صادقاً في دعوته، يلهمه الله الأساليب المؤثرة والأفكار التي تجلّي الحقائق، والطروحات التي تجلب قلوب الناس، يؤيد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة))

(ورد في الأثر)

وأنا أعتقد أنه ما من عمل يتناسب بين أن يكون عملاً عظيماً وهو صنعة الأنبياء، وبين أن يكون عملاً سخيفاً لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله، فإن اتخذته منهجاً ومبدأً وتضحية وعطاء كانت صنعة الأنبياء، وإن اتخذت حرفة وطريقَ رزق كانت عملاً يستأهل أن تحتقره، هناك من يدعو إلى الله، وهناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله.

أعيد، هناك من يدعو إلى الله بإخلاص، هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة إلى الله عز وجل، الذي يدعو بإخلاص يتبع ولا يبتدع، الذي يدعو إلى ذاته يبتدع ولا يتبع، الذي يدعو إلى الله بإخلاص يتعاون ولا يتنافس، الذي يدعو إلى ذاته يتنافس ولا يتعاون، الذي يدعو إلى الله بإخلاص يقدر ما عند الناس من فضائل ومن علم، والذي يدعو إلى ذاته ينكر ما عند الآخرين، بل إنني استقرأت أنه ما من فرقة ضالة في العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام وحتى يوم القيامة إلا وتتلبس بأربع صفات:

أولاً: تأليه الأشخاص.

وثانياً: التخفيف من التكاليف.

وثالثاً: اعتماد النصوص الضعيفة والموضوعة.

ورابعاً: النزعة العدوانية.

ما من فرقة ضالة من دون أن أسمي أسماء إلا وتعتمد على تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الموضوعة أو الضعيفة، والنزعة العدوانية، فلذلك الدعوة إلى الله إلى أن تكون من صنعة الأنبياء، ومن صنعة الله أقرب من أن تكون عملاً عادياً، والدعوة إلى الله فرض عين، وفرض كفاية، أما أنها فرض عين فهناك أدلة كثيرة، يقول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

فكل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم لابد من أن يدعو إلى الله على بصيرة، فإن لم يفعل ليس متبعاً لرسول الله هذه حقيقة.

والحقيقة الثانية:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا)

(سورة العصر)

هذه الأشياء الأربعة أركان النجاة.

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

هذه الدعوة التي هي فرض عين، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

(صحيح البخاري)

أنت حضرت خطبة جمعة، تأثرت بها، ألم تحفظ منها آية، أو حديثاً، أو موقفاً، أو قصة، أو حكماً فقهياً ينبغي أن تنقل هذا للناس طوال الأسبوع ؟ إن فعلت هذا فقد أديت الذي عليك، هذه الدعوة فرض عين على كل مسلم، ولكن ما كلفك الله فوق ما تطيق، بل في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، كل مسلم له أقرباء له جيران وزملاء وأصحاب يلتقي معهم لقاءات يومية مع هؤلاء الذين يعرفهم، ومن خلال ما تعلمه فقط هو داعية إلى الله عز وجل.

وفي حلقات قادمة إن شاء الله نتحدث عن الدعوة الصامتة، يمكن أن تكون أكبر داعية وأنت صامت، لأن الصدق وحده دعوة، والأمانة دعوة، والاستقامة دعوة، والتفوق في الدنيا دعوة، والصبر دعوة، هناك دعاة ناطقون، ودعاة صادقون، ولعل الدعاة الصامتين أشد تأثيراً في الناس من الدعاة الناطقين، إذاً الدعوة فرض عين، لأنك إن لم تتبع النبي صلى الله عليه وسلم فلا تحب الله، والدليل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)

(سورة آل عمران)

ما قبل الله دعوة محبته إلا بالدليل، دليل محبته اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الله.

فالدعوة إلى الله عمل خطير، وجليل، كل داعية عالم، وما كل عالم داعية.

المذيع:

إذاً هي فرض عين على كل مسلم بحسب قدراته، وطاقته، وعلمه، ومن دعا إلى ما ليس له به علم فقد ضل السبيل.

الأستاذ:

جاء وفد إلى الإمام أحمد بن حنبل، وفد من المغرب الأقصى إلى المشرق، لعلهم استمروا في الطريق أشهرًا عدة، ومعهم ثلاثون سؤالاً، فأجاب عن سبعة عشر، قالوا: والباقي، قال: لا أعلم، قالوا: أيعقل أن الإمام ابن حنبل لا يعلم ؟ قال: قولوا لمن أرسلكم: الإمام ابن حنبل لا يعلم، هذا الذي يعلم بكل شيء لا يعلم شيئاً، أما هذا الإنسان العالم الحقيقي فيجيب، أو يقول لا أعلم، وكلمة لا أعلم ترفع من شأنه.

أما فرض الكفاية، فهؤلاء العلماء المتخصصون الذين أمضوا حياتهم في طلب العلم، والذين جلسوا على ركبهم في المساجد، وأخذوا العلم عن رجال عظماء، هؤلاء يستطيعون أن ينشروا هذه الدعوة بأسلوب واضح عميق، وبإمكانهم أن يردوا على الشبهات التي ترد على الإسلام، هذه الدعوة مغطاة بقوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران)

فالداعية المتخصص شيء، والداعية الذي يتعلم، ويعلم من يعلم دون أن يكلف نفسه مالا تطيق، هذا هو الفرق في الدعوة إلى الله التي هي فرض عين، والدعوة إلى الله التي هي فرض كفاية.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً(46))

(سورة الأحزاب)

هل تصدق أن الذي يدعو إلى الله بإخلاص بنص القرآن الكريم هو أعظم الناس من دون استثناء، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(33))

(سورة فصلت)

الآية أولها:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

إذا كنت مؤمناً فلابد من أن تستقيم حتى نصدق إيمانك، علامة الإيمان الاستقامة، وإن دعوت إلى الله فلابد من أن يكون عملك صالحاً حتى نصدق دعوتك، الآية الأولى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

أي أنا منهم، ولست فوقهم، أنا لم أبتدع، ثلاث نصائح تكتب على ظفر، اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع، فالدعوة إلى الله هي ابتاع، سيدنا الصديق: " ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر "، ماذا قال حينما تسلم الخلافة ؟ قال: **" إنما أنا متبع، ولست بمبتدع "**، الاتباع مهم جداً

في الدعوة، وإلا نقع أمام مذاهب وطوائف وخلافات وحروب ودماء تسيل، وفتن تظهر، فلابد من أن تتمسك بالكتاب والسنة.

المذيع:

هذه من أعلى قواعد الدعوة، لنستعرض بعض عناوين قواعد الدعوة كما رأيتموها، وكما ذكرتموها في بعض مؤلفاتكم فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، ولكن طبعاً هذا مستقىً من نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأستاذ:

القدوة قبل الدعوة، الإحسان قبل البيان، التيسير للتحذير، مخاطبة العقل والقلب معاً، التربية لا التعرية، الدليل والتعليل، معرفة الآمر قبل الأمر، التبرز لا الطفرة، المتفق عليه لا المختلف عليه، المبادئ لا الأشخاص، المضامين لا العناوين، الأصول قبل الفروع، هذه بعض قواعد الدعوة، وكلها مستقاة من الكتاب والسنة.

هناك حقيقة خطيرة، النبي له سنتان: السنة الأولى: افعل ولا تفعل، والسنة الثانية: كيف دعا إلى الله، الدعاة في الأرض لا يفلحون، ولا ينجحون، ولا يتألقون إلا إذا اتبعوا منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، وقد تثور عليهم مشكلات كثيرة، ويصير حولهم جدل طويل حينما يخرجون عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة.

المذيع:

إذاً: القدوة قبل الدعوة، بداية يجب أن يكون قدوة للآخرين كي يصدقوه، ويصدقوا ما يقوله.

الأستاذ:

يحب أن تكون طبيباً متفوقاً، أو مهندساً، أو من اختصاص نادر، ويمكن أن تحقق كل أهدافك، أما الذين يتعاملون معك فلا يهمهم السلوك الشخصي إطلاقاً، ننتفع بعلم الطبيب دون أن نهتم بأخلاقه أو سلوكه الشخصي، إلا عالم الدين فلا يمكن أن يصغي إليه أحد، ولا يستمع إليه أحد إلا إذا رأوا عمله مطابقاً لقوله، هناك نفاق اعتقادي، أن تقول مالا تعتقد، وما أكثرهم، وهناك نفاق عملي، أن تفعل مالا تقول، والداعية الصادق هو الذي لا تجد مسافة إطلاقاً بين ما يقول وما يعتقد، وبين ما يقول وبينما يفعل، التطابق تام.

التقيت مع أحد الدعاة في مصر قد توفي رحمه الله، الشيخ الشعراوي، سألته عن نصيحة أوجهها للدعاة، توقعت أن يذكر نصائح كثيرة، لكنه اكتفى بنصيحة واحدة، قال: ليحرص الداعي أن يراه المدعو وفق ما يتكلم، فإن لم تكن هذه متوافرة فالداعية سقطت دعوته.

المذيع:

القدوة هي رأس الأمر.

الأستاذ:

الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، موقف واحد من إنسان مطبق أبلغ من مئة محاضرة، قال بعض العلماء: حال واحد في ألف أبلغ من ألف قول في ألف واحد، ألف رجل يتكلمون مع واحد قد لا يهزون عنده شعرة في جسمه، أما حال واحد قد يغير مجرى حياة ألف إنسان، القادة العظام، والدعاة الكبار والصديقون والعلماء العاملون لهم بصمات كبيرة جداً في العالم الإسلامي يلأنهم أخلصوا، فالقدوة قبل الدعوة، بل إن الإنسان في ذهنه دائماً شخصية يكونها، ويتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، كل إنسان في حياته ثلاثة نماذج، فإذا كانت شخصية النبي عليه الصلاة والسلام هي الشخصية التي أتمنى أن أكون على شاكلتها أو على منهجها فأنا مؤمن، أما كل إنسان تائه عن الشرع وعن الدين الشخصية التي يتمنى أن يكونها ليست المؤمنين الصادقين، وقد يفعل الذي يقف موقفاً أخلاقياً في الناس ما تفعله ألف محاضرة، الذي يهز الناس التضحية والإيثار والصدق والأمانة.

مرة عبد الله بن رواحة أرسله النبي عليه الصلاة والسلام لتثمين تمر خيبر، فاليهود أرادوا أن يرشوه، أعطوه بعض حلي نسائهم، فطبعاً أبى، قال: جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

والله الذي لا إله إلا هو لو فهم أصحاب رسول الله عليهم رضوان الله الإسلام كما يفهمه عامة المسلمين اليوم والله ما خرج الإسلام من مكة، أما كيف خرج من مكة إلى المدينة إلى أطراف الجزيرة، إلى المشرق إلى المغرب ؟ بأن المسلمين فعلوا ما قالوا.

سيدنا عمر قال لراعي: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟

هذه الخشية، وهذا الصدق، وهذه الطاعة هي التي تميز المؤمنين الصادقين في العصور الأولى، وأما أن يتخذ الدين مجال رزق، أما أن نعيش فلكلور الدين ومظاهره، فأصبح ديننا ثقافة وفلكلورا وعادات وتقاليد، فالإسلام في واد، والمسلمون في واد.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 06 - 30 : قواعد الدعوة1: الترغيب والترهيب والإحسان قبل البيان.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في الأثر القدسي: أن يا داوود، ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها.

الداعية إلى الله يريد قلوب الناس، إما أن تملك رقاب الناس بقوتك، وإما أن تملك قلوبهم بكمالك، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، والناس جميعاً أتباع قوي أو نبي، سلاح القوي ما مكنه الله فيه في الأرض، أما سلاح النبي فالكمال الإنساني، فلذلك فرق كبير بين أن تملك الرقاب وبين أن تملك النفوس، بالبر يستعبد الحر.

يروي التاريخ أن سيدنا معاوية جاءته رسالة من مواطن قال: أما بعد، فيا معاوية رجالك قد دخلوا أراضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام.

رسالة في منتهى القسوة.

المذيع:

هكذا يخاطبه بطريقة الند للند.

الأستاذ:

كان إلى جانبه ابنه يزيد، دفع هذا الكتاب إلى ابنه، قال: يا يزيد، ماذا نفعل ؟ فكر يزيد فقال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه، قال: غير هذا أفضل، جاء بكاتبه وقال له: اكتب: أما بعد: فقد وقفت على كتاب حواري رسول الله عبد الله بن الزبير، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة، لقد نزلت له عن الأرض ومن فيها، فأرسل جواباً قال فيه: أما بعد، فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، فجاء بيزيد وقال: انظر الجواب، تريد أن أرسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندنا ليأتونا برأسه، قال: يا بني، من عفا ساد، ومن كرم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب، بالبر يستعبد الحر.

بطولتك لا أن تملك الرقاب، أي إنسان في الأرض يمكن أن يخضع الناس جميعاً، البطولة أن تملك القلوب، أن هذا الإنسان سر، كيف تستطيع أن تجلبه، أن تجعله يميل نحوك، القضية ليست قضية تمكين في الأرض، هناك نقطة دقيقة جداً، الأنبياء كانوا ضعافاً حينما جاؤوا بدعوتهم، إنسان يقول للنبي صلى

الله عليه وسلم: مجنون، وينام في بيته آمناً مرتاحاً مطمئناً، يقول عنه: ساحر، يقول عنه: شاعر، يقول عنه: مجنون، هم ضعاف.

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مر على عمار بن ياسر وهو يعذّب، لا يستطيع أن ينقذه من العذاب قال له:

((صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة))

(ورد في الأثر)

لماذا أراد الله أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بداية الدعوة ؟ ليكون الإيمان به حقيقياً، لو كان قوياً لآمن الناس جميعاً طمعاً، أو خوفاً، والطمع والخوف يسقطان الدعوة.

هناك نقطة دقيقة جداً، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب)

هؤلاء ما صفاتهم ؟

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

لو أنهم تكلموا كلاماً غير صحيح إرضاءً لجهة، أو سكتوا عن كلام ينبغي أن يقال إرضاء لجهة لسقطت دعوتهم، فالداعية كما قال الظاهر بيبرس: والله ما استقر ملكي حتى مات العز بن عبد السلام.

الحسن البصري سئل مرة: ما هذا المقام الذي حباك الله به ؟ قال: **" لأني استغنيت عن دنيا الناس، وهم محتاجون إلى علمي "**، فإذا طمع الداعية بما عند الناس، واستغنى الناس عن علمه سقطت الدعوة.

المذيع:

الإحسان قبل البيان، أن يكون محسناً، والإحسان هنا ينسحب على كل تصرفاته وكل شؤونه.

الأستاذ:

الدعوة وسيلة، هذا الإنسان ما الذي يجعله يميل نحوك ؟ منطقك ؟ لا، هناك متكلمون ومتفلسفون وخطباء وكتّاب، الذي يجعل قلب المسلم يميل إلى هذا الداعية إحسانه، إذا أحسن إليه فُتح قلبه له، وفتح عقله، فإن أردت أن تصل إلى أعماق الإنسان فينبغي أن تحسن إليه وأن تحل له مشكلاته، ينبغي أن تشعره أن مشكلته هي مشكلتك، وأن قضيته قضيتك، ومسرته مسرتك، وأن ما يؤلمك يؤلمه، هكذا الدعوة، الحقيقة الدعوة ليست معلومات، هي قلب كبير لابد من معلومات هي قلب كبير، لابد من معومات لكن قلب كبير يسع المدعوين، قلب كبير يتفاعل معهم، يحل مشكلاتهم، يأخذ بيدهم، يضمد جراحهم، هذا هو الداعية، أنت بحاجة إلى قلب، إلى ركن ركين، لست بحاجة إلى متفلسف، أنت قد

تستمع إلى محاضرة ولا تحب الذي ألقى المحاضرة، لكنك لو التقيت بمؤمن تذوب محبة له بتواضعه، وإحسانه، وإنصافه، فأنت إن أردت أن تفتح القلوب لدعوتك فلابد من أن تستخدم الإحسان في هذه الدعوة، النبي عليه الصلاة والسلام كان متفوقاً تفوقاً رائعاً في هذا الموضوع.

مرة عمير بن وهب التقى بصفوان بن أمية بمكة، قال: واللهِ لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، صفوان بن أمية رآها فرصة نادرة، فقال له: أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت، فامض لما أمرت.

سقى سيفه سُمًّا، وانطلق إلى المدينة ليقتل النبي صلى الله عليه وسلم، طبعاً ابنه أسير عند النبي صلى الله عليه وسلم، فرآه عمر رضي الله عنه، وقال: هذا عدو الله، جاء يريد شراً، هكذا فتح الله بصيرته، وقيده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا عمر أطلقه، فأطلقه، قال: يا عمر ابتعد عنه، فابتعد عنه، قال: ادنُ مني يا عمير، فدنا منه، قال: يا عمير، سلم علينا، قال: عِمتَ صباحاً يا محمد، قال: قل: السلام عليكم ورحمة الله، قال: لست بعيدَ عهد بسلامنا، منتهى الغلظة، قال: يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت أفك ابني من الأسر، قال: وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال: قاتل الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال: يا عمير ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني لا أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه ؟ فوقف، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني، وبين الله لا يعلمه إلا الله، وأنت رسول الله وأسلم !

كان عليه الصلاة والسلام رائعًا جداً في نقل أعدائه إلى محبين، وهناك أناس ـ والعياذ بالله ـ متخصصون بقلب أحبابه إلى أعداء من سوء تدبيره، فهذا الإنسان حينما ترحمه، وتنصفه، وتحسن إليه، وتشكره، وتعاونه معاونة في الدين يقترب منك.

إنّ أكثر الناس يتوهمون أن صلة الرحم أن تطرق عليه الباب، صلة الرحم تفقد ومساعدة ومعاونة وهداية إلى الله هذه صلة الرحم، أما أن يزور الغني قريبه في العيد، وهذه ليست هي الصلة، الصلة أن تتعهده أن تهتم بأولاده، أن ترعى أسرته، أن تمدهم ببعض المال، عندئذ إن دعوته إلى الله استجاب لك، هذه حقيقة، لاحظ أي إنسان أكرمتَه أحسنـَ إليه يتواضع لك ويحبك، فإذا أحبك أصغى إليك، العبرة أن تحمله على أن يصغي إليك، أن تراه أخاً في الإنسانية، لا أن تراه دونك، الدعوة أخلاق، وقلب كبير، والدعوة إحسان، وآخر شيء الدعوة بالكلام، وأقلّ ما فيها هو الكلام، وأكبر ما فيها القلب الكبير، هناك قلب يكبر، ولا نرى كبره، يتضاءل أمامه كل كبير، وهناك قلب يصغر، ولا نرى صغره، يتعاظم عليه كل حقير، فالدعوة ليست أن تأخذ شهادة شرعية، الدعوة أن تحب الناس، النبي عليه الصلاة والسلام في

الطائف كذبوه، وسخروا منه، وأساؤوا إليه، فجاء جبريل، وقال: ملك الجبال بين يديك لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: اللهم اهد قوي فإنهم لا يعلمون.

فقضية الدعوة قضية إحسان، وقضية عطاء، حينما تقيس الدعوة بما نالك منها فأنت لست بداعية، تقاس الدعوة بما أعطيت بما بذلت بما قدمت بما سعيت، فالإحسان قبل البيان، وكان عليه الصلاة والسلام محسناً إلى أبعد الحدود، وما من داعية صادق يؤثر في الناس إلا وله عمل طيب والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(33))

(سورة فصلت)

المذيع:

الإحسان هو بذل وعطاء، ولكن هناك عبارة عامة يفهمها عامة الناس، أن المحسن هو فقط من يتصدق بالمال.

الأستاذ:

هذا معنى محدود جداً، الإنفاق له معنى واسع جداً، قد تنفق من علمك، وقد تنفق من عواطفك، وقد تلقى أخاك بوجه طلق، وقد تنفق من اهتمامك، وقد تنفق من وقتك، وقد تنفق من مالك، وقد تنفق من جاهك، قال تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54))

(سورة القصص)

هذا المطلق على إطلاقه في القرآن، إنكم لن تَسَعُوا أناس بأموالكم فسعُوهم بأخلاقكم، أحياناً تقول لموظف عندك: كيف حالك ؟ كيف الصحة ؟ هل أنت بخير ؟ هل أنت بحاجة لشيء ؟

المذيع:

تأثر فيه هذه الكلمات.

الأستاذ:

العبرة أن تملك القلوب، لا أن تملك الرقاب، ويكون ملكك تمهيداً لإقناع الإنسان بأحقية هذا الدين، فالإحسان قبل البيان.

المذيع:

كيف تربي النفس عندما تمتلكها ؟

الأستاذ:

أربيها على منهج الله، الإنسان حينما يتفوق في عمله، وحينما يحسن إلى خلق الله، يمهد السبيل لأفكاره، وما من فكرة يمكن أن تبثها في الآخرين إلا إذا سبقتها أعمال طيبة تمهد لها، لا تكن قاسياً

فتكسر، ولا ليناً فتعصر، سهل أن ترغب، وسهل أن ترهب، لكن البطولة أن تجمع بينهما، سهل أن تكون قاسياً أو سهلاً، أما البطولة فأن يحتار الناس في شخصيتك، إنهم يحبونك بقدر ما يخافونك، فأنا حينما أربي التلاميذ على خوف من الله فقط فالخوف متعب، وإذا ربيتهم على الرحمة فقط فالرحمة تدعو إلى التساهل والتفلت، فربنا عز وجل إن رأى من عبد تسيباً ثقة من رحمته يؤدبه، وإن شارف العبد على اليأس من رحمة الله يطمئنه، فالموقف الكامل: ورد في بعض الآثار القدسية: " يا رب من أحب عبادك إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: **ذكرهم بآلائي، ونعمائي وبلائي** ".

هناك تعليق على هذا الكلام، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، لابد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله، وخوف منه، وحب له، أما أن يكتفي بالحب هذا قد يؤدي إلى التساهل، يكتفي بالخوف يؤدي إلى القنوط، فالداعية الحكيم يجمع في دعوته بين الترغيب والترهيب، إن صور لهم أحوال أهل النار في النار فلابد من أن يصور لهم أحوال أهل الجنة في الجنة، وإن خوفهم من عدل الله وجب أن يجعلهم يرجون رحمة الله عز وجل، هنا البطولة، دائماً الأمر المتطرف سهل، وعامة الناس يفعلون التطرف دائماً، قد تجد الأب متساهلا، يسيب بيته، وقد تجد الأب قاسيًا جداً، فيحطم أسرته، ولكن الأب المربي هو الذي يحبه أولاده بقدر ما يخافونه، لذلك ورد في القرآن الكريم:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

(سورة الرحمن)

أنت في حياتك قد تعجب بإنسان، ولا تحبه، وقد تحب إنسانًا، ولا تعجب به، أما أن تجتمع بإنسان جمع بين العلم والتفوق والذكاء وبين الطيب فهذا شيء نادر جداً.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

إذا عرف العبد كمال الله عز وجل يحبه بقدر ما يخافه، بقدر ما يحبه بقدر ما يخافه، الترغيب والترهيب أحد أسس الدعوة إلى الله.

ما ذكر الله مشهداً من مشاهد أهل النار إلا أتبعه بومضة من ومضات أهل الجنة، حتى يجمع بين الترغيب والترهيب، الإنسان قلب العبد فإذا يأسته يئس من رحمة الله، أنت ما فعلت شيئاً، هناك خطباء خطبة بأكملها على وصف أحوال أهل النار، يخرج المصلي محطمًا، وخطباء آخرون يطمعهم برحمة الله، إلى درجة أنهم لا يستقيمون، فلابد من الجمع بين الترغيب والترهيب .

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 07 - 30 : قواعد الدعوة2: مخاطبة القلب والعقل والدليل والتعليل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن الإنسان في أدق تعاريفه عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك ولابد لجسمه من غذاء، وغذاؤه هو الطعام والشراب، كما أنه لابد لعقله من الغذاء، وغذاؤه العلم، ولابد لقلبه من غذاء، وغذاؤه الحب، فالصحة النفسية هي التوازن والتعادل والوسطية، فحينما نخاطب القلب فقط ونهمل العقل، نحن أمام شخص خرافي انفعالي عاطفي، يثور لأتفه الأسباب، وتفتر همته لأتفه الأسباب، والإنسان الانفعالي لا ينجح في الحياة، مع أن العاطفة قوة محركة جداً، ولكنها تحتاج إلى مقود، تصور محركًا ضخمًا وقويًا في مركبة بلا مقود، فالتدهور حتمي، تصور مقودًا بـلا محرك، لا قيمة له، فالعقل والقلب يتكاملان، فإذا كان العلم غذاء العقل، فإن الحب غذاء القلب، والطعام والشراب هذا متفق عليه بين كل أهل الأرض، غذاء الجسد.

أنا أتصور أن أية دعوة تخاطب العقل وحده لا تنجح وتسقط، وأية دعوة تخاطب القلب وحده لا تنجح، وتسقط، أما إذا فهمنا أن الإنسان عقل يحتاج إلى علم، والعلم سلاح، ثم فهمنا أنه قلب يحتاج إلى حب، فالداعية الناجح هو الذي يتعامل مع الإنسان ككل، مع الإنسان الكامل عقلاً وقلباً وجسماً.

مرة طرحت موضوعاً في بعض المؤتمرات عن تربية الأولاد في الإسلام، قلت وقتها: لابد من أن يربى الطفل تربية إيمانية، وتربية عقلية، وتربية علمية، وتربية نفسية، وتربية اجتماعية، وتربية جنسية، المشكلة في التوازن، وفي التنسيق بين قدرات الإنسان، فحينما تلهب مشاعر الإنسان، ولا تعطيه الفكر العميق الذي يوظف هذه المشاعر لصالحه نكون قد شكلنا شخصاً غير سوي، أما إذا اكتفينا بمخاطبة العقل فقد ننجح في تكوين إنسان متحذلق متكلم عنده حجة قوية، ولكن ليس له قلب ينبض بالحب، فيؤثر بالآخرين.

يأتي إنسان مصلح، ويلقي محاضرة من أعمق ما يكون، ومع ذلك لا يهز مشاعر الناس، الإنسان يحتاج إلى قناعة، ويحتاج إلى موقف، العلم يقدم له قناعة، لكنه في الحب يقدم له موقفًا، والأبطال في العالم ما كانوا أبطالاً لولا أنهم أدركوا إدراكاً صحيحاً، وانفعلوا انفعالاً صحيحاً، بل إنهما ـ الإدراك والانفعالَ ـ يتكاملان أحياناً.

قرأت في علم النفس أن علاقة الإنسان مع محيطه تنظمها قاعدة، وهي: إدراك، انفعال، سلوك، فحينما أكون في ببستان، وأرى أفعى لا يمكن أن أنفعل إلا إذا أدركت أنها أفعى، فإن صح إدراكي انفعلت،

وحين أنفعل لابد من أن أتحرك، إما لقتلها، أو للهروب منها، فكأن هذا قانون قطعي، إدراك، انفعال، سلوك.

لو أن إنسانا قال لإنسان: على كتفك عقرب، فبقي الإنسان هادئاً، والتفت نحوه، وقال: أنا أشكرك على هذه الملاحظة، وأتمنى أن أكافئك عليها، هذا يعني أنه ما فهم ما قال، لو فهم ما قال لخرج من جلده، ونفض ثوبه.

المذيع:

والمادة مادة القلب، وغذاء العقل، والقلب موجودة في الإسلام على أنها مادة رحمة، وهذا ما يميز ديننا الحنيف، تخاطب العقل بإثبات الحقائق.

الأستاذ:

والقلب بالمشاعر، إن أردت أن تقنع الناس فتكلم بالعلم، وخاطب عقولهم، إن أردت أن تحركهم فتكلم بالعاطفة، وخاطب قلوبهم، بل إن من أروع ما قرأت في تفسير بعض الآيات: إن الله يخاطب العقل والقلب معاً في آية واحدة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(7))

(سورة الانفطار)

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6))

هذا يستثير مشاعر الوفاء.

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

يوقظ عقله، فأنا أرى أن كل داعية يهمل القلب أو العقل لا ينجح، بل إنني أنتظر من الدعاة أن يسلكوا في دعوتهم وفق معطيات ثلاث: أن يبسطوا الإسلام، وأن يعقلوه، وأن يطبقوه، تبسيط، وعقل، وتطبيق، التبسيط، هذا الدين كالهواء تماماً للناس، لا يمكن إلا أن يكون استنشاقه سهلاً، وإخراجه سهلاً، أما أن تجعل من الدين عقدًا ومتاهات وخلافات بين علماء، ما فعل هذا الصحابة الكرام، بل إن الإنسان حينما يضل عن سبيل الله يؤتى الجدل، أنا من أنصار تبسيط الدين، الدين يجب أن يكون مبسطاً، قد تقرأ كتاباً في العقيدة، كل سطر يحتاج إلى ساعة لفهمه، ديننا أبسط من ذلك، الدين حقائق تستنبط من الكون، وحقائق تؤخذ من كتاب الله، وسلوك تتبع به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنت من المؤمنين، من هو الولي في نظر القرآن ؟

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

عرف الله وأطاعه، فمخاطبة العقل مهمة جداً، بل إنني أرى أن الله عز وجل حينما قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

(سورة إبراهيم)

قد نفهم هذه الآية فهماً ضيقاً، أما هذا النبي صلى الله عليه وسلم فجاء إلى أمة عربية، فنطق باللغة العربية، هناك معنى أوسع بكثير، الشيء المهم في زمانه يجب أن يتخذ وسيلة، نحن الآن نؤمن بالعلم، والعلم يطغى على كل نشاطاتنا، إذاً لا يمكن لداعية أن يلقي العلم وراء ظهره، لابد من أن يتفق العلم مع النقل، لأن العلم قوانين إلهية قننها الله عز وجل، والدين وحي إلهي أنزله الله، والمصدر واحد، فهذا الذي يقيم حاجزاً بين العلم والدين إنسان يوقع الإنسان المدعو بانفصام الشخصية، فالطالب أحياناً يأتي إلى المدرسة ليتعلم أن أصل الإنسان قرد، ويأتي إلى درس الدين ليتعلم أن أصل الإنسان من آدم وحواء، فهذا التناقض يخلق مشكلة في شخصية الإنسان كبيرة جداً، فبطولة الداعية أن يوفق بين العلم والدين، هما في الأصل متطابقان، لكن انفصلا بفعل جهل بعض الجهلاء.

المذيع:

في مسألة خلق الإنسان، كيف تتصرفون ؟

الأستاذ:

نحن نبين أن الحقيقة لا تتخذ أساساً ودليلاً إلا إذا كانت حقيقة، أما إذا بقيت نظرية فهذه لا يعتد بها، بدليل أن هناك من نقضها الآن، وبأسلوب علمي قوي، فالداعية لابد له من ثقافة عصرية، لو أنه اكتفى بالثقافة الدينية المحضة، لا يستطيع أن يرد شبهات الأعداء، فلابد من ثقافة عصرية يتعامل معها كي يوظفها في خدمة الدين، من غير الممكن أن تدعو إنسان إلى الدين وهو يتعلم شيئاً مناقضاً للدين، لذلك الداعية الذي ينبغي أن يؤثر في الناس ينبغي أن يلم بثقافة عصره.

التقيت مع أحد الدعاة قال لي: والله ما وقع تحت يدي كتاب إلا قرأته، حتى إن الطبيب يجلس أمامه كالتلميذ، هو متعلق بالعلوم العصرية، والإنسان إذا تعمق في العلم رأى الانسجام والتناغم، أما هذه الحدود الفاصلة بين العلوم فهي حدود مصطنعة، فحينما تخاطب العقل مثلاً، حينما تأتي بحقيقة دينية رائعة، تأتي حقيقة علمية تؤيدها، بماذا تشعر ؟ الآن ثبت بعد جهود جبارة، وبعد مقاييس للأمطار رهيبة، كل بلد يوجد آلاف مؤلفة من مقاييس الأمطار الآن ثبت أن هطول الأمطار في الأرض لا يزيد ولا ينقص، بل يتحول من مكان إلى مكان، فبينما تجد في مكان جفاف قاتل، وفي مكان سيل قاتل، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((ما عام بأفضل من عام))

(سنن البيهقي الكبرى عن عبد الله)

بلا مقاييس ! وهذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، مبعوث العناية الإلهية يقول:

((ما عام بأفضل من عام))

(سنن البيهقي الكبرى عن عبد الله)

ولكن الله يؤدب عباده، أنا أقول لإخواني دائماً: لا يمكن أن يكون التقنين الإلهي تقنين عجز، إنه تقنين تأديب فقط، فكلما قلّ ماء الحياة قلّ ماء السماء، وكلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن.

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف)

هذه قضية متعلقة باستقامة العباد، فإذا انحرف العباد عن منهج الله أدبهم الله بالتقنين، وهذا التقنين تقنين تأديب.

قرأت أن سحابة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

فأنت حينما تأتي بحقائق العلم، وتعرضها عرضاً لطيفاً مبسطاً، وتري إخوانك كيف أن هذه الحقائق منطبقة انطباقاً تاماً على حقائق الدين تعلم علم اليقين أن الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الأكوان هذا التوائم.

أما في بعض الديانات فهناك طلاق بين الدين وبين العلم، الإيمان فوق العقل، كل شيء إيماني غير معقول، هذا الشيء مرفوض، أما أنا حينما أقيم علاقة منسجمة بين العقل والعاطفة، وأدعو إلى الله عز وجل من خلال تغذية العقل بالعلم، وتغذية العاطفة بالحب، أجعل إنساناً متوازياً، عنده قناعة تامة، وعنده اندفاع شديد، كما أن الاندفاع لا يجدي إن لم يكن منطلقاً من قناعة علمية صحيحة، فهذه نقطة دقيقة، مخاطبة العقل والقلب معاً

المذيع:

من هذا ننطلق إلى الدليل والتعليل، وهذا خطاب للعقل مباشرة، الدليل والتعليل أن تأتي بدليل شرعي، وتعلله، وتبين حكمته.

الأستاذ:

ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، بعضهم يقول: العلم هو الوصف المطابق للواقع مع الدليل، لو أننا لم نعتقد أن هذه العلاقة مقطوع بها كان الوهم والشك والظن، الوهم نسبة صحته ثلاثون بالمئة، والشك

نسبة صحته خمسون بالمئة، والظن تسعون بالمئة، لكن العلم هو القطع، لا يقبل الظن، ولا الشك، ولا الوهم، لابد من القطع، حقيقة مقطوع بها، تطابق الواقع، عليها دليل، لو ألغينا الدليل لوقعنا في التقليد، لو ألغينا الواقع لوقعنا في الجهل، لو ألغينا القطع لوقعنا في الشك والظن والوهم، فإذا قلنا: علم نقصد به حقيقة مقطوع بها، تطابق الواقع، عليها دليل، هذا هو العلم الوصف المطابق للعلم مع الدليل، فأنت حينما تأتي بالدليل تنمي في الإنسان مقاييسه العقلية، أنت حينما تأتي بدليل على كل حقيقة تعلم المخاطب كيف يفكر، أنا أقول لإخواني دائماً: لا تقبل شيئاً إلا بالدليل، ولا ترفض إلا بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء.

مرة كنت في زيارة عالم في دمشق يسكن في طابق مرتفع جداً، الطابق الثاني عشر، ودمشق يراها من كل أطرافها، فقال لي: كل هذه المدينة ملكي بلا دليل، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، أنت حينما تربي الإنسان على أن يستخدم الدليل تربي عقله، الخرافة بلا دليل، الشطح بلا دليل، الوهم بلا دليل، الظن بلا دليل، على الداعية أن يتحدث بدليل، يربي إخوانه على ألا يقبل شيئاً إلا بالدليل، وألا يرفض شيئاً إلا بالدليل، وإلا فنحن أمام أديان لا أمام دين واحد، أمام مذاهب لا تعد ولا تحصى، لأنه ما من فرقة ضالة إلا اعتمدت نصاً ضعيفاً، أو موضوعاً، فأنا أقول: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

((ابن عمر، دنيك دينك، إنه لحمك ودمك، وخذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كتاب الزهد، لابن أبي عاصم]

أنا أربي المتعلم على أن يعد الدليل أساساً.

أستاذ زياد، مرة أرسل النبي عليه الصلاة والسلام سرية، وأمر عليها أنصارياً ذا دعابة، هذه القصة في مسلم والبخاري، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

العقل لا يعطل أبداً، أنا حينما أربي تلميذي على أن يأخذ مني بلا دليل يأتي دجال، أو كذاب، أو مخرف، ويلقي بكل شيء، أما حينما أربيه أن يأخذ كل شيء بالدليل يرفض أي شيء بلا دليل، على كل ربنا عز وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد)

لم يقل فقل، بل إن بعض العلماء يرى أن العقيدة ولو كانت صحيحة لا تقبل إلا عن بحث ودرس، أما أن تقبلها ولو أنها صحيحة بلا دليل سريعاً ما تتركها، لأنها شبهة، فقضية العقل تحتاج إلى دليل وبحث، فلولا الدليل لقال من جاء ما جاء، أنا حينما أقبل من الناس إيماناً بلا دليل كل الفرق الضالة معذورون عند الله، قيل لهم كذا تصدقوا، أما حينما يخاطب المسلم أنه لا يقبل الله اعتقادك إلا إذا كان عن بحث ودرس فعندئذ يعد للألف قبل أن يقبل قصة لا أصل لها.

المذيع:

الدليل والتعليل قاعدة من أسس الدعوة إلى سبيل الله، ونستعرض بقية القواعد، بقي علينا أن نعرف الآمر قبل الأمر، أي أن نعرف الله سبحانه وتعالى الذي أمر بالهدى والتقى.

الأستاذ:

وأن نتدرج، لا أن نلقي بالتعليمات دفعة واحدة، وكل هذا بالمتفق عليه، لا بالمختلف عليه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 08 - 30 : من هو المُبَلِّغْ؟.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية التبليغ من أدق القضايا في الإسلام، ذلك أن الإنسان خلق بفطرته على التدين، يقول الله عز وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

هناك تطابق تام بين بنية النفس وخصائصها وجبلتها وبين مطلق الدين، الإنسان خلق جزوعاً، وخلق هلوعاً، وخلق عبداً، هذه نقاط ضعف في شخصيته من أجل أن يلجأ إلى ربه، فيسعد بقربه، فحاجة التدين حاجة فطرية عند كل إنسان كائناً من كان، حتى الذين عبدوا ما سوى الله، عبدوا الأحجار والأوثان، والشمس والقمر والبقر، هؤلاء استجابوا لفطرتهم في التدين، والفطرة في التدين تعني أن يلجأ الإنسان إلى قوي وإلى عزيز، وإلى غني وإلى قدير، لأن الإنسان خلق ضعيفاً لابد من أن يفتقر إلى جهة قوية، فيسعد بهذا اللجوء، وهذا الإقبال، ولكن المشكلة أن كل إنسان يحب وجوده، ويحب كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، ويحب سلامة وجوده، فلو عرف الجهة الوحيدة التي يسعد بقربها، ويسعد بالالتجاء إليها وبالإقبال عليها لتوصل إلى الله عز وجل.

هناك شعور عميق يدل على أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، هذا الكون من الثوابت الكبرى، شيء عجيب، إن في حجمه، وإن في دقة دنياه، وإن في عظمة القوانين التي تحكمه، فخالق هذا الكون إذا أرسل رسولاً، وأنزل كتاباً فلابد من أن يكون هذا الرسول قمة في الخلق، وقمة في العلم، وقمة في الحكمة، ولابد من أن يكون الدين قمة في الكمال، وقد ذكرت لكم من قبل أن أحد كبار العلماء قال: " الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، وأية قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، فمركّب في أعماق الإنسان أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فما لم يدعُ الإنسان إلى الله بمضمون عميق ومتماسك، وشمولي ومنطقي، وأخلاقي وجمالي، ما لم يدعُ دعوة تقيم وحدة في الكون، لا تقيم تنافراً، تقيم انسجاماً، لا تناقضاً، تقيم دعوة مبنية على أسس علمية، وعلى أسس أخلاقية، وعلى أسس جمالية، فهذه الدعوة في ذهن المدعو لا تتناسب مع عظمة الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام له طريقة في الدعوة، هو له منهج: افعل ولا تفعل، ولكن فضلاً عن هذا المنهج التفصيلي له طريقة في الدعوة، فأي عالم اتبع منهج النبي في أسلوب دعوته، وفي عمق

دعوته ينجح، ويلقى رواجاً كبيراً، ويثني الناس عليه، وأي عالم يحيد عن منهج رسول الله يثير حوله جدالاً طويلاً، وقد يبتعد الناس عنه.

مثلاً: النبي عليه الصلاة والسلام توفي ابنه إبراهيم والصحابة الكرام من شدة حبهم لرسول الله لحكمة أرادها الله كسفت الشمس، فكلهم ظن أن الشمس كسفت لموت إبراهيم، ماذا فعل النبي ؟ وهو نبي وهو رسول مؤيد بالمعجزات، جمع الناس، وألقى فيهم خطبة، فعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:

((كَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللَّهَ))

(متفق عليه)

دقق كيف فصل النبي القضية العلمية عمّا يعتري الإنسان من وهم أحياناً

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ))

فنحن حينما نختلف في طريقة الدعوة، وكل يدعي أنه على صواب، عندنا مرجعية، وهذا أعظم ما في الدين، هناك مرجع ترجع إليه، إن اختلفنا فلنا مرجع، هو كتاب الله وسنة رسوله، فإذا اعتمدنا كتاب الله، وما صح من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن نفهمهما فهماً أصولياً، فهما المرجعان اللذان إذا اختلف الدعاة فيما بينهم يرجعون إلى هذين الأصلين.

إذاً نحن قد نختلف، والعقل مربوط بالواقع وبمعطيات البيئة، فقد نختلف، وقد يدعي كل منا وصلاً بليلى، وليلى لا تقر بذاك.

العبرة أن تكون أفكاري ومنهجي في الدعوة وفق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

المذيع:

فضيلة الشيخ، ولكن قد يهتدي إلى سبيل الله أحدهم بكلمة بسيطة، تكون المفتاح، وتكون بنظر بعض الدعاة المعمقين أن هذه الدعوة إلى سبيل الله سطحية، ولكن قد فعلت فعلها في هذا المتلقي، واهتدى إلى سبيل الله من كلمة بسيطة، ومن كلمة فيها من الروحانية العالية أن يهتدي بها هذا الضال، فما الحكم بذلك ؟ هل هو مبلغ ؟ هل من بلغه قد بلغه بطريقة سليمة ؟

الأستاذ:

لا، هذا الذي اهتدى بكلمة بسيطة هو في الحقيقة عنده تراكمات وقناعات بعضها فوق بعض، وعنده رغبة في الهدى، وعنده تحرّق على ما هو فيه، وعنده ألم شديد من تقصيره، فتأتي هذه الكلمة نظن نحن أنها بسيطة، إنها قمة إنها القشة التي غيرت موازين القوى، فالحقيقة الذي يهتدي بكلمة بسيطة عنده تراكمات، وعنده قناعات، وألم شديد من تقصيره، نظن أن هذه الكلمة هي التي هدته، لكن في

الحقيقة كانت مفتاح هدايته، على كل هذه قناعتي الشخصية، فأي داعية إذا كان مطبقاً لما يدعو، وكان مخلصاً فيما يدعو يهبه الله قوة لا قانون لها، إنها قوة التأثير، ليس لها معايير مادية، قد تجد إنسانًا يتمتع بأعلى درجة ولا يقصدها، قد تجد إنساناً يتمتع بأعلى درجة من العلم، ومع ذلك لا يؤثر في أحد، وقد تجد إنسانًا عنده علم ضئيل وإخلاص شديد كثير يفعل فعل السحر، من هنا قال بعض العلماء ـ دقق في هذه الكلمة: حال واحد في ألف، خير من قول ألف في واحد، ألف متكلم ليسوا مخلصين، وليسوا مطبقين لا يستطيعون مجتمعين أن يغيروا سلوك طفل، بينما متكلم واحد بإخلاص وتطبيق، حال يهز قلوب الآلاف، هؤلاء الأنبياء العظام الذين هم قمم البشر كيف كان تأثيرهم ؟ منقطع النظير، شيء لا يصدق، أن نبياً واحداً يهز أطراف الأرض بدعوته، نبي واحد يفتديه أصحابه بمهجهم وأرواحهم، حتى قال أبو سفيان قبل أن يسلم: **" ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً صلى الله عليه وسلم ".**

الدعوة لها ماديات، ولها روحانيات، أنا أعتقد، وأرى أن روحانيات الدعوة أقوى بكثير من مادياتها، أعني بمادياتها الكلمة والنص والعبارة والكتاب، وهذا الذي يأتي بالمدارسة، وأعني بروحانيات الدعوة هذا الذي يأتي بالمجاهدة، أنت حينما تطبق منهج الله، وحينما لا يجد المدعو فرقاً بين داخلك وخارجك، ولا بين سريرتك وعلانيتك، ولا بين مخبرك ومظهرك، حينما يتوحد الإنسان، أما هذا النموذج (الاثنيني) موقف معلن، وموقف مبطن، سلوك أسلكه مع المؤمنين.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا)

(سورة البقرة)

وسلوك أسلكه مع غير المسلمين:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

(سورة البقرة)

هذه الشخصية المزدوجة، وهذا الانفصام في الشخصية، هذا لا يستطيع أن يؤثر في طفل، ولو ملكت الثقلين.

المذيع:

القدوة قبل الدعوة، وهناك مخاطبة العقل والقلب معاً، قلتم: إن الدعوة ترتكز على الروحانية أكثر.

الأستاذ:

أعوذ بالله، أنا ما قصدت أن نستعين بالماديات، الدعوة كيان متكامل، كما أن الإنسان كيان فيه جانب عقلي لابد له من غذاء، إنه العلم، وفيه جانب نفسي لابد له من غذاء، إنه الحب، وفيه جانب مادي لابد له من غذاء، غذاءه الطعام والشراب، الآن أي إنسان سلك في هذه الخطوط الثلاثة يتفوق، أما إذا اعتمد

على هذه الخطوط، وبالغ فيه على حساب الخطيين الآخرين فإنه يتطرف، ونحن فينا مصيبة المصائب، الغلو في الدين والتطرف، وأدعياء الدين أخطر على الدين من أعدائه، وهذا الذي تطرف أو بالغ، أو غلا في دينه، أو أخذ فرعاً من فروعه، ونماه على حساب بقية الفروع، هذا يعد نموذجاً سيئاً للتدين، لذلك نحن نحتاج إلى الإسلام المتوازن، الإسلام التعادلي، الإسلام الوسطي، الذي لا يهمل جانباً على حساب جانب، الإنسان عقل له غذاء.

ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه، الإنسان قلب له غذاء، وغذاءه الاتصال بالله، وأية دعوة خلت من الاتصال بالله دعوة عرجاء، وأية دعوة خلت من المنهج العلمي دعوة عرجاء، وأية دعوة خلت من الحركة السلوك الانضباط المواقف دعوة عرجاء لا قيمة لها.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال)

يمكن أن يتطرف الإنسان في الدين بسهولة، قد يكون قاسياً، وقد يكون ليناً، وكلاهما شيء هين ليّن، البطولة أن تجمع بين الشدة واللين، بين الرغبة والرهبة، بين الرجاء والخوف، هذا الوضع الوسطي يحتاج إلى مهارة فائقة، أما أن تكون متطرفاً أو مبالغاً فقضية سهلة جداً، على مستوى الآباء قد تجد أبا قاسيا إلى درجة غير معقولة، وقد تجد أباً مسيّباً أولاده لدرجة غير معقولة، من هو الأب المربي ؟ الذي يحير أولاده بين شدته ورحمته ولطفه، ونحن كذلك في الدعوة نحتاج إلى موقف وسطي معتدل، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى بعض أصحابه يصوم الدهر، ويعتزل النساء، و يتقشف أنكر عليهم ذلك، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ، وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(صحيح البخاري)

المذيع:

المبلغ هو من تبلّغ الدعوة بهذه الطريقة.

الأستاذ:

بمضمون عميق بأسلوب علمي، بطريقة تربوية أخطر ما في ذلك، أن يرى المبلّغ في الذي يبلغه

مصداقية، لا يمكن أن يخضع الإنسان لمن يتاجر بالدين، لمن يفصل بين التطبيق والنظريات، المدعو إذا رأى هذا الداعي يطبق ما يقول يأخذ بألبابه، أما إذا رأى الدعوة قضية تجارة أو قضية منفعة أو مصلحة عندئذ تسقط الدعوة، وأنا أقول: ما من شيء يتذبذب بين الخطورة إلى أن يكون أقدس عمل على الإطلاق، إنه صنعة الأنبياء، وبين التفاهة والبساطة إلى أن يكون شيئاً يدعو للسخرية من الدعوة إلى الله لمصلحة شخصية.

فإن اتخذت حرفة ـ والعياذ بالله ـ أو اتخذت طريقاً للرزق سقطت، أما إذا كانت مبدأً ومنهجاً وجهاداً ورسالة بلغت الأوج والقمة.

المذيع:

تحدثنا عن من هو المبلغ، وتعرفنا أن من تبلغ الدعوة بغير الطريقة المعمقة المتماسكة المتناقضة فهو مبلغ، ويحاسب على تبليغه، قمة التبليغ هذا مصطلح لنعرفه بطريقة مبسطة، ونشرح مضامينه في الحلقة المقبلة بإذن الله.

إذاً: من هي أمة التبليغ ؟

الأستاذ:

أي إنسان ينتمي إلى الإسلام بحكم ولادته من أبوين مسلمين.

المذيع:

أهو مبلغ لِنَقُلْ بالنسب ؟

الأستاذ:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

وقد ينطبق هذا الكلام على المسلمين، لو أنهم توهموا أنهم أمة مختارة متميزة خصها الله بالفضل، نقول لهم:

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

هذه أمة التبليغ ليس لها أية ميزة، لأنهم لم يطيعوا الله، ولم يستجيبوا، أما إذا قلت أنا: من أمة محمد المكرمة المشرفة بهذه الدعوة، يعني أنك استجبت لله، العلماء فرقوا بين أمة التبليغ وأمة الاستجابة، فالذين استجابوا ينطبق عليهم قول الله عزوجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

(سورة آل عمران)

أي: أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس، أما إن لم يستجيبوا:

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 09 - 30 : أمة التبليغ وأمة الاستجابة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن الإنسان حينما يتعامل مع الحقيقة المُرّة لا مع الوهم المريح يكون قد وضع قدمه في أول طريق نجاته، الإنسان عدو ما يجهل، والإنسان يميل إلى أن يعيش في أوهام، ويدعي ما ليس فيه، وأن يعلق آمالا غير صحيحة، ألم يقل الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

الغرور هو الشيطان، يريك الشيء بحجم أكبر من حجمه، يمنّيك بعفوٍ، ويمنّيك بمغفرة، إن الله عز وجل في آيات تزيد على ثماني آيات يقول:

(وَالّذِينَ عَمِلُوا السّيّئَاتِ ثُمّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنّ رَبّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(153))

(سورة الأعراف)

(نَبّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ (49) وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمّ لَا تُنْصَرُونَ (54))

(سورة الزمر)

فهذا الفهم الساذج: أن الله عز وجل غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، هذا الغفران له ثمن كبير، والنبي عليه الصلاة والسلام من شدة أدبه مع الله ما كان يسأل رحمة الله، يسأله موجبات رحمته، أيعقل أن يسأل ابنٌ مدلّلٌ أباه الذي يحكم البلاد أن يجعله رئيس الجامعة، يقول له: أين الشهادة يا بني ؟ أين مؤهلات هذا المنصب ؟ هذا منصب علمي يحتاج إلى مؤهلات، فمن شدة أدب النبي مع الله عز وجل أنه ما سأله رحمته، بل سأله موجبات رحمته، وسأله عزائم مغفرته، معنى ذلك أن المغفرة لها عزائم، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللّهِ حَاجَةٌ، أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضّأْ، فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ، ثُمّ لِيُصَلّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمّ لِيُثْنِ عَلَى اللّهِ، وَلْيُصَلّ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، ثُمّ لِيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلّ بِرّ، وَالسّلَامَةَ مِنْ كُلّ إِثْمٍ، لَا تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلّا فَرّجْتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ))

[الترمذي]

لو أنها توبة تحتاج إلى علم، والعلم يفضي إلى حال، الحال يتمثل بالندم على ما مضى، والإقلاع عن المعصية فوراً، وعقد العزم على ألا يقع بها في المستقبل، ثم تقتضي إصلاح ما فرط فيما مضى في التوبة، هذه عزائم المغفرة، فلما يفهم الإنسان الدين فهمًا ساذجًا ؛ أن الله يغفر فهو يقول: إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم مرحومة، ونحن خير أمة أخرجت للناس، والجنة لنا، والله لنا وحدنا، وهذا المفهوم تجده في كل الأديان.

المذيع:

والله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر دون ذلك، ولكن لمن يشاء.

الأستاذ:

أي لمن دفع الثمن، فالمشيئة تقتضي أن يأتي بموجبات المغفرة، فالإنسان حينما يتوهم أنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستجب مثلاً فهو مخطئ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

(متفق عليه)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

((أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

(صحيح البخاري)

هي أمة الاستجابة التي استجابت لله ولرسوله، والله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

معنى ذلك أن الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان، الحياة التي ينبغي أن يكون الإنسان من زمرتها، الحياة الراقية هي حياة الفكر، حياة القلب، حياة الروح، حياة القيم، حياة المبادئ، الحياة التي تفضي بنا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، الحياة التي ترقى بالإنسان، وتسمو به، الحياة التي تؤكد إنسانيته، إنها حياة الاستجابة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

البديل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص)

هذه الآية خطيرة جداً، معنى ذلك هناك طريقان لا ثالث لهما، فإما أن تكون مستجيباً لله، وأنت من أمة الاستجابة، وأنت من أمة مكرمة، وأنت من خير أمة أخرجت للناس، وإما أن تكون منتمياً لهذه الأمة بحكم النسب، وبحكم أبوين مسلمين، ليس لك أية ميزة على الإطلاق.

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

وأقول كلمة دقيقة: إن المسلمين حينما هان أمر الله عليهم، وهذه كلمة صريحة: هانوا على الله، لأن الله عز وجل وعد المؤمنين بالاستخلاف، وعدهم بالتمكين وبالطمأنينة، ولزوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقق وعده للمؤمنين.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور)

ما الذي حصل ؟

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(59))

(سورة مريم)

هذه الحقيقة المرة، دين فلكلور، دين عادات، دين تقاليد، دين استعراضي، دين مظاهر، دين ثقافة، يقال: مفكر إسلامي، دين مؤتمرات، دين مظاهر صارخة، أبنية فخمة جداً، مساجد، لكن لا يوجد تقوى، هذه الحقيقة المرة التي وعدتكم أن أعتمدها في هذه اللقاءات.

المذيع:

ولكن فضيلة الشيخ دكتور محمد راتب النابلسي، لنعطي العلاج، ومن ثم ننطلق إلى موضوع آخر، ألا وهو هذه النظرة المتشائمة بعض الشيء، أو النظرة السوداء لهذا الواقع المرير، إنه واقع، ولكن الكل يدعي أنه على الطريق القويم، هذه مشكلة حقيقي، كيف نفسر هذا التناقض ؟

الأستاذ:

الحقيقة أن القضية ليست بدعاوى، يوجد مقياس مركزي، ما لم تأت مبادئي وقيمي ومنطلقاتي وتصوراتي وفق المقياس المركزي، القرآن والسنة، فأنا لست على حق، ولو أوهمت الناس.

ثمة مثل كنت أضربه سابقاً: لو معك كيلو من المعدن، وبذكاء وطلاقة لسان، وبحجة قوية أوهمت الناس أنه ذهب، ولم يكن ذهباً، فأنت الخاسر الأوحد، لو أن معك معدناً، وتوهم الناس جميعاً أنه معدن خسيس، وهو ذهب، فأنت الرابح الأول، علاقتك مع نفسك فأنت فالذي يصدق مع الله عز وجل يلقى جزاء عمله، ولو كنت في مجتمع غارقاً في المعاصي والآثام، أنا أتمنى هداية الناس جميعاً، أتحلق على هدايتهم فأنت وأبذل قصارى جهدي في ذلك، ولكن إن لم أستطع ماذا أفعل ؟ كما سألتني ما الحل ؟
الحل: أن يستجيب الإنسان وحده مبدئياً إلى الله عز وجل.

أن يكون الإسلام في عقلي، وفي نفسي، وفي بيتي، وفي عملي، لو فعل كل مسلم هذا لوجدت قاعدة صلبة راسخة متينة تنهض بنا إلى ما نصبو إليه، أما كل منا بقدرته أن يذم الواقع، وأن يطعن في الآخرين، وأن يكون متشائماً، واللهُ عز وجل لا يأخذ أحداً بأحد.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام)

أنا حينما لا أستطيع أن أهدي الناس جميعاً، أنا أستجيب لله عز وجل وحدي، وأؤكد لك أن لي معاملة خاصة، أنا حينما أستجيب لله، وأقيم الإسلام في بيتي، وفي عملي، البيت مملكة لكل إنسان، ألا يستطيع رب هذا البيت أن يأمر أولاده بالصلاة ؟ ألا يستطيع أن يجعل هذا البيت مكان عبادة وطهر وطاعة ؟ أو أن يجعله مكان معصية وفجور ؟ هذا حال المسلمين، أنا حينما أقيم تلاوة القرآن الكريم في بيتي، وأقيم الصلوات، وأضبط بناتي وزوجتي، وأربي أولادي تربية إسلامية، فعلت ما عليّ، ولي عند الله حق.

وأؤكد لك أستاذ زياد تأكيداً قاطعاً أنك حينما تعبد الله فلك عند الله حق كبير، لأن الله جل جلاله أنشأ لك حقّا عليه.

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيِ اللَّه عَنْه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ: فَقَالَ:

((يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

(صحيح البخاري)

أنت حينما تستجيب لله عز وجل لك معاملة خاصة، ولو أخذوا إنساناً بإنسان، وكلمة " البلاء يعم " يلزمها تفصيل، أنا حينما لا آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر، وحينما لا يعنيني أمر الناس أستحق الهلاك معهم، أما حينما أسعى جهدي لهدايتهم، ولا أستطيع، أو أستطيع ما دمت أنا مستجيباً أو مطبقاً فلي عند الله معاملة، وهذا الذي يقوله الله عز وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

لذلك هذا الأعرابي الذي قال للنبي:

((عظني، ولا تطل فتلا عليه هذه الآية، فقال: قد كفيت، فقال: فقه الرجل))

(ورد في الأثر)

المذيع:

إذاً: أن يقيم حدود الله في عمله، وهكذا كل مَن كان على هدى يستطيع أن يقيم الإسلام مبدئياً، وأن يعم الخير على الجميع.

البعض يفهم خطأ قول الرسول صلى الله عليه وسلم بما معناه أنه من صام رمضان، وأدى الصلاة المكتوبة، وحج البيت، وأدى الزكاة أقام أركان الإسلام، ضمِن الجنة، وهذا صحيح، ونؤمن ذلك، ولكن هناك مستلزمات لهذا الأمر، البعض يصلي، ويصوم، وكل شيء، ولكن لا يعمل بصلاته.

الأستاذ:

ولكن إن دققنا في قول النبي صلى الله عليه وسلم، عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

(صحيح البخاري)

بشكل بسيط، الإسلام بناء، قواعده هذه الأركان الخمسةُ، هذه القواعد ليست هي الإسلام، إنها دعامات الإسلام، لأنه من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قال: وما حقها ؟ قال: أن تحجزها عن محارم الله.

الحقيقة لما سيدنا شرح جعفر الإسلام للنجاشي قال:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيئُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ))

[أحمد]

معنى تعريف الصحابي الجليل سيدنا جعفر في الإسلام أنه تعريف أخلاقي، وهذا الإسلام الأخلاقي بني على عبادات، بمعنى لو وجدنا إنساناً يدعي أنه أخلاقي، ولا يعبد الله هذا مرفوض، هذا تاجر بالأخلاق، وجعلها مطية لمقاصده الدنيوية، وهذا ما يتمتع به الغرب أحياناً، أما نحن فنريد قيماً أخلاقية مبنية على إيمان، الذي يعامل الناس بأخلاقية عالية، ولا إيمان عنده، ولا يقيم شعائر الله هذا يعطيه الله أجره في الدنيا فقط، وماله في الآخرة من خلاق، أما الذي يقيم أخلاقيته على أرضية راسخة من الإيمان فهذا يجمع بين الدنيا والآخرة، فهناك أخلاق ذكية، وهناك أخلاق إيمانية، العبرة بالأخلاق الإيمانية.

المذيع:

الأخلاق الإيمانية تحتّم عملاً إيمانياً، وعملاً أخلاقياً من خلال هذا الإيمان، وهذا ما يطلق عليه بشكل عام أمة الاستجابة، فأمة الاستجابة هي الأمة التي لها خصائص، ولها مزايا كبيرة جداً، ولها حقوق عند الله سبحانه وتعالى، وحقها عند الله المغفرة.

الأستاذ:

من حقوقها مثلاً:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

(سورة النساء)

أما إذا كان للكافرين ألف سبيل وسبيل على المؤمنين فالمشكلة كبيرة جداً.

مثلاً: يقول الله عز وجل:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر)

ويقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

(سورة الصافات)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الروم)

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد)

هذه كلها آيات، وكما قلت قبل قليل: زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، بل إنه في الحديث الصحيح عَن ابْنِ عَبَّاسٍ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِئَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوش أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

(سنن أبي داود)

اثنا عشر ألف مؤمن حقيقي لن يغلبوا في الأرض، المسلمون مليار ومئتا مليون، وليست كلمتهم هي العليا، هذه الحقيقة.

المذيع:

إنها ليست نظرة متشائمة، ولكن هذا هو الواقع.

الأستاذ:

الحقيقة حينما تعيش المشكلة تبدأ بحلها، أما النعامة ماذا تفعل ؟ تغرس رأسها في الرمل، وتتعامى عن المشكلة، وتعيش في أوهام، فنحن كوننا مسلمين لا ينبغي أن نفتخر بالماضي، الماضي مضى.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

(سورة البقرة)

أجدادنا الذين فتحوا العالم، وأقاموا دولة الإسلام في الخافقين، ورفرفت رايات الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها كانوا رعاة للغنم، لكن بطاعتهم لله صاروا قادة للأمم، أما نحن فلو اكتفينا بأن نفتخر بآبائنا وأجدادنا ما فعلنا شيئاً.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

المذيع:

ونحن نعيش في عصر البعض يقول عنه: عصر صحوة إسلامية، هل هذا صحيح ؟

الأستاذ:

والله ما زلت أعاهد نفسي أن أكون واقعياً، هناك صحوة إسلامية، ولكن تحتاج إلى ترشيد، الصحوة الإسلامية إن كانت عاطفية فهذه كفقاعة الصابون، وإذا كانت عاطفية فهناك من يركبها، وهناك من يستغلها، وهناك من يحرفها عن طريقها الصحيح، أما إذا بنيت هذه الصحوة على إيمان راسخ، وعلى إيمان متين، وعلى مواقف صلبة فهذه نرجو لها النجاح والفلاح فأما الصحوة الإسلامية فموجودة، وكل المذاهب الوضعية لم تحقق أهدافها في إسعاد الإنسان، ولا يمكن أن يسعد الإنسان إلا بمعرفة ربه، إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه من المؤمنين، لأن كل النظم الوضعية لن تحقق أهدافها التي وعدت الناس بها من تحقيق السلامة والسعادة، والعالم يئنّ بالمشكلات وبالحروب الطائفية، وحروب التطهير العرقي، ومجتمعات غنية جداً، لدرجة غير معقولة لوحة زيتية تُشترى بخمسين مليون دولار، وشعوب لا تجد لحماً تأكله، وبعض الشعوب الغنية تطعم كلابها من اللحم مالا تأكله شعوب بأكملها من اللحم، هذه مفارقة عجيبة، أين المدنية والحاضرة ؟ الإسلام إنساني، أما النظرة الوضعية فغير إنسانية، نظم عنصرية، لو أن أمة قوية تقيم لمجتمعها أرقى مستوى معاشي على حساب بقية الأمم، تنهب ثروات الأمم الباقية تضغط عليها، وتقيم

عليها أوضاعاً قاسية كي يعيش شعبها في رفاه، هؤلاء لا يستحقون الاحترام، لأنهم عنصريون، ليسوا إنسانين، الإسلام إنساني، كل من دخل في الإسلام له ما لنا، وعليه ما علينا، هناك نظرة موضوعية شمولية إنسانية.

المذيع:

فضيلة الشيخ، الدكتور محمد راتب النابلسي، هل توافقني الرأي على أن رجال الدعوة في سبيل الله يجب ألا يستكينوا، ويقولوا: إن هناك صحوة إسلامية مزدهرة ـ ولله الحمد ـ وإن الأمور تسير على ما يرام، ولكن عليهم أن يكونوا دائماً ينظرون نظرة تقصير إلى أداء واجبهم تجاه هذه الدعوة.

الأستاذ:

مقولة سمعتها، وأعجبتني: قد نخسر معركة، ولا نخسر حرباً، أخطر ما في الدعاة أن يستكينوا، وأن يضعفوا، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

(سورة آل عمران)

الهزيمة الخطيرة تكون من الداخل، أن نقعد، أن نيأس، الله عز وجل لن يتخلى عنا، إن المؤمن له عند الله حق، ولكن إذا كان فينا خلل فينبغي أن نصحح الخلل، البطولة ألا نيأس.

المذيع:

سنحاول الدخول إلى هذا الخلل بمعالجة ظاهرة، ألا وهي ظاهرة ضعف الإيمان، ليتنا نتحدث عن هذا الموضوع في الحلقات المقبلة بإذن الله تعالى، ترى المسلم يستجيب إلى أوامر الله سبحانه وتعالى، ولكن يشوب إيمانه ضعف في ناحية معينة، أو زاوية من الزوايا، إذاً سنتطرق إلى هذه الأمور قدر استطاعتنا كي نحيط بالحالة من جميع جوانبها.

الأستاذ:

أنا أقول دائماً: ليس العار أن تخطئ، بل أن تبقى مخطئاً، وليس العار أن تجهل، بل أن تبقى جاهلاً، والإنسان مادام فيه قلب ينبض فالأمل كبير جداً، وهناك شعوب نهضت، وقويت على أعدائها، عوامل القوة موجودة في القوة، وعوامل الضعف أودعها الله في القوة، فقوة غاشمة فيها بذور ضعفها، وضعف غاشم فيه بذور قوة، وهذا يملأ النفس أملاً وإشراقاً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 10 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان1.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن ندخل في مظاهر ضعف الإيمان لابد من مقدمة أساسية، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران)

هناك من يتقي الله، وهناك من يتقي الله حق تقاته، قال بعض العلماء: أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره، وفي آية ثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(71))

(سورة الأحزاب)

هناك من يقول لك: أحس بقسوة في قلبي، قلب قاس كالصخر، يقول لك: لا أجد لذة في العبادات، لا أشعر بلذة في الصلاة، تنتابني خواطر كثيرة، هناك من يقول: أشعر أن إيماني في الحضيض، هناك من يقول: أقرأ القرآن فلا أتأثر بقراءته، هناك من يقول: من السهل أن أقع في معصية، ليس هناك حواجز منيعة بيني وبين المعصية، هناك من يقول: مقاومتي هشّة لا تصمد أمام إغراء ولا أمام ضغط، هناك من يقول: سئمت هذا المستوى المتدني من إيماني، هذه يقولها بعض الناس، وكأنهم يشكون ضعف إيمانهم، إنهم يحسون أنهم ليسوا في المستوى المطلوب، ليسوا كما يتمنى المؤمن، ليست صلاته كما يرضى، ولا صيامه، ولا حجه، ولا زكاته، ولا طريقة حياته، هذه مقولات يقولها عامة المسلمين، وكأنهم يعبرون عن ضعف إيمانهم، الحقيقة أن الأمر يعود إلى القلب، يقول سيدنا عمر: **" تعاهد قلبك"**، والآية الكريمة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

سليم من الشبهات، ومن الشهوات، ومن الضغائن، ومن رعونات النفس، ومن الضلالات والانحرافات.

المذيع:

هل أجمع المفسرون على تفسير واحد للقلب السليم ؟

الأستاذ:

القلب السليم هو القلب الذي لا ينطوي على مساوئ خلقية، لا حقد، ولا ضغينة، ولا كبر، ولا حسد،

ولا انحراف، ولا دناءة، القلب السليم خال من كل رذيلة، متصف بكل فضيلة، فيه رحمة، وعدل، وإنصاف، وتواضع، وحب، وإخلاص، وصدق.

المذيع:

وقبل ذلك كله العامل الأساسي هو الإيمان.

الأستاذ:

من ثمار الإيمان القلب السليم، ومن نتائج البعد عن الله القلب المنحرف، بل إن كل أمراض القلب هي أعراض لمرض واحد، وهو الإعراض عن الله، كل أمراض القلب أعراض لمرض واحد، هو البعد عن الله، فالكمالات كلها مجتمعة في القلب إذا اتصل بالله، والنقائص كلها ينطوي عليها القلب إذا أعرض عن الله عز وجل.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص)

هناك اثنينية، إن لم نكن على طرق الحق فنحن على طريق الباطل، إن لم نستجب لله استجبنا لأهوائنا.

المذيع:

ذكرتم بعض الشكاوى، لنقُلْ: لا يجد لذة في العبادات، ولا يتذوق حلاوة الإيمان، ولا يجد الخشوع في الصلاة، وفي قراءة القرآن، من السهل الوقوع في المعصية، مقاومته هشة، هذه كلها مظاهر ضعف الإيمان.

الأستاذ:

الحقيقة قال الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا صليت فلم تشعر بشيء، إذا تلوت القرآن فلم يقشعر جلدك، إذا ذكرت الله لا تفيض عيناك بالدموع فحالتك خطيرة، القلب مغلف، يوجد حجاب كبير بينك وبين الله، إن صليت فلم تشعر شيء، إن ذكرت الله فلم تفض عيناك بالدموع، إن قرأت القرآن ولم يقشعر جلدك، فهناك حالة خطيرة في إيمانك، نحن نقول: من مظاهر ضعف الإيمان الوقوع في المعاصي، وارتكاب المحرمات، وكل معصية تدعو إلى أخرى، مهما بدت هذه المعصية صغيرة لو أقمت عليها لنقلتك إلى أكبر منها، فإذا الإنسان في الحضيض، صخرة متمكنة في قمة الجبل، لو أزحتها عن موقعها لا تستقر إلا في القاع، فكل إنسان يتساهل في مقدمات المعاصي يصل إلى نهاياتها، وهذا في القرآن موجود، يقول تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء)

لم يقل: ولا تزنوا، قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

لأن هناك معاصٍ لها وهج، كيف أن التيار العالي له قوة جذب فلابد له من هامش كبير بينك وبينه، لو دخلت إلى هذا التيار لجذبك، لذلك المعاصي لها أماكن محرمة، يجب أن تبقي بينك وبين المعصية هامش أمان آمن، وإلا جذبتك المعصية، من علامات ضعف الإيمان أن هذه المنطقة المحرمة، وهذا الهامش ينعدم، فإذا أنت والمعصية وجهاً لوجه، والحقيقة أن المعصية الصغيرة إذا أصررت عليها تنقلب إلى كبيرة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار))

(ورد في الأثر)

الآن، الإخوة المستمعون، حينما يجد الإنسان مقاومته هشة، سريع الوقوع في المعصية، تأخذه الشهوة سريعاً، تمضي به إلى حيث تريد، فينبغي أن يعلم أن في إيمانه ضعفاً شديداً، وأول مظاهر هذا الضعف الوقوع في المعصية، والمشكلة أن الإنسان إذا وقع في معصية، وألفها تصبح جزءاً من عاداته، ينتقل إلى أشد منها كي يجاهر بها، ثم يفتخر بها، ثم يحض الناس عليها، ثم يرى من لا يفعلها ليس من بني البشر، أرأيت إلى هذا التدرج ؟ من وقوع في معصية، إلى استمرار فيها، إلى ألفة لها، إلى قبول لها، إلى الازدهار، بها إلى الفخر، بها إلى الدعوة إليها، هذا التدرج.

العلماء قالوا: الإنسان فيه فاعلية شديدة، فإذا مشوا في طريق الحق أول خطوة تنقله إلى أعلى، وإلى ما شاء الله، أما إذا مشى في طريق الباطل فكل بركة في هذا الطريق الهاوي تنقله إلى درك أعمق منه، إلى أن يصل إلى قاع الهاوية.

تماماً كما لو أن إنساناً يمشي إلى طريق عريض، ويركب مركبة، لو حرف المقود ميليمتراً واحدا، وثبت هذا الانحراف فمصيره في الوادي، أما لماذا هي صغيرة ؟ لأن إصلاحها سهل، لو حرف المقود درجة، أما الكبيرة فأن تحرف المقود فجأة تسعين درجة، فالإنسان يسقط في الوادي.

المذيع:

فضيلة الشيخ، هل من تعريف دقيق للمعصية الصغيرة، ومن ثَمّ للكبيرة ؟

الأستاذ:

تحدث العلماء عن الكبائر، فحينما يلعن الله من يفعل شيئاً فهذا كبيرة، المعصية إذا اقترنت باللعن فهي كبيرة، إذا اقترنت بوعيد الله بجهنم فهي كبيرة، الظلم: ظلمات يوم القيامة، إيذاء الناس: ملعون من فرق بين أم وابنها، فالعلماء وجدوا أن الكبائر تزيد على سبعين كبيرة، وقد جمعها الإمام الذهبي في كتابه الرائع اسمه الكبائر، وبعضهم جعلوها سبعة، العبرة أن العمل الذي يقيم حجاباً كبيراً بينك وبين الله، كأن

تعتدي على عرض، أو على دم، أو على مال، كل عمل فيه عدوان على حقوق الآخرين هو من الكبائر، كأن تهدر كرامة إنسان، كأن تغتابه، أن تحقره، فالكبيرة أساسها العدوان، وتعلمون أن هناك ذنبًا لا يغفر، وهو الشرك، وهناك ذنب لا يترك، ما كان بينك وبين العباد، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، وحقوق الله مبنية على المسامحة.

وهناك أستاذ زياد وهْمٌ كبير يقع فيه المسلمون، يتوهمون أنهم إذا حجوا بيت الله الحرام عادوا من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم ! لا، هذا مقيد فيما بينك وبين الله فقط، أما فيما بينك وبين العباد الذنوب لا تغفر إلا بحالتين، بالأداء، أو المسامحة، أما في رمضان من صام رمضان، وقامه إيماناً واحتساباً، من حج بيت الله الحرام، من تاب توبة نصوحاً، هذا يجبُّ فيما بينك وبين الله، أما فيما بينك وبين العباد فابد من أن يؤدّى، أو أن تستسمح من هذا الذي له عليك حق، هذه واحدة.

المذيع:

لقد عرفت الكبيرة، المعاصي الصغيرة التي إذا أصر عليها...

الأستاذ:

انقلبت إلى كبيرة، كما لو ثبت المقود المنحرف على طريق عريض عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، لو ثبت انحراف المقود درجة واحدة لنقلك هذا الانحراف إلى الوادي السحيق، أما لماذا هو صغيرة ؟ لأن إصلاحها يسير، تستغفر ينتهي الأمر، واحد تكلم كلمة فيها سخرية، يا رب، استغفر، واعتذر من صديقه، لكن لو قتل، القتل كبيرة، لأن هناك دية، وهناك دماء، وهناك أسرة تشردت، وهناك إنسان أزهقت روحه، فالصغيرة إصلاحها سهل.

المذيع:

وهل الاستغفار مجرد القول: أستغفر الله، وأتوب إليه ؟

الأستاذ:

مع عقد العزم على ألا يعود إلى هذا الأمر، ومع قلب حاضر عزيمة ألا تعود إلى هذا الذنب، وبقلب خاشع حاضر، وبتوبة معلنة، هذا هو الاستغفار.

بالمناسبة، نحن دائماً في بحبوحتين، في بحبوحة إقامة منهج رسول الله، لقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال)

وفي بحبوحة الاستغفار.

(وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

بحبوحتان رائعتان، مادمت على المنهج فلن تعذب.

عن مُعَاذٍ رَضِيِ اللَّه عَنْه قالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ:
((يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

(صحيح البخاري)

ما دمت عابداً لله فلك عند الله حق، أنت في بحبوحة الطاعة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أي سنّتك مطبقة فيهم، وفي تجارتهم، وأتراحهم، وأفراحهم، وإقامتهم، وسفرهم، وعلاقاتهم المالية، والاجتماعية، مادامت سنّة النبي مطبقة في حياة المسلمين فهم في مأمن من عذاب الله.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

وهذه العبارة من أشد أنواع النفي، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، البحبوحة الثانية:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

لمجرد أن تعلم أن لك ربًا يغفر، يا رب، سامحني، يا رب تب علي، يا رب، اغفر زلتي، يا رب، استر عورتي، يا رب، اقبل توبتي، بقلب مخلص، صادق، متضرع، متذلل، وفي نيتك ألا تعود لهذا الذنب، فربك غفور رحيم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله:

((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة))

(للإمام جلال الدين السيوطي)

المذيع:

هذه في باب النوافل، وكثرة الطاعات، من لم يجد لذة في الطاعات فهناك ضعف في إيمانه.

الأستاذ:

هناك مشكلة، ما هو الثواب ؟ الثواب أنت صليت لوجه الله خالصاً، أو أنفقت مالك لوجه الله، أو خدمت مخلوقاً لوجه الله، هذا العمل الخالص يسعد إلى الله، ما هو الثواب: أن يعود عليك من الله سكينة راحة سعادة، شعور بالتفوق.

المذيع:

هذا هو الشعور الذي يجب أن يتوقعه المسلم المؤمن، هذه نتيجة عمله، ومن لم يجد نتيجة فهناك

مشكلة.

الأستاذ:

هناك مشكلة إما في إخلاصه، أو في إتقان هذا العمل، أي يؤديه غير مخلص أو غير متقن. بالمناسبة، العلماء أجمعوا على أن العمل لا يقبل إلا بشرطين: إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، كلا الشرطين لازم غير كاف، لا يكفي أن يكون عملي لوجه الله خالصاً، وليس مطابقاً للسنة، كما أنه لا يكفي أن يكون عملي مطابقاً للسنة، ولا أبتغي به وجه الله، شرطان لازمان، كل منهما غير كاف وحده، لابد من الصواب، أي وفق السنة، ولابد من الإخلاص بهذا يكون العمل، وأي عمل فيه مطابقة للسنة وإخلاص لله فلابد من أن يعود عليك من الله ما يثلج صدرك، وما يقر قلبك، وما يملأ نفسك حضوراً وسعادة.

المذيع:

من مظاهر ضعف الإيمان كثرة الوقوع في المعاصي، الصلوات الخمس كفارات لما بينهم، ما هي الذنوب التي تكفّر ؟

الأستاذ:

الحديث ما لم ترتكب الكبائر، الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما لم ترتكب الكبائر، كلمة ليست في مكانها، نظرة ليست وفق منهج الله، تأتي الصلاة الثانية ففيها استغفار، ويوجد مع الصلاة شحنة، والحقيقة يوجد مع العبادات شحنات، الصلاة الصحيحة شحنة روحية، تماماً كما تشحن هذه البطارية فيتألق الضوء، وحينما يضعف شحنها يضعف الضوء، وحينما تفقد الكهرباء كلياً ينطفئ الضوء، وأنت كالضوء، كلما شحنت الإيمانية تألق هذا المصباح، كل صلاة شحنة إلى التي بعدها.

كل صلاة من الصلوات الخمس شحنة روحية إلى ما بعدها، أما خطبة الجمعة فشحنة من الأسبوع إلى الأسبوع، أما صيام رمضان فشحنة من العام إلى العام، أما الحج فشحنة العمر، فكل شحنة بقدر المسافة بينها وبين التي تليها، تكون قوية أو ضعيفة.

المذيع:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ))

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، لذة في الطاعة، خشوع في العبادات، وسكينة في القلب، وطمأنينة، وراحة، واتكال على الله حق اتكال.

الأستاذ:

قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23))

(سورة المائدة)

المذيع:

لا التواكل، كثير من النتائج إذا صح التعبير والثمرات لقوة الإيمان، ما هي المظاهر الأخرى لضعف الإيمان ؟

الأستاذ:

من هذه المظاهر الشعور بقسوة القلب، يقول الله عز وجل:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر)

الإنسان إن شعر بقسوة في قلبه لا يلين ولا، يرقّ لبائس، ولا لسائل، يشعر أنه ينبغي أن يعيش وحده، أن يأكل وحده، أن يشرب وحده، أن يسكن وحده، أن يبني مجده على أنقاض الناس، أن يبني غناه على فقرهم، أو قوته على ضعفهم، هذا الذي يقسو قلبه لا يرقّ لبائس، ولا لمسكين، ولا لفقير، ولا لضعيف، ولا لمظلوم، هذا مظهر صارخ من ضعف الإيمان، إنه قسوة القلب.

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)

(سورة البقرة)

صاحب القلب القاسي لا يتأثر بالموت، ولا بالمصيبة، وقد قالوا: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه فاطمة، فرأته يصلي، ويبكي، قالت له: ما الذي يبكيك ؟ قال: دعيني وشأني، أصرت عليه، قال: فكرت في اليتيم البائس، والفقير الجائع، وصاحب العيال الكثير، والدخل القليل، وابن السبيل، والشيخ الكبير، والمرأة الأرملة، فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً، وأن خصمي دونهم رسول الله ، فلهذا أبكي.

في قلبه رقة وعطف، لا يستطيع أن يعيش وحده، ويتنعم وحده، أن يرى الآخرين جائعين، أو عرايا، أو بائسين، أو مرضى، فالمؤمن يبذل كل ما في إمكانه ليعم الخير على جميع الناس، رقة قلبه، ورحمة الله في قلبه أحد مظاهر قوة إيمانه، وقسوة قلبه أحد مظاهر ضعف إيمانه، آية دقيقة: يقول الله عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

مادام الله عز وجل أودع في قلب المؤمن رحمة عالية المستوى فهذا المؤمن يلين للآخرين، وترقّ له مشاعره.

(وَلَوْ كُنْتَ فظّاً غَلِيظ الْقَلْبِ لَانْفضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران)

كأن هذه الآية فيها قانون رائع، بسبب رحمة استقرت في قلب النبي صلى الله عليه وسلم كان ليناً لهم، فلما كان ليناً لهم اجتمعوا حوله، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله، رحمة، لين، التفاف، قسوة، غبطة، انفضاض، أحد أسباب تجمع الناس حول إنسان مؤمن أن قلبه رقيق، مشكلتهم مشكلته، ما يؤلمهم يؤلمه، ما يسعدهم يسعده، ما يفرحهم يفرحه، هذا الذي يعيش للناس، شتان بين من يعيش للناس وبين الذي يعيش الناس له، فرق كبير وبونٌ شاسع بين من يسخّر كل ما آتاه الله لخدمة الخلق، وهذا ما فعله الأنبياء، أعطوا كل شيء، ولم يأخذوا شيئاً، بينما الأقوياء أخذوا كل شيء، ولم يعطوا شيئاً، وشتان بين أن تعطي، وأن تأخذ.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 11 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان2 - عدم إتقان العمل .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

((يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود]

((وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ))

[النسائي عن أنس]

فرق كبير جداً بمنطلق أرحنا منها، وبين أن تصلي بمنطلق أرحنا بها، هذا الفرق بين الواجب وبين الحب، الحب ينتج عنه صلاة أرحنا بها يا بلال، وجعلت قرة عيني في الصلاة، والواجب أرحنا منها، وكأنها عبء كبير، نحب أن نتخلص منه، لذلك المنافق من صفاته البارزة:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

والمؤمن أجمل ما في عباداته أنه قريب من الله عز وجل.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ، قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا))

(سنن أبي داود)

المذيع:

وكأن فضيلة الشيخ هي الميزان الدقيق.

الأستاذ:

ورد في بعض الأحاديث أن الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها.

المذيع:

كي يختبر المسلم المؤمن إيمانه وسلامة عقيدته وأسلوبه ومنهجه إلى سبيل الله سبحانه وتعالى فعليه أن ينظر إلى صلاته.

الأستاذ:

مادام الخط سالكاً إلى الله معنى ذلك أنه ليس هناك معاصٍ، ولا مخالفات تحجبك عن الله، لأن المخالفات والمعاصي من شأنها أن تقيم حجابا حاجزاً بينك وبين الله، فالصلاة علامة رائعة جداً.

المذيع:

من أقامها أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين.

الأستاذ:

ولا خير في دين لا صلاة فيه، بل إنها الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، الحج يسقط عن الضعيف والمريض والفقير، الصيام يسقط عن المسافر والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير، وإعلان الشهادة مرة واحدة في العمر، أما الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال فهو الصلاة، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، إنها غرة العبادات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، وهي ميزان دقيق، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها.

المذيع:

كيف يؤدي المسلم الصلاة من منطلق أرحنا بها ؟ هل لهذا الهدف مراحل خطوات ؟ عملية دقيقة ؟ علينا أن ننصح بها ؟ أحدهم تقول له: لمَ لا تصل ؟ يقول: لأنني لا أشعر باندفاع أو بتحرق لأداء الصلاة، وإذا فاتتني صلاة لا أبالي، وهكذا تكرر ترك الصلاة تكاسلاً وتهاوناً، كيف يمكن لهذا أن يشفى من ذلك المرض ؟

الأستاذ:

أولاً: لو أن لك جاراً من أكابر القوم، من علية القوم، وله ابن يلعب في الطريق، فضربته، وآذيته، وجرحته، وبلغت في الإساءة إليه، وفي اليوم التالي، وأنت تمشي في الطريق فإذا بوالد هذا الطفل الصغير وجهاً لوجه، ماذا يفعل هنا الإنسان ؟ يبتعد عنه، يصرف وجهه، لأن إساءته لابنه حجاب بينه وبين الأب، بالعكس: لو أن لك جاراً محترماً، من علية القوم، له ابن يسبح، كاد يغرق، فرميت بنفسك في الماء، وأنقذته، لو أنك رأيته في الطريق تقبل عليه مسلماً باشّ الوجه، عملك الطيب جعلك تقبل، والعمل السيئ يجعل صاحبه يحجم، فبادئ ذي بدء الإنسان لمجرد أن ينوي أن يستقيم على أمر الله، ولمجرد أن يكون محسناً لا مسيئاً، صادقاً لا كاذباً، طيباً لا خبيثاً، مخلصاً لا خائناً، واصفاً لا شاحناً، لمجرد أن تستجيب لله في أوامره، وأن تكون في خدمة خلقه تجد الطريق سالكاً إلى الله، لمجرد أن تقول: الله أكبر، تعرج نفسك إلى الله عز وجل، لأن الطريق سالك، والخط مفتوح، هذا الهاتف فيه حرارة، أما حينما يرتكب الإنسان معصية فكأنه جاء بمقص وقص الشريط، يرفع السماعة فلا يجد شيئًا، فأية معصية أو مخالفة هي خطر للخط الواصل بينك وبين الله، وأي استقامة أو عمل صالح هو

تكريس لهذا الخط الواصل بينك وبين الله، فالحقيقة قضية الصلاة يمكن أن تصلي، يمكن أن تؤذن، وتقيم الصلاة، وأن تقف، وأن تنتصب، واقفاً وأن تركع مطمئناً، وأن تسجد كما صلى النبي الكريم، ولكن لا تشعر بشيء مادام هناك مخالفات وانحرافات، وهناك عدوان، وأكل مال حرام، وهناك نظرات لا ترضي الله، هذه كلها تجتمع في السنن والمخالفات، فتكون حجاباً بينك وبين الله، أما حينما تنضبط بين الصلاتين عندئذٍ تجد الطريق سالكاً إلى الله، كلمة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الروم)

لم يقل: صلوا، معنى أقيموا: مثلاً: إقامة البناء يحتاج إلى شراء أرض، يحتاج إلى رخصة، وإلى حفر أساسات، ولبناء هيكل، ولكسوة ولفرش، كلمة أقام بناء عمل جليل، وليس عملاً بسيطاً، فمن أجل أن تقول: الله أكبر، وأن تعقد هذه الصلة مع الله عز وجل هذا يحتاج إلى تمهيدات كبيرة جداً، أن تقف، وتركع، وتسجد هذه صلوات مادية، أما الاتصال بالله فيحتاج إلى الاستقامة على أمر الله، ويحتاج إلى صلح مع الله، وإحسان إلى الخلق، أن تقف، ولك وجه أبيض تجاه ربك.

المذيع:

هل للمسلم أن يبدأ بأداء الصلاة لمجرد الامتثال لأمر الله، ومن ثم يرتقي ؟

الأستاذ:

أنا معك في هذا مئة بالمئة، عليك أن تصلي، لأنها فرض، وعليك أن تتعرض لنفحات الله، فإن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها، أنا أقف، وأخشع، وأصلي، وأنا مرتاح، أصلي، وأنا قد أكلت، أصلي في غرفة منفردة كي لا أشوش، أقيم وسائل الخشوع في الصلاة، وأعرض نفسي على تجليات الله ونفحاته، هذا الذي عليَّ فعْله، والله عز وجل لحكمة بالغة قد يتجلى علي، وقد يبكيني في الصلاة، قد أشعر أني أسعد الناس على الإطلاق في الصلاة، هذا من فضل الله علي، أما أنا فلابد من أن أصلي، ولابد من أن أقيم الصلاة كما أقامها النبي عليه الصلاة والسلام.

المذيع:

هنا إتقان العبادات، فيرتقي المسلم حينما يواظب.

الأستاذ:

عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

[البخاري]

كان عليه الصلاة والسلام فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، من شدة ورعه، مثلاً: لو أن إنسانًا أراد أن يقابل شخصًا كبيرًا جداً تجده يعتني بهندامه، بمظهره، بتصفيف شعره، بأناقة ثيابه، يتعطر يدخل بأدب، يجلس بأدب، هذا مع إنسان من علية القوم، فكيف مع الواحد الديان ؟ موضوع الصلاة من أخطر موضوعات الدين.

المذيع:

متى يتحرق المسلم العاصي لنقل لأداء الصلاة ؟ كيف يقوى إيمانه كي يصل لهذه المرحلة ؟

الأستاذ:

المعصية نوعان: معصية كبر، ومعصية غلبة، وشتان ما بينهما، المغلوب قريب من الله، أما المستكبر فبعيد عن الله عز وجل، لعلك تقصد العاصي المغلوب، هذا عنده معدن طيب، ورغبة جانحة بالإيمان القوي، عنده محبة لله، لكن شهوته غلبت، فهو مكسور، وقد قال بعض العارفين بالله: **" رُبّ معصية أدت إلى ذل وانكسار خير من طاعة أدت إلى عز واستكبار ".**

فالمغلوب قريب من الله، أنا لا أقره على معصيته، ولكن لأنه يبكي، ويتحرق فهو قريب من الله، لذلك قالوا: الصلحة بلمحة، لمجرد أن يقول: يا رب، يقول: عبدي، وأنا قد قبلت، هذا الذي دعا ربه، وقال: يا رب، إذا كانت رحمتك بمن قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

فكيف علاقتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى ؟ فرعون قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

هذه رحمة الله بفرعون، وإذا كانت رحمتك بمن قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص)

فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله ؟

الحقيقة أن العبادات ـ والله ـ هذه الصلاة التي يصليها عموم المسلمين وهم في شرود، وهم في غفلة، وكأنهم يؤدون واجباً، وكأنهم ارتاحوا من الصلاة، ويقومون إليها قيام الكسالى، أما ـ والله ـ لو ذاقوا طعم القرب من الله لاستعدوا لها قبل حين، ولو وقفوا بين يدي الله بخشوع مطمئنين، ولكانت أحلى لحظات حياتهم.

أنا ـ والله ـ أرى حينما تكون هناك هذه العبادات في وادٍ والحياة في وادٍ آخر هذه علة مشكلات المسلمين، الدين في عهد رسول الله كان منهج كامل، طعامك، شرابك، زواجك، عملك، تجارتك، علاقاتك، سفرك، إقامتك، هذا الدين مئات ألوف القضايا....فحينما أقيم العبادات التعاملية تماماً تأتي العبادات الشعائرية، وعلى رأسها الصلاة، قمة في القرب من الله، أما حينما أقصر في العبادات التعاملية، كأن يكون كلامي غير صحيح، وليس وعدي صادقاً، وليس سلوكي مستقيماً، وأنا أناور، وأخادع، وآخذ ما ليس لي، وأغتاب، وأنمّ بين الناس، وأحقق مصالحي على أنقاض مصالح الناس، إذا جئت لأصلي ـ والله ـ ثمة حجب كثيفة، لا أجد طعماً للصلاة، لأني محجوب عن الله بهذه المعاصي، أما حينما أهتك هذه الحجب واحدة وَاحدة إلى أن يصبح الطريق إلى الله سالكاً أشعر بطعم القرب، وأي مؤمن عقب توبة نصوح، أو حج مبرور، أو صيام مقبول يشعر بطعم القرب.

أنا أقول كلمة: إن لم يقل المؤمن: أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني، ما لم يكن أحد أتقى مني فأنا أسعد الناس، فلا تكون ثمرة الصلاة واضحة عنده.

المذيع:

ماذا تقول لمن يصلي، ويضعف في بعض الأحيان أمام شهواته ؟

الأستاذ:

أقول له: تابع صلاتك، وتب إلى الله عز وجل، لعل صلاته تنهاه عن هذا، يقول الله عز وجل:

(إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

من أجمل ما قرأت عن هذه الآية:

(وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أن ذكر الله أكبر ما في الصلاة، بدليل قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

هناك معنى آخر، أنت في الصلاة تذكر الله، لكن الله يذكرك، ذكر الله لك وأنت تذكره أعظم من ذكرك له، تذكره أنت طاعة له، أما هو يذكرك فيطمئنك، يلهمك الحكمة، ويلقي في قلبك السكينة والأمن، ييسر لك عملك، يمتعك بصحتك، يجعل لك أولاداً أبراراً، وزوجة صالحة، ورزقاً حلالاً، وسمعة طيبة، شتان بين ذكرك له وذكره لك، ولذكر الله لكم أكبر من ذكركم له.

المذيع:

لأنه سبحانه وتعالى هو الغني عن كل هذه الطاعات، إنما هي لمصلحة الإنسان.

الأستاذ:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((... يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...))

(صحيح مسلم)

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 12 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان3 - الفرق بين من يؤدي الصلاة من مطلق أرحنا منها لا أرحنا بها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما أمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يصلي كيف نفذ هذا الأمر ؟ صلى الفرض والسنن الرواتب، وكأن السنة تمهيد للفرض، كأن السنة القبلية إعداد للإنسان ليقف في الفرض وقوفاً يرضي الله عز وجل، وكأن السنة البعدية ترميم لما حدث في الفرض من خلل.

المذيع:

هي تجبر ما كسره في الفرض من عدم التركيز، وعدم الخشوع في الصلاة، أو الخواطر التي ترد على الإنسان، كيف أن محرك المركبة متى ينطلق بيسر ونعومة ؟ حينما يحمّى، وهناك محركات كبيرة ممنوع أن تقف وفجأة، لابد من فترة تبقى تدور فيها، ولكن من دون تحميل لجهد كبير، فكأنما السنة القبلية تهيئة، وكأن السنة البعدية ترميم، فأداء الفريضة أداء كاملاً يقتضي أن تؤدى معها السنن القبلية والبعدية، ولاسيما السنن الراتبة التي ما تركها النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ترك السنة فهو أقرب إلى ترك الفرض، كأن السنن الرواتب حصن للصلاة الفريضة، إنك حينما تؤدي هذه السنن فأنت على أداء الفرض أحرص، وحينما تدع هذه السنن فأنت على ترك الفريضة أقرب، فالمؤمن الصادق يصلي كما صلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما في حالات الضرورة، في حالات المرض لا سمح الله، في حالات السفر، أو كرب كبير فلك أن تصلي الفريضة، أما النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فما ترك هذه السنن إطلاقاً، وغير المؤكدة صلاها أحياناً، ولم يصلها أحياناً أخرى، فمن علامات ضعف الإيمان الاكتفاء بالفرائض وترك السنن، ليس فيها إعداد ولا تهيئة، ولا تقديم، وليس فيها ترميم، إذا كان للظهر سنة قبلية وبعدية، وأربع ركعات الفرض من أجل أن تنعقد الصلاة في هذه الركعات الأربع تحتاج إلى تقديم، وإلى ترميم، فمن علامات ضعف الإيمان ترك السنن الرواتب، وترك الأذكار، وترك الدعاء عقب الصلاة، العبادة يجب أن تكون متقنة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لكن هذه العبادة بالمناسبة لا يمكن أن نجتهد فيها، لا أن نضيف عليها، ولا أن نحذف منها، وأية زيادة أو أية حذف فهو اتهام لهذا المنهج بالنقص أو الزيادة، فالعبادات والعقائد لا تحتمل اجتهادات أبداً، كلها توقيفية، لذلك من أجل أن يبقى الإسلام كما بدأ ينبغي أن نحافظ على ما جاء به القرآن الكريم وسنّة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

المذيع:

ترك السنن، ترك النوافل، قيام الليل، التبكير إلى المساجد يوم الجمعة...

الأستاذ:

أجمع العلماء على أن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة)

أجمع العلماء على أن ذكر الله هو خطبة الجمعة، من أتى في الساعة الأولى فكأنما قدم بدنة، ومن أتى في الساعة الثانية فكأنما قدم بقرة، ومن أتى في الساعة الثالثة فكأنما قدم شاة ومن أتى في الساعة الرابعة فكأنما قدم دجاجة، ومن أتى في الساعة الخامسة فكأنما قدم بيضة، ولم يصعد الخطيب المنبر بعد، فكيف لمن أتى بعد انتهاء الخطبة ؟

هذه عبادة تعليمية، ولابد من أن تختار خطبة تملأ قلبك وعقلك ويقينك، وأن تردد ما قاله الخطيب، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

(صحيح البخاري)

وهذه الدعوة إلى الله التي هي فرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

هل منا مَن ليس له لقاءات في أسبوع مع زملائه ورفاقه، مع جيرانه وأقاربه، وأولاده وبناته وأصهاره، لقاء، أو ندوة، أو سهرة، أو حفلة، أو وليمة، هذا اللقاء ينبغي أن نذكر الله فيه، من أين نستقيم؟ مما سمعنا في خطبة الجمعة، فكأنها دعوة إلى الله عز وجل هادئة، بسيطة، لطيفة، واسعة الانتشار.

المذيع:

هذه مظاهر ضعف الإيمان والعياذ بالله، ومنها قلنا: التماثل في الطاعات وفعل السنن الرواتب، ومثلاً قيام الليل، والتبكير إلى المساجد، وسائر النوافل، ومنهم من لا يخطر على باله أن يؤدي صلاة الضحى، ويواظب عليها، وصلاة الاستخارة، إلى ما هنالك من السنن والنوافل، حيث يكون تركُها من مظاهر ضعف الإيمان أيضاً ؟

الأستاذ:

من مظاهر ضعف الإيمان عدم القيام بالأعمال الصالحة التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كزيارة المريض، ومواساة الفقير، وإرشاد الضال، وإماطة الأذى عن الطريق، والنصيحة،

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتربية الأولاد تربية إسلامية، وضبط البيت، هذه كلها أعمال صالحة غير العبادات، غير الصلوات، والأذكار، والضحى، وقيام الليل، والتبكير إلى المساجد، توجد مجموعة أعمال صالحة ترقى بالإنسان، منها أن يعود أخاه المسلم، مثلاً: ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام فيما ترويه بعض الأحاديث:

((أتدرون ماحق الجار ؟ إذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن أقرضك أقرضته، وإن مرض عدته، وإن مات شيعته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الرياح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهده منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده))

(ورد في الأثر)

هناك أعمال صالحة كثيرة، حسن الجوار، صلة الرحم، معاونة الضعيف، مواساة اليتيم، إطعام الفقير، مواساة الأرملة.

سيدنا الصديق كان يحلب شياه جيرانه، كان الرجل الثاني في الإسلام، له أعمال صالحة كثيرة، منها أنه كان يحلب شياه جيرانه، فلما صار خليفة المسلمين أيعقل أن تستمر هذه الخدمة ؟ دخل إلى قلوب جيرانه الحزن، في صبيحة يوم تسلمه أعلى منصب في الإسلام طرق باب جيرانه، الأم قالت لابنتها: افتحي الباب يا بنيتي، ثم سألتها من الطارق ؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أماه ! هو خليفة المسلمين، وكانت الرواحل في معركة بدر قليلة، فأعطى توجيهاً، كل ثلاثة على راحلة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد في المسند]

هناك أعمال لا تعد ولا تحصى يفعلها المؤمن، يعود مريضاً، يطعم فقيراً يلبي حاجة الضعيف، يرشد الضال، يعطي عابر السبيل، ينصح أولاده، يعين أهله على الصلاة، يضبط بيته، هناك أعمال لا تعد ولا تحصى، كلها يفعلها النبي وأصحابه، هذه قصر فيها المؤمنون، قد تجد بيته غير إسلامي، وزوجته ليست متحجبة، بناته لسنَ كما يريد الله عز وجل، أولاده ليسوا على منهج قويم، دخله ليس حلالاً صرفاً، فيه شبهات كثيرة، فهذه التقصيرات في الأعمال الصالحة، وفي التساهل في بعض المعاصي والآثام، هذه من علامات ضعف الإيمان، ولو آمن الإنسان إيماناً صحيحاً لأدى واجبه الحياتي الذي أمره الله به كما ينبغي.

المذيع:

هل من مظاهر أخرى تودون الحديث عنها فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي ؟

الأستاذ:

من هذه المظاهر ضيق الصدر، في قلب المقصر وضعيف الإيمان من الضيق ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، وهذا الضيق يجعل ردود فعله قاسية جداً، سريع الضجر والتأفف، قاس في كلامه ومعاملته، في بيته، علاقاته سيئة جداً، مع أولاده غير حكيم، وفي علاقات، عمله عنده طيش، فهذا الضجر الداخلي ينعكس سوء التصرف، لأن المؤمن عنده أكبر ثمرة، ألا وهي الحكمة، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة)

بينما هذا الذي ضعف إيمانه والتزامه، ولم يؤد الصلاة كما ينبغي، ولم يبادر إلى القيام بالعمل الصالح تجده ضيق النفس، يشعر بثقل في قلبه، وكأن جبلاً راسخاً على صدره، بينما حينما يقوى إيمانه يتمتع بالراحة النفسية، وبالحكمة والحلم، والحلم سيد الأخلاق، وكاد الحليم أن يكون نبياً، اصبر فالصبر من أعلى صفات المؤمنين، يصبر على الكلمة القاسية، وعلى طيش من حوله، وقسوة من حوله، هذا الصبر علامة إيمانه بالله وقوة إيمانه، السكينة التي نشقى بفقرها ولو ملكنا كل شيء، ونسعد بها ولو فقدنا كل شيء، تصور هذه السكينة، وجدها سيدنا يونس في بطن الحوت، وجدها أصحاب الكهف في كهفهم، وجدها إبراهيم في النار، وجدها النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، في ظروف صعبة جداً، هو في أعلى درجات القرب من الله عز وجل، حينما يضعف إيمان الإنسان، وقد يكون في قصر منيف، ويأكل أطيب الطعام، ويرتدي أجمل الثياب، وكل من حوله ضاحك، وهو بائس، لأن الله حجبه عنه، يمكن أكبر عقاب يعاقب به الإنسان أن يحجب عن الله.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه)

لو وجدت في الأرض كلها رجلاً واحداً سعيداً أتم السعادة، وهو معرض عن الله لما كانت هذه الآية في القرآن، لأنها آية، إذاً لن تجد إنساناً واحداً في الأرض كلها سعيدًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهو معرض عن الله.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

من مظاهر ضعف الإيمان الضيق الذي يعتري القلب، تشاؤم، سوادوية، ضجر، ردود فعل قاسية، سوء تصرف، عدم حكمة، في بيته، وعمله جحيم، علاقاته كلها غير ناجحة، هذه أكبر نتيجة سيئة لضعف الإيمان، بينما المؤمن تجده حكيماً، رفيقاً، لطيفاً، صبوراً، شديد السماحة، هادئاً، حليماً، هذه كلها من آثار الإيمان القوي.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، ضيق الصدر، وتغير المزاج، والضجر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وصف الإيمان بأنه الصبر والسماحة، وهذا عكس الصبر، وعكس السماحة، ولاشك أنه مظهر من مظاهر ضعف الإيمان، وقساوة القلب، وترجمة قساوة القلب الترجمة العملية عندما لا يتأثر المتلقي بأيّة آية من آيات الله، وفي القرآن الكريم قوله تعالى:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر)

فكيف الحال بالإنسان ؟ لو استمع لآيات من آيات الله البينات حق الاستماع وحق التدبر لرأيته لابد خاشعاً، ومن مظاهر ضعف الإيمان ألا يخشع.

الأستاذ:

أقول دائماً: كما قال النبي الكريم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ))

(صحيح البخاري)

والمؤمن الصادق يسعد بالقرآن، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، يتلوه فيخشع له قلبه، يتلوه فيقشعر له جلده، يتلوه فيزداد إيماناً، ويطمئن له قلبه، لا يحزن قارئ القرآن، فالمؤمن الصادق من علامة صدق إيمانه أنه يسعد بالقرآن الكريم، تلاوة، وحفظاً، وفهماً، وتدبراً، وعملاً، يسعد به إذا قرأه، وإذا فهمه، وإذا عمله به، وإذا علم، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديثٍ عَنْ عُثْمَانَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(صحيح البخاري)

علاقتك بهذا الكتاب، بكلام الله، ففضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، أتقرأه كل يوم ؟ ألك وجبة لا بد منها ؟ لو أنها فاتتك لابد أن تقضي هذه الوجبة ؟ مأدبة القرآن الكريم مأدبة الله، المؤمن الصادق هناك دافع قوي عنده لقراءة القرآن، وفهمه، بل من الصحابة من كان يصلي طوال الليل بآية واحدة، لا يشبع من تردادها، أقول لكم: إذا قرأه المنافق نفسه يضجر منه، ولا يستطيع متابعة القراءة، سرعان ما يغلق المصحف، إن فتح المذياع على قرآن ينقله إلى محطة ثانية، لا يحب أن يسمع القرآن،

هذه من علامات ضعف الإيمان الشديد، ومن علامات الإيمان الصحيح أنك تتغنى بالقرآن، تأنس به، استخدمت كلمة التغني بمعناها اللغوي، لا بمعناها الاصطلاحي، التغني بالشيء الإعجاب به، وذكره، والسعادة بذكره، هذا هو التغني بالأساس، أحياناً الإنسان يتغنى بآبائه وأجداده، هو لا يغني، ولا يسمع الغناء، لكن يتغنى بآبائه، يتغنى ببطولاتهم.

المذيع:

لذلك وُجد التوضيح.

الأستاذ:

كلمة التغني بمعناها اللغوي، فهذا الذي قصدته بالتغني، وليس منا من لم يتغن بالقرآن، وكأن القرآن، والغناء لا يجتمعان.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 13 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان4 - الرياء وعدم التأثر ، كيف يحذر المسلم منها.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

حينما وصف الله المنافقين بماذا وصفهم ؟

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة النساء)

بماذا أمر المؤمنين ؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

فالأمر لا ينصب على الذكر، بل على كثرة الذكر، والمنافق يذكر الله لكنه يذكره قليلاً، إذاً من مظاهر ضعف الإيمان ضعف ذكر الله، ألم يقل الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23))

(سورة المعارج)

كيف أصلي أنا دائماً ؟ العلماء وجهوا هذه الآية توجيهاً لطيفاً، قالوا: حينما تدعو الله عز وجل في بيتك، في عملك، في الطريق، حينما تقوم بإنجاز عمل، أو تأكل، أو تنتهي الطعام، أو تنام الليل مطمئناً، أو تستيقظ صحيحاً، النبي عليه الصلاة والسلام لكل شأن في حياته ذكر، إنسان استيقظ، جاهزيته كاملة، لا يشكو مرضاً، قوته في جسمه، يتمتع بسمعه وبصره، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((... فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أنت تستيقظ لصلاة الفجر، غيرك في الملهى يبقى حتى بعد الفجر، فهذا الذكر والدعاء والاستغفار والمناجاة كلما استمرت كنت أقرب إلى الله عز وجل، أنت ضعيف، لكنك بالله قوي جداً، وأنت لا تعلم لكنك، بالله من أعلم العلماء، وأنت لا تملك الحكمة، لكنك بمعونة الله أحكم الحكماء، فلا يكفي أن نصلي هذه الصلوات الخمس، لابد من اتصال بين الصلوات، إنه الدعاء والذكر.

المذيع:

تصفون، أو تعرفون ذكر الله بأنه الأدعية والأوراد، كل هذه الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم، والأدعية الواردة في القرآن الكريم، إلى ما هنالك من دعاء صالح يدعو به المسلم، ويناجي به ربه، البعض قال: ذكر الله هو الصلاة !

الأستاذ:

هذا رأي بعضهم.

المذيع:

ولكن يجب علينا في كل حركاتنا وسكناتنا أن نقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون لنا ذكر لله عز وجل عندما نصبح وعندما نمسي.

الأستاذ:

أنت إذا خرجت من البيت وقلت:

((اللَّهُمّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلّ أَوْ أُضَلّ، أَوْ أَزِلّ أَوْ أُزَلّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيّ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد عن أم سلمة]

كنتَ في حماية الله.

المذيع:

أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، وباقتناع وبتدبر، وبتفكر بهذه الكلمات، وليس هكذا.

الأستاذ:

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفّانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ))

(سنن الترمذي)

ما قولك ؟ أنت في ذمة الله ! في عناية الله، إنك بأعيننا مادمت ذاكراً لله.

ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتّك فاتك كل شيء.

إذا ذكرت الله كثيراً امتلأ قلبك غنى، وامتلأ قلبك قوة وشجاعة، وحكمة ويقيناً بما عند الله عز وجل.

من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، المؤمن يبتغي حوائجه بعزة الأنفس، الذكر لله عز وجل يجعلك متألقاً، تذكر الله إذا خرجت من بيتك، وتذكره إذا عدت إلى بيتك، قد تنشأ مشكلة، تخاصم زوجتك أسابيع وأسابيع، أحياناً هذه مشكلة تافهة، أحياناً الشيطان يريد أن يوقع بين المرء وزوجته، فإذا دعا المؤمن ربه يدخل المؤمن بيته حكيماً.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يُذْكَرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

(سنن أبي داود)

كل الليل في مشاكل وخصومات

((إِذَا دَخَلَ فَلَمْ يُذْكَرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

بيت فيه خصومات، ونكد، وكلمات قاسية، وصدام وبُعد، وبيت فيه قرب، أنت بالذكر تقوم بعمل جليل، يا رب، أعني يا رب، انصرني يا رب، ألهمني الصواب، اللهم إني أعوذ بك من حولي وقوتي، ومن علمي، وألتجئ إلى حولك وقوتك وعلمك، يا ذا القوة المتين.

مستحيل أن تستعيذ به، ثم يخذلك، أن تطلب منه، ثم لا يعطيك، أن تسأله الحكمة، ثم لا يرشدك، هذا كله من ثمرات الذكر، لأن الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

قَالَ مُعَاذٌ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ غَدًا، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(مسند الإمام أحمد)

الذكر أوسع نشاط يقوم به المؤمن، الدعاء ذكر، الاستغفار ذكر، المناجاة والابتهال والدعوة إلى الله والتلاوة ذكر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

الذكر من صفات قوة الإيمان.

المذيع:

ومن ثمراته الطمأنينة في القلب.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

الأستاذ:

لو أن الله قال في هذه الآية: تطمئن القلوب بذكر الله، معنى ذلك أنها تطمئن بذكر الله وبغير ذكر الله، أما حينما قال الله عز وجل:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

هذا التركيب اسمه قصري حصري، أي لن تطمئن إلا بذكر الله، ذكر الله وحده يملأ قلبه طمأنينة، هكذا معنى الآية.

المذيع:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

هنا وعد بأننا إن ذكرنا الله سيذكرنا.

الأستاذ:

لقول النبي الكريم منبئاً عن ربه الجليل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))

(صحيح البخاري)

وفي رواية: ما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكته، وما ذكرني عبدي في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خيراً منهم.

المؤمن حريص على ذكر الله، غير المؤمن حريص على ذكر نفسه، أينما جلس يمدح نفسه، أنا فعلت، وتركت، وسافرت، وأقمت في الفندق الفلاني، وأنفقت المال الكثير، وهذه زوجتي، وهذه مقتنياتي، وهذه مركبتي، حديثه كله عن ذاته، أما المؤمن فحديثه عن ربه، لذلك يلقي الله حبه في قلوب الخلق، وألقيت عليك محبة مني، أي ألقيت محبتك في قلوب الخلق.

المذيع:

فضيلة الشيخ، الدكتور محمد راتب النابلسي، من مظاهر ضعف الإيمان الغفلة عن ذكر الله تعالى، ومنها أيضاً عدم الغضب إذا انتهكت محارم الله.

الأستاذ:

الحقيقة من علامات الإيمان أن يغضب المرء المؤمن إذا انتهكت حرمات الله، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

(سورة الحج)

قلت لكم قبل حلقتين تقريباً: إنه حينما هان أمر الله على الناس، أو على المسلمين هانوا على الله، فحينما نعظم شعائر الله، ونعظم هذا الكتاب، وحينما نعظم الصلاة، ونؤديها في أوقاتها فهذا تعظيم لحرمات الله، حينما نتقن صيام رمضان، ونؤدي زكاة مالنا بالتمام والكمال، هذا من تعظيم شعائر الله، العلماء فرقوا بين أداء الشعيرة وبين تعظيمها، قد تؤدي هذه الشعيرة دون أن تعظمها، وقد تؤديها دون أن تعظم الله، وشتان بين الحالتين، فحينما يدخل وقت الصلاة فأصلي، وأنا ساهٍ ولاهٍ، أما حينما أتوضأ فأحسن الوضوء، وأصلي السنة القبلية، وأقيم الصلاة، وأجهد أن أكون خاشعاً في صلاتي، أنا الآن أؤدي الصلاة، وأعظمها، أما حينما أؤديها ساهياً أو لاهياً هذه لا ترقى إلى مستوى التعظيم، أو حينما أرى معصية منكرة فلا أبالي لا أتأثر، ورد في بعض الأحاديث أن الله أمر ملائكته في إهلاك قرية، فقالوا: يا رب، إن فيها رجلاً صالحاً قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ ؟ قال: لأنه لا يتمعّر وجهه إذا رأى منكراً.

هذا الذي يقول: لا يعنيني ذلك علي من نفسي أنا مهتدٍ وحدي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ))

[مسلم]

أو هو الذي أهلكهم، فهم ليسوا كذلك.

فمن قوة الإيمان أن تعظم شعائر الله وأمره، ذنب المنافق كأنه ذبابة، بينما ذنب المؤمن كأنه جبل رابض على صدره، فكلما رأيت لا سمح الله معصية، ولم تهتم بها فهذا من علامات ضعف الإيمان، بل إنه من شهد معصية فأنكرها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها، كلام قد تجده غريباً: لو أنك سمعت بمعصية بأقصى الدنيا بأمريكة، وقلت: والله فعل ما يطيب لي، وهذه معصية، كأنك شهدت هذه المعصية، ولك سهم ووزر، لذلك ورد عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن عيّره ابتلي به))

(ورد في الأثر)

أنا حينما أنكر معصية بقلبي، وهذا أضعف الإيمان، أو أنكرها بلساني، وهذا أقوى منه، أو أنكرها بيدي، حينما تخطئ ابنتي أو ابني، وأنا مكلف بتربيتهم، يجب أن أنكر هذا المنكر بيدي، أما أقول: ليس لي علاقة، أنا لا أتدخل في شؤون أولادي، هم أولادك، من لهم غيرك ؟ إن لم تربّهم أنت فمن يربيهم ؟ أما حينما أجد معصية من إنسان لا أقوى أن أعنفه بيدي، أنصحه بلساني، فإن لم أستطع فبقلبي، وهذا أضعف الإيمان، على كل لابد من إنكار المنكر، فما لم تغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل فلا

يكون إيمانك قوياً، يجب أن تغضب لحرمة انتهكت، لمعصية شاعت، ولذنب فشا بين الناس، لكسب مال حرام أصبح مألوفاً عند الناس، لعمل فني ساقط، لقصة ماجنة، يجب أن تغضب لا أن ترضى، فمن علامات ضعف الإيمان ألا تتحرك فيك شعرة إذا رأيت معصية صارخة، أو انتهاكاً لحرمات الله، أو تجاوزاً لحدود الله.

المذيع:

هل من مظهر آخر لمظاهر ضعف الإيمان ؟ وهي كثيرة ـ والعياذ بالله ـ ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيننا بالإيمان، وأن يهدي قلوبنا إلى أحسن الخلاق والأفعال، ربما يكون من أقوى مظاهر ضعف الإيمان الرياء، وهو خلق ذميم حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف نتجنب هذا الخلق ؟

الأستاذ:

الحقيقة لابد من تمهيد: رُكّب في الإنسان شهوات كثيرة، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران)

في أصل تركيب الإنسان أودعت فيه الشهوات، يمكن أن نلخص هذه الشهوات، شهوة الطعام والشراب للحفاظ على الفرد، وشهوة النساء للحفاظ على النوع، وشهوة تأكيد الذات، كل إنسان عنده رغبة أن يكون عظيماً، أن يكون مهمّا، أن يكون خطيراً.

المذيع:

وهذه كما ذكرنا في حلقات سابقة شهوات حيادية.

الأستاذ:

هي سلم نرقى بها، أو دركات نهوي بها، فلو أخذنا هذا الجانب الوحيد، وهو حب الظهور، تأكيد الذات، التفوق، النجاح، الفلاح، هذا الجانب قد يروى بطريق مشروع، أنت حينما تستقيم على أمر الله، وحينما تفعل الخير يرفعك الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

والمؤمن له من هذه الآية نصيب، فإذا اصطلح مع الله، وأحسن إلى خلقه، وأقبل عليه يرفع الله شأنه، ويعلي قدره، ويجعله عزيزاً مكرماً، فحب الظهور والعلو في الأرض وتأكيد الذات والتفوق قد يأتي من طريق الخير، الصحابة الكبار الذين أعانوا النبي صلى الله عليه وسلم في دعوتهم هم قمم في المجد، نذهب إلى المدينة المنورة بعد ألف وخمسمئة عام، ونقف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم

خاشعين، نبكي، نخاطبه، نسلم عليه، نقف أمام الصديق، نقف أمام عمر عملاق الإسلام، أما هؤلاء الذين كذبوه، وخاصموه، وحاربوه فهم في مزبلة التاريخ، فالعلو في الأرض طريقه الوحيد أن تكون مع الله لذلك: سبحانك، لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.

فيمكن أن تكون في أعلى مقام، وفي أعلى رتبة، أو مكانة حينما تطيع الله عز وجل.

سيدنا يوسف عبد من عبيد القصر، رأته جارية عبداً يدخل السجن، ورأته عزيز مصر، فماذا قالت ؟ قالت: سبحان من جعل العبيد ملوكاً لطاعته، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته، الآية الكريمة:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة)

على تفيد الاستعلاء، أنت حينما تهتدي إلى الله يرتفع مقامك، ويعلو شأنك، ويلمع اسمك، ويعظم ذكرك، أما أولئك المنافقون فهم في ضلال مبين، أما في فهي تفيد أن شيئاً ضمن شيء، في كآبة، في سجن، في قهر، في جحيم، في بُعد، في جفاء، فبين (على) و (في) بون شاسع، لذلك حينما يكون الإنسان ضعيف الإيمان يحب الاستعلاء والسيطرة إرواءً لغروره، يحب أن يقهر الآخرين، ويستبد بهم، ويبني مجده على أنقاضهم، هذا من علامات ضعف الإيمان.

يروى أن سيدنا الصديق رضي الله عنه قال لعمر: " مد يدك لأبايعك، سيدنا الصديق أول رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيّ أرض تقلّني، وأي سماء تظلّني إذا كنت أميراً على قوم فيهم أبو بكر ؟ هذا شيء لا أحتمله، قال: أنت أقوى مني يا عمر، قال: أنت أفضل مني، قال: إذاً قوتي إلى فضلك " !.

أرأيت إلى هذا التواضع والتعاون ؟ أما الإنسان حينما يبتعد عن الله يجب أن يكون مسيطراً، ويحقق وجوده على أنقاض الناس، يجب أن يبني عزه على إذلالهم، يجب أن يبني غناه على فقرهم، هذا من ضعف الإيمان، أما قوة الإيمان فتعني التواضع.

دخل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فما عرفه ! قال: أيّكم محمد ؟

كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر، أرادوا أن يعالجوا شاة، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعليّ جمع الحطب، قالوا: نكفيك هذا يا رسول الله، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

من علامات ضعف الإيمان حب السيطرة، وحب العلو في الأرض، والعنجهية، والغطرسة، وهذا نراه في أعدائنا بشكل صارخ.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 14 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان5 - أشكال الرياء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم يقل نبي كريم، وهو سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لعزيز مصر:

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55))

(سورة يوسف)

حينما يمكن الإنسان في الأرض يعطى قوة وسلطة بإمكانه أن يقيم الحق، ويلغي الباطل، وأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حبذا الإمارة، لأنها طريق إلى الجنة.

يروى أن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: **" تاقت نفسي للإمارة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة ".**

حتى الإمارة يمكن أن ترقى بها إلى أعلى عليين، نبي كريم أوتي ملكاً، لم يؤتَ غيرُه مثلَه، فأنا لا أذم مطلق الإمارة، حينما يطلبها الإنسان ليحق الحق، ويبطل الباطل، ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أن يعيد البسمة بها إلى وجوه البؤساء والجائعين فهذه طريق إلى الجنة، أما حينما نريدها لمغانمها ومكاسبها ومالها ووجاهتها والاستعلاء فيها فهي طريق إلى النار.

المذيع:

الرياء ليس رياءً إذا كان الإعلان عن العمل الصالح لمجرد الاقتداء، ولكن لنحدد، ولنصف الرياء الذي هو مظهر من مظاهر ضعف الإيمان.

الأستاذ:

أن تظهر شيئاً، وتخفي نقيضه، أن تظهر صلاحاً، وتخفي فساداً، أن تظهر عفة، وتخفي دناءة، حينما يكون الإنسان ذكياً من أجل مصلحته يظهر أفضل ما عنده تمثيلاً لا تحقيقاً، فهذا المرائي ينتزع إعجاب الناس، أما هو عند الله فهو ساقط، وأمام نفسه ساقط، لأن جهتين لن تستطيع أن تخدعهما، الله جل جلاله ونفسك التي بين جنبيك.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

أما هذه الازدواجية، وهذا الانفصام إن صح التعبير فيوقع الإنسان في سقوط أمام نفسه، أما حينما يتوحد الإنسان يكون ظاهره كباطنه، سريرته كعلانيته، مخبأه كمظهره، يشعر براحة كبيرة، فلذلك الإمارة حينما نقصدها لذاتها لا لعمل الخير من خلالها تكون ندامة يوم القيامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ))

(صحيح البخاري)

من أجمل ما شبه به النبي صلى الله عليه وسلم هذه الإمارة، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ أي: أولها، معها المال والجاه والملذات، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ، أي: آخرها، معها العزل، والمطالبة بالتبعات، وفي حديث آخر عَنْ لُقْمَانَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ، أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(مسند الإمام أحمد)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(صحيح مسلم)

لكن من كمال النبي صلى الله عليه وسلم جبر الجميع قال: وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، لكن المؤمن القوي معه شيء يخدم الناس به، معه أدوات العمل الصالح، فالقوة قوة العلم، وقوة المال، وقوة المنصب، فأنت بإمكانك أن توظف قوتك في خدمة الحق إذا كنت في منصب رفيع، أو كنت ذا مال وفير، أو كنت ذا علم غزير، أما حينما تفقد هذه الثلاثة، فقد فقدت أدوات العمل الصالح، فنحن لا نرفض الإمارة لذاتها، نرفضها حينما تكون دركات نهوي بها، ونطلبها حينما تكون درجات نرقى بها، وكل شيء حيادي، والإنسان مخير، إما أن يجعل من هذه الشهوة سلماً إلى الله، أو دركات إلى النار هذه واحدة.

هناك موضوع آخر متعلق بضعف الإيمان، هو حب تصدر المجالس، وأن تكون أنت المتكلم وحدك، وأن يصغي الناس إليك، هذه شهوة مَرَضية، لذلك حذر منها النبي عليه الصلاة والسلام، فَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ))

(سنن الترمذي)

وقد ورد في بعض الأحاديث أن أشخاصاً كباراً يُرَوْنَ يوم القيامة في النار، فيفاجأ أهل النار بهم، فعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قِيلَ لِأُسَامَةَ: لَوْ أَتَيْتَ فُلَانًا فَكَلَّمْتَهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلَا أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاس بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَآتِيهِ))

فضمن الدعوة إلى الله هناك شهوات، هناك مكاسب دنيوية، فالمؤمن الصادق يبتعد عن هذه المكاسب ضمن الدعوة إلى الله، لأن الدعوة إلى الله لا تقبل الغش أبداً، ولا تقبل الانحراف أبداً، يجب أن تكون خالصة لوجه الله عز وجل.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)

(سورة الإسراء)

لا ينجو حتى النبي صلى الله عليه وسلم افتراضاً لو أنه انحرف عن المنهج الصحيح قيد أنملة، ألم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حينما طلب منه أن يمثل ببعض كفار قريش قال:

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً))

(ورد في الأثر)

كلما علا مقام الإنسان يزداد ورعه، ويزداد انضباطه، ويزداد خوفه من الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله))

(ورد في الأثر)

وفي بعض الأحاديث الشريفة في صحيح الجامع عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب))

(الجامع الصغير للإمام جلال الدين السيوطي)

أي أن تتصدر المجلس، وأن يشار إليك بالبنان، وأن تكون تحت الأضواء، ولامع النجم، عالي الصيت، هذا قد يكون مزلة قدم إلى ما لا تحمد عقباه، عافانا الله من هذا، المؤمن متواضع، كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس، دخل عليه رجل أصابته رعدة، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

(سنن ابن ماجة)

تواضعه شديد، ورفعة مقامه عالية عند الله.

في ضعف الإيمان مظاهر كثيرة، لكن من أبرزها حب الظهور، والهيمنة، والسيطرة، أن يعلو في الأرض، ويسحق من دونه، أما المؤمن فيتعاون، ولا يتنافس، كنت أقول دائماً: المؤمن يتعاون، والمنافق يتنافس، المؤمن يبرُز ويُبرز من حوله، بينما المنافق يلقي الظلال على من حوله، ويبرز وحده، وهذه شهوة في نفس الإنسان، هذا كله يترافق مع ضعف الإيمان ! السبب: أن المؤمن حينما يعمل عملاً خالصاً لله عز وجل يأخذ نصيبه من الله سكينة، لا يحتاج إلى تقنيع الناس، ولا إلى ثنائهم، ولا إلى تمجيدهم، ولا إلى تعظيمهم، أما حينما يفتقد الرجل هذه السكينة فهو يستجدي مديح الآخرين، يحب أن يقف الناس له قياماً، ويعظم تعظيماً مبالغاً فيه، هذا كله من رعونات النفس، وحينما يعافى الإنسان منها تزداد شخصيته قوة.

أحد مظاهر ضعف الإنسان أنه يحب المديح، خصومه الأذكياء يعرفون مفتاحه، يثنون عليه فيملكونه، يعظمونه تعظيماً فارغاً، فيملكون قلبه.

يروى أن أحد الصحابة الأجلاء مدحه شخص مدحاً ليس خالصاً فقال له: **" أنا دونما تقول، وفوق ما في نفسك ".**

حينما يُمدح الإنسان، ويصدق ما قيل فيه يتكبر، ويتعجرف، ويعجب بنفسه، وينسى فضل الله عليه.

الحقيقة أن المنافق إذا مدح يرى فضله، يرى إمكانياته، فيعجب بها، وينسى المنعم، بينما المؤمن إذا مدح ذكر فضل الله عليه، ورأى أنه ما كان شيئاً، كان لا شيء، وأصبح بفضل الله مذكوراً، إذا مدحت المؤمن رَبا الإيمان في قلبه، أما إذا مدح الفاسق ازداد تيهاً وعنجهية وكبراً، هذا حب الظهور للسيطرة، وحب الارتفاع على الناس، هذا من مظاهر ضعف الإيمان السبب، والمؤمن كلما جاءته سكينة من الله أغنته عن مديح الناس، ولا يبالي، لذلك من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به، لأنه يستغني عن مديح الناس، ويقوى مركزه عندهم، أما إذا كان مفتقراً إلى مديح الناس يضعف في نظرهم، والحقيقة هذه من نقاط ضعف الرجل، أن يحب المديح، وخصومه يلعبون به بين أصابعهم، يمدحونه فيحققون منه ما يريدون، أما المؤمن فمواقفه واضحة، لا يعبأ لا بمديح، ولا بذم، لأنه من عرف نفسه، وعرف ربه، فاستغنى عن مديح الناس، وعن تعظيمهم له.

المذيع:

هذا بالنسبة لحب السيطرة والظهور، فماذا بالنسبة للرياء من حيث إنه يرائي الناس بصلاته وصومه وزكاته، يشرك مع الله شريكاً آخر.

الأستاذ:

الإنسان حينما يقصر، ويبتغي بتقصيره إرضاء الناس ينطبق عليه قول النبي الكريم:

((من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عنه وأسخط عنه الناس))

(ورد في الأثر)

كان هو الخاسر الأول، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، بل إن هذا التوحيد، وأعظم ما في الدين التوحيد، التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل، أنت حينما توحد تمتلك شيئاً اسمه الصحة النفسية، تبتعد عن الشدة النفسية، معظم أمراض الإنسان أسابها الشدة النفسية، أمراض القلب، أمراض الأوعية، الضغط المرتفع، أمراض جهاز الهضم، أمراض الأعصاب، حتى الأورام الخبيثة أسبابها شدة نفسية، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

لمجرد أن تشعر أن فلاناً قوياً، وهو يملك أن ينزل بك الضرر، ولا يحبك، هذا شعور وحده يسبب أزمة قلبية، أما حينما تعلم أن أمرك بيد الله، وأن الله لن يسلمك إلى غيره، ولو أنه من باب الافتراض أسلمك إلى غيره كيف تعبده وحده ؟ ينبغي أن تعبد غيره، طمأنك فقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

فما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أنّ الأمر كله بيده، فتشعر أن الأمر بيد الله وحده، وأنه مطّلع عليك، ويعلم سرك وجهرك، ويعلم إخلاصك، هذا وحده صحة نفسية، والآن أخطر جهاز في الإنسان جهاز المناعة المكتسب، هذا الذي يقوى على كل الأمراض، إذا ضعف هذا الجهاز تقوى عليه كل الأمراض، هذا الجهاز المناعة المكتسب يقويه الحب والشعور بالأمن، ويضعفه الخوف والقلق، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

أي إنك نجوت من مرض الأمراض، من مسبب الأمراض وهو الشدة النفسية، والآن اسأل أي طبيب يقل لك: ما من مرض خطير إلا ووراءه شدة نفسية، هذه الشدة تضعف جهاز المناعة، وجهاز المناعة المكتسب موكول إليه القضاء على الأمراض الجرثومية والسرطانية.

المذيع:

وضعيف الإيمان كمن فقد جهاز المناعة المكتسب، لا يستطيع مقاومة كل الضغوط والإغراءات وغيرها من الأمور التي يمكن أن تحيله عن سبيل الله.

الأستاذ:

صدقني أخي زياد ـ جزاك الله خيراً ـ أن ضعف الإيمان يسبب ضعف الشخصية في الحياة، ضعيف الإيمان يخاف من كل إنسان، يحسب حساباً لكل إنسان، ينافق لكل إنسان، هذا وحده يضعف شخصيته، أما المؤمن حينما تقوى شخصيته يضمن سلامة جسمه وأجهزته

المذيع:

هو موقن بأن أمره بيد الله، وأن ما كتبه الله عليه سيكون، وأن كله سيرجع لله.

الأستاذ:

أحد التابعين جاء به أحد الطغاة ليقتله، فقال له: والله لو علمت أن موتي بيدك ما عبدت غيرك ! نهاية الحياة بيد الله عز وجل.

الإنسان متى يقوى ؟ إذا رأى أن أمره بيد الله، وأن الله لا يسلمه لأحد، الآية الكريمة:

(إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

شعورك أن الله معك، وأنه لا يتخلى عنك، وأنه ناصرك، ومؤيدك، وأنه حفيظٌ عليك، هذا شعور وحده مسعد، فقد تجد إنساناً ضعيفَ الإمكانيات، لكنه قوي بإيمانه، وتجد إنساناً ممتلئاً قلبه خوفاً وفرقاً، وهو يملك كل الإمكانات، هذا من مفارقة الحياة، ضعف الإيمان ضعف في شخصية الإنسان، وقوة الإيمان قوة في شخصيته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 15 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان6 - الشح والبخل والاستئثار.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية ضعف الإيمان لها منعكسات خطيرة في حياة الإنسان، ذلك أن الإنسان حينما يعلم سرّ وجوده وغاية وجوده، وحينما يعلم أنه خلق لجنة عرضها السماوات والأرض ينعم فيها إلى أبد الآبدين، ولابد لدفع ثمن هذه الجنة، عندئذ يبني حياته على البذل والعطاء، أما إذا رأى أن الدنيا هي كل شيء، وأنها منتهى آماله، ومحط رحاله، عندئذ يبخل، القضية متعلقة بعمق العقيدة، لو أن الإنسان اعتقد شيئاً، ولم ينعكس سلوكه فليعتقد ما شاء، ولكن لأنه ما من عقيدة، أو ما من تصرف في الإنسان إلا وله منعكس في سلوكه، فلابد من صحة العقيدة، فهذا الذي يظن أن الدنيا كل شيء، وأن السعيد فيها كان غنياً، وأن السعيد فيها من انغمس في الشهوات إلى قمة رأسه، هذا لن يعطي شيئاً يبخل، فكأنما البخل من لوازم الكفر، وكأنما العطاء والبذل من لوازم الإيمان، من هنا يقول الله عز وجل:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتّقى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

لأنه صدق أنه مخلوق للجنة، الحسنى هي الجنة.

(فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتّقى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى(7))

لأنه اعتقد أنه مخلوق للجنة، وأن هذه الجنة ثمنها أن تعطي مما أعطاك الله، إذاً يعطي، فالكرم والبذل والتضحية، وتقديم الغالي والرخيص، والنفس والنفيس بسبب إيمانه أنه مخلوق للجنة، أما إذا ظن أن الدنيا هي كل شيء فإنه يستأثر يبخل.

(وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9))

لماذا بخل ؟ لأنه كذب بالحسنى، أيقن بالدنيا فقط، وقد وصف الله الكفار بأنهم:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا)

(سورة الروم)

ليتَهم عرفوا حقيقتها بعمق، عرفوا ظاهرها، فظنوها منتهى آمالهم، ومحط رحالهم، فبخلوا، وقبضوا أيديهم، ولم يفهموا أنهم مخلوقون لجنة إلى أبد الآبدين.

فالحقيقة تفسير البخل والشح سهل جداً، كلما ازداد إيمانك بالآخرة، كلما ازداد عطاؤك، وكلما ضعف إيمانك بالآخرة ازداد بخلك، هذه قاعدة، والآية من أوضح الآيات:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتّقى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى(7))

وكأن الناس جميعاً لا يزيدون على رجلين، رجل عرف الله، آمن بالله واليوم الآخر فأعطى، ورجل ضعف إيمانه بالله، ولم يؤمن باليوم الآخر فبخل.

المذيع:

لنبقى في رحاب هذه الآية فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5))

هنا العطاء مرتبط بالتقوى.

الأستاذ:

الإنسان قد يكون غنياً، وقد يكون إيمانه بالآخرة ضعيفاً أو معدوماً، لكن في الظروف الاجتماعية يعطي، يريد أن ينتزع إعجاب الآخرين، معه أموال طائلة، هذا العطاء إن لم يبنى على تقوى من الله لا قيمة له.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبّلَ مِنْكُمْ إِنّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ(53))

(سورة التوبة)

هكذا الآية، فالإنسان قد ينفق ليجلب سمعة، لينتزع إعجاباً، ليثني الناس عليه، ليصنفوه مع المحسنين، أما العطاء الذي أثنى الله عليه فهو المرتبط بالتقوى بالطاعة، هناك شيئان كبيران: شيء سلبي، أن تستقيم على أمر الله، وشيء إيجابي، أن تبذل، فهذان الشيئان الكبيران الاستقامة والبذل متكاملان، لا يقبل عطاء من دون استقامة، لذلك الأغنياء جداً ينفقون أموالا طائلة ما أرادوا بها وجه الله ولا الدار الآخرة، أرادوا سمعتهم، وثناء الناس عليهم، وأن يكونوا في أعين الناس من كبار المحسنين، لأن الله عز وجل طيب، ولا يقبل إلا طيباً، نبّهنا:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبّلَ مِنْكُمْ إِنّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ(53))

الآية دقيقة جداً:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5))

لماذا أعطى واتقى ؟ لأنه:

(وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6))

الترتيب تصاعدي، هو صدق بالحسنى، صدق أنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، صدق أنها أعدت للمتقين، صدق أن هذه الدنيا فانية، أنها زائلة، وأن الموت ينهي كل شيء، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الذميم، وكأن في الدنيا سباق أحمق، ألف سيارة تتسابق على طريق عريض وطويل، وينتهي بحفرة مالها من قرار، أول سيارة وصلت إلى الهدف سقطت، وآخرها سقطت، وأوسطها سقط،

وأكبرها، وأضعفها، وأصغرها سقط، ما هذا التنافس ؟ ينتهي بالموت، والموت كل شيء، من هنا قال الله عز وجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

التسابق إلى أمور الآخرة، فلذلك أن تشتهي أن تكون كزيد أو عبيد في الدنيا، هذا حسد، أما أن تشتهي أن تكون كزيد أو عبيد في الآخرة فهذه غبطة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

(صحيح البخاري)

مرة قرأت تقديماً لكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لفت نظري إهداء المؤلف، أهداه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال: يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، والمؤمنون يعطون ويأخذون، لابد من أخذ وعطاء، هناك سؤال كبير: ماذا قدمت للبشرية ؟ ماذا قدمت للإنسانية، ماذا قدمت لأهل بلدي ؟ ماذا قدمت لمجتمعي ؟ حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام)

فالمؤمن يبني حياته على العطاء، يعطي من كل شيء، قد يعطي من وقته، أو جهده، أو علمه، أو خبرته، أو جاهه، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة)

هذه آية واسعة جداً، من أي شيء منحك الله إياه ينبغي أن تنفق، لأن الآخرة عِلْتُها الرائجة العمل الصالح، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

الإنسان على فراش الموت يتمنى ماذا ؟ يتمنى أن يعمل صالحاً، لأن العمل الصالح هو ثمن الجنة.

المذيع:

ذكرتم دكتور راتب النابلسي أن في ديننا الحنيف اتجاهين: الأول سلبي، وهو طريق الاستقامة، أن

يستقيم المرء على الصراط المستقيم، وأن يتبع هدي الله سبحانه وتعالى، والاتجاه الآخر هو إيجابي، أن يكون على الاستقامة، وأن يعطي، ماذا قصدتم بالسلبي والإيجابي ؟

الأستاذ:

المستقيم يقول: أنا ما كذبت، ما غششت، ما افتريت، ما نظرت إلى امرأة لا تحل لي، الاستقامة طبعها سلبي امتناع، امتنع عن الكذب، عن يمين كاذبة، عن الإيقاع بين مؤمنين، امتنع أن يسخر من إنسان، امتنع عن أن يحقد، كله امتنع، فالإنسان يستقيم، لكن العمل الصالح إيجابي، فيه بذل.

أنا أشبه تماماً الطريق إلى الله بإنسان غارق في المعاصي، كله عقبات تحول بينه وبين السير على هذا الطريق، فإذا استقام أزاح كل العقبات، هل يكفي أن تزيح العقبات حتى تصل إلى الهدف ؟ لابد من أن تتحرك، فإزاحة العقبات هي الاستقامة، والعمل الصالح هو التحرر، لقوله تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر)

لابد من أن أزيل كل عقبة أمامي، وبعدها لابد من أن أعمل عملاً صالحاً يدفعني إلى الله عز وجل، وكما تعلمون الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، مادمنا قد دخلنا في العمل الصالح الله عز وجل هو الهدف، هو المقصد، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، وقد رسم إلي ملايين الطرق، أنت في بيتك هناك طرق عديدة لتصل إلى الله، أن تكون زوجاً مثالياً، أو أباً رحيماً، أن تكون ابناً باراً ضمن البيت، ضمن حرفتك، وعملك، أنت حينما تختار حرفة مشروعة في أصل الدين، وتمارسها بطريقة مشروعة، وتنوي بها كفاية نفسك، وخدمة المسلمين، ولا تحجزك عن عمل صالح، ولا عن واجب ديني، انقلبت حرفتك إلى عبادة، وهذا المفهوم ذكرته سابقاً، المفهوم الحديث للعبادة، أن تعبد الله فيما أقامك، فالقضية قضية علم، حينما تعلم سرّ وجودك تصبح كريماً وباذلاً، ومعطاءً وسخياً، حينما تجهل سر وجودك تظن أن هذه الدنيا هي كل شيء طبعاً تبخل، هذه قاعدة، الإنسان يبخل إذا آمن بالدنيا فقط، عَنْ أَنَسٍ

((أَنّ رَجُلًا سَأَلَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللّهِ إِنّ مُحَمّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ، فَقَالَ أَنَسٌ إِنْ كَانَ الرّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلّا الدُّنْيَا فَمَا يُسْلِمُ حَتّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا))

(مسلم)

الآخرة مبنية على البذل، فحينما تشعر أنه كلما بذلت ارتقيت، أما الجاهل فبنى حياته على الاستئثار والقبض، هناك من يفرح بالأخذ، وهناك من يفرح بالعطاء، إن أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل

الدنيا ومن أهل الآخرة فانظر ما الذي يفرحك، أن تعطي أم أن تأخذ ؟ علامة الإيمان بالآخرة أن تفرح بالعطاء، وعلامة ضعف الإيمان أن تفرح بالأخذ فقط، هنا نقطة دقيقة، حينما قال الله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

بخل بكل شيء، بخل بخبرة يعطيها لإنسان، بخل بمال ينفقه، بخل بوقت يمنحه، بخل بخبرة يقدمها، بخل بكلمة يقولها، هذا الذي يبخل من صفاته أنه استغنى عن طاعة الله، هناك أعطى واتقى، هنا بخل واستغنى، لماذا أعطى واتقى ؟ لأنه صدق بالحسنى، لماذا بخل واستغنى ؟ لأنه كذب بالحسنى.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11))

أندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأندم الناس رجل مات ودخل ورثته بماله الجنة ! ودخل هو بماله النار، وفي بعض الآثار أن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّى وحرم، فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه، فالهناء لكم والتبعة علي.

المذيع:

فضيلة الشيخ هناك مذهب آخر متعلق بهذا المظهر، مظهر البخل والشح والاستئثار من مظاهر ضعف الإيمان، ألا وهو المن والأذى الذي يلحق به البعض أي عطاء يعطونه.

أيضاً تفسير هذا سهل جداً، أنت حينما ترجو بعطائك رضوان الله، والله معك، يعلم سرك ونجواك، لا تخفى عليه خافية، أنت تكتفي برضوان الله عليك، فلا تطالب الناس أن يمدحوك، ولا أن يشكروك، ولا أن يثنوا عليك، أما حينما يكون المرء مقطوعاً عن الله، ولا يرجو ما عند الله، فلابد من أن يرجو ما عند الناس، فإن لم يشكر يغضب، وإن لم ينوّه بفضله يستثار، وإن لم توضع لوحة تشيد به أن هذا الجامع هو الذي أنفق عليه لا يقبل، الإنسان حينما يعرف الله لا يتمنى جهة أخرى تثني عليه، وحسب المؤمن أن الله يعلم.

بالمناسبة هناك آيات كثيرة تؤكد هذا:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)

(سورة البقرة)

فالإنسان يرتاح مع الله، لا يحتاج لا إلى إيصال، ولا إلى تنويه، ولا إلى زاوية تشكره في الجريدة، هو يحتاج إلى رضوان الله، فتجد أن المؤمن من أقوى الشخصيات، لأن نقطة ضعف الإنسان حاجته إلى المديح، والمنافقون يستغلون هذه الحاجة، فيكيلون المديح جزافاً لبعض الأشخاص، وكأنهم يستحثونهم

على العطاء الزائد، هو يعطي ليمدح، يعطي ليثنى عليه، أما المؤمن فقوة شخصيته نابعة من أنه مستغن عن المديح، لا يعبأ.

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً(9))

(سورة الإنسان)

الإنسان حينما يعمل عملاً صالحاً، وينتظر الثناء فكأن هذا العمل لغير الله، أما إذا عمل عملاً صالحاً، ولم يبالِ إطلاقاً بردود فعل الآخرين، فأغلب الظن أنه مخلص بهذا العمل.

بالمناسبة، علامة الإخلاص ألا ترجو ثواباً من أحد، وألاّ يختلف سرك عن علانيتك، وأن تشعر بسعادة كبيرة حينما تعمل عملاً صالحاً، لأنه عاد عليك من هذا العمل ما يسمى السكينة في قلبك، فعلامة الإخلاص سكينة تشعر بها في قلبك، هذا الذي يغني الإنسان عن طلب المديح، الحقيقة من أشد نقاط الضعف في حياة الشارد عن الله حاجته إلى المديح، وهناك أناس أذكياء يكشفون هذه الحاجة فيستغلونها، لكن المؤمن مستغنٍ عن مديح الناس، عرف نفسه، وعرف ربه، فما ضرته مقالة الناس به، لكنه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((رحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه))

(ورد في الأثر)

المذيع:

يكفي أن نستذكر أيضاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

(صحيح البخاري)

الأستاذ:

هذا من علامات الإخلاص، ثم هناك شيء دقيق: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((يا معاذ أخلص دينك يكفِك القليل من العمل))

(ورد في الأثر)

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

عمل قليل مع إخلاص كثير ينجي صاحبه من أهوال الدنيا، ومن عذاب الآخرة.

المذيع:

نسأل الله عز وجل القبول والإجابة، وحسبنا في تقوية إيماننا من خلال التخلص من مظاهر الشح والبخل.

الأستاذ:

ومِن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((... لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا...))

(سنن الترمذي)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا))

(سنن النسائي)

وهذا حديث دقيق، لَا يَجْتَمِعُ، لعلهما متناقضان، التناقض غير التعاكس، البيض والأسود متعاكسان، وقد يجتمعان على حائط، أما النور والظلام فمتناقضان، لأنهما لا يجتمعان، وجود أحدهما ينقض وجود الآخر، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا))

إن كان في القلب إيمان فلا يجتمع فيه شح أبداً، وإن كان فيه شح فلا يمكن أن يكون فيه إيمان أبداً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 16 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان7 - النفاق .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن الله جل جلاله في كتابه العزيز، وفي ثاني سورة من سور القرآن الكريم، سورة البقرة صنف الناس جميعاً إلى ثلاثة أصناف، المؤمنين، والكفار، والمنافقين، الشيء الذي يلفت النظر أن آيات عدة وصفت المؤمنين:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

(سورة البقرة)

ثم وصف الكفار فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

لكنه وصف المنافقين في ثلاث عشرة آية، لماذا ؟ لأن المؤمن واضح، والكافر واضح، المؤمن آمن، واستقام، فسعد في الدنيا وفي الآخرة، والكافر أعرض عن هذا الدين إعراضاً كلياً، هو يعلن أنه غير مؤمن، لا تحتاج إلى سبرٍ كي تعرفه، واضح، لكن المنافق متلوّن، يريد أن يأخذ ميزات المؤمنين فانتمى إليهم شكلاً وظاهراً، ويريد أن يأخذ تفلت الكفار، فانتمى إليهم حقيقة.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

(سورة البقرة)

الحقيقة، أعيد وأكرر، أنه حينما يضعف الإيمان ينعكس ضعف الإيمان نفاقاً، حينما يضعف الإيمان ينعكس ضعف الإيمان بخلاً وتفلتاً، فمن نتائج ضعف الإيمان النفاق، هو لا يرى الله، يرى الناس، يريد أن يرضي الناس، لو أنه علم أن الأمر كله بيد الله لما كان منافقًا، لذلك قالوا: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، ولذلك قالوا: التقوى نهاية العمل والتوحيد نهاية العلم، أنت حينما تدخل إلى دائرة تريد أن تأخذ توقيعاً، والدائرة فيها مئة موظف، على رأسهم مدير عام، إذا تيقنت أن واحداً من هؤلاء الموظفين لن يستطيع الموافقة على طلبك إلا المدير العام، فهل تتجه إلى واحد من هؤلاء ؟ مستحيل، هل تبذل ماء وجهك أمامه ؟ مستحيل، هل تتضعضع أمامه ؟ مستحيل، مادام هؤلاء جميعاً ليس الأمر بيدهم الأمر،

بل بيد واحد، فمن علامات قوة الإيمان أنك تتجه إلى الله وحده، أما من علامات ضعف الإيمان أنك تتجه إلى الآخرين، لابد من أن ترضي زيداً، وترضي عبيداً، وترضي فلاناً، وأن ترضي علاناً، إذاً هنا يقع النفاق، النفاق الانعكاس الطبيعي لضعف الإيمان، المنافق يقول دائماً ما لا يعتقد، يوجد في حياته ازدواجية، المؤمن فيه توحد، المؤمن من عظمة الإيمان الذي في قلبه أن سريرته كعلانيته، وأن خلوته كجلوته، وأن ما يبطن كالذي يعلن، لا يوجد في حياته ازدواجية أبداً.

المذيع:

هذا نفاق اعتقادي.

الأستاذ:

أن تقول ما لا تعتقد.

المذيع:

هل يقتصر الأمر على الاعتقاد الإيماني ؟ أم أنه ينسحب على كل ما تفكر فيه من أمور الحياة، ومن مواقف ومن آراء ؟

الأستاذ:

نحن في دائرة الإيمان، قواعد الإيمان معروفة، فهو يقول من قواعد الإيمان ما لا يعتقدها إطلاقاً، ليرضي من حوله، هدفه إرضاء الناس، وقد قيل: من استطاع أن يرضي الناس كلهم فهو منافق، لأن رضا الناس غاية لا تدرك، المؤمن لا يوجد في حياته طرف آخر.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

(سورة الأنعام)

لا تطمح لأن يحبك الناس جميعاً من دون استثناء، ما دمت قد وقفت موقفَ حقّ فلابد لك من خصم، دعه لله، أما أن تطمح أن يحبك الناس، وتكسب رضا الناس جميعاً فهذا مستحيل، لأن بين الحق والباطل معركة، فهؤلاء الذين نافقوا في عهد رسول الله، النبي صلى الله عليه وسلم كان في أعلى مقام، مقام العلم، ومقام الحكمة، ومقام الفضل، ومقام الإحسان، يتربع النبي على قمم القمم، هو قمة البشر جميعاً، ومع ذلك هناك من كرهه وأبغضه، لأنها معركة أزلية بين الحق والباطل، فالمؤمن اتجه إلى الله وحده، ومادام قد اتجه إلى الله وحده فهو راض بما عند الله، لا يطمع أن يرضي الناس جميعاً، أما المنافق يقول ما لا يعتقد، دائماً يتلوّن، وفي منافقين أذكياء جداً، أينما جلسوا يتأقلمون، ويتكيفون مع هذا الموقف، وكأنه منهم، إن جلس مع الملحدين أظهر تبرمه بالإيمان، وإن جلس مع العلمانينن أثنى عليهم، وإن

جلس مع المسلمين أثنى على أهل الإيمان، حتى في الأمور التفصيلية، مع كل فئة ينصهر من أجل مصالحهم، حقيقة هؤلاء مصلحة، بينما المؤمن رجل مبدأ

المذيع:

يقول البعض فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي: إن هذا الطبع يمارسه الإنسان، ولا يدري أنه على هذه الشاكلة، هل يا ترى جبل بعض الناس على هكذا طباع، أم أنه يمكن أن يتدرب على أن يتخلص من هذا الطبع ؟

الأستاذ:

الحقيقة أن أخطر أنواع النفاق حينما ينافق الإنسان، ولا يدري أنه ينافق، لو علم المنافق أنه منافق لكفّ عن نفاقه.

أذكر نصاً رائعاً جداً، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:

((أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ))

[البخاري]

فالذي يدخل في حساباته أنه منافق فهذا مؤمن، الذي يخشى أنه منافقاً هذا مؤمن، أما المنافق فينافق، ولا يشعر أنه ينافق، هنا الخطورة، ينسحب على هذا مقولة أخرى: إذا علم الثقيل أنه ثقيل، فليس بثقيل، لا يشعر أنه ثقيل، فالمنافق رجل مصلحة أينما كانت يبحث عنها، لو كانت مصلحته عند أهل الإيمان لصام، وصلى، وحج، وزكّى، لو أن مصلحته عند أهل الإيمان لتكلم مثلهم، ولأثنى على الدين مثلهم، ولا ندفع إلى بعض الأعمال الظاهرية مثلهم، هو يريد مصلحته، يمكن أن أقول لك: إن المؤمن رجل مبدأ، والمنافق رجل مصلحة، من أجل مصلحته يفعل ما يشاء يتلون، يكذب، يدعي، يبالغ، نعوذ بالله من النفاق، هم في الدرك الأسفل من النار.

المذيع:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي، أحمد]

كيف يدين الإنسان نفسه، ويحاسبها ؟ هل أنا منافق، أم أني صادق ؟ هل أنا رجل مصلحة، أم رجل مبدأ ؟ من جُبل على هذا الطبع الذميم كيف يمكن أن يتخلص منه ؟ ما هي الآيات، أو الإشارات ؟ وآية

المنافق ثلاث كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

(صحيح البخاري)

الأستاذ:

الحقيقة لا أقول: إن هناك إنسانًا جُبِل على النفاق مستحيل، لأن الله عز وجل قال:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم)

الفطرة كاملة، لكن الفطرة شيء، والصبغة شيء، الفطرة أن تحب العدل، والصبغة أن تكون عادلاً، فالمنافق يحب العدل، لكن لا يعدل، يحب الكرم، لكن لا يعطي، لأن كل إنسان خلقه الله عز وجل خلقه بفطرة عالية، هذا شأن المخلوقات جميعاً، والدليل: اللصوص إذا اقتسموا سرقتهم يدعون أنهم يقسمونها بالعدل، قضية الفطرة خطيرة جداً، ما من مخلوق إلا وقد جُبل على الكمال، لذلك: هذا الذي يعذب الناس حينما يظلمون، لماذا مرض الكآبة في الحياة ؟ لماذا هذا المرض من أوسع الأمراض النفسية انتشاراً ؟ حتى المنافق والكافر والمجرم فطروا فطرة عالية، فإذا خرج عن فطرته شعر بكآبة لا تحتمل، كأن الفطرة تعذب نفسها، والدليل القوي:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

من دون معلم، فالمنافق له فطرة عالية، لكنه خرج عن فطرته إلى النفاق، إذاً هو معذب دائماً، ويحتقر نفسه.

أستاذ زياد، نقطة دقيقة جداً: أنت قد تكون في موقع، كلّ مَن حولك دونك، هم يعظمونك، ولكن العبرة أن تكون محترماً في ذاتك، قد تنتزع إعجاب الناس، قد تعمل عملاً يحترمك الناس فيه، ولكن:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

فالإنسان حينما يسقط أمام نفسه فهذا من أشد أنواع السقوط.

المذيع:

لابد للمنافق من أن يعلم أنه ينافق، وهنا عليه أن يعلم أن هذا مظهر من مظاهر ضعف الإيمان، وهو النفاق، وعليه أن يتدرب أن يتخلص منه إن كان فعلاً من المؤمنين، وإن كان فعلاً على الصراط القويم.

الأستاذ:

الآن أنت وجّهتني إلى موضوع متعلق بالنفاق، النفاق نوعان: نفاق الكافرين، ونفاق ضعاف الإيمان،

نفاق الكافرين كافر مئة بالمئة، ولا يعبأ بالدين إطلاقاً، ولا يعتقد بالآخرة إطلاقاً، ولكن بحسب مصالحه القريبة نافق، هؤلاء الذين عناهم الله فقال:

(إنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّار)

(سورة النساء)

لكن قد تجد بعض المؤمنين ضعيفين في إيمانه، هو أمام شبهات لا يقوى على ردها، أو أمام شهوات لا يقوى على مقاومتها، فحينما تغلبه شهواته لا يصحّ أن يدعى مع المؤمنين، ولا أن يكون مع الكافرين، هو بين بين

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ)

هذا نوع من النفاق يرجى لبعضهم أن يؤمن، وقد وجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم منافقون، ثم صلح إيمانهم، وأصبحوا منيبين، فنحن أمام زمرتين من النفاق: زمرة هي في الأصل كافرة، لكنها اتخذت النفاق غطاءً لها، وزمرة هي في الأصل مؤمنة، ولكن ضاعت في شبهات ما استطاعت لها حلاً، وغلبتها شهوات ما استطاعت لها مقاومة، فهؤلاء يرجى لهم أن يكونوا مؤمنين.

المذيع:

يرجى شفاء إيمانهم، بإذن الله تعالى، وهذا ما سوف نتحدث عنه في حوارات مقبلة عندما نتناول علاجات ضعف الإيمان.

الأستاذ:

أنا أقول دائماً: التعميم من العمى، أنا لا أعمم، أنا أمام منافقين، أحدهم نفاق كفر، والآخر نفاق ضعف، فأرجو للثاني أن يعود مؤمناً، وأن يحسن إيمانه، ولا أرى أن الأول يفكر أن يصلح نفسه، فهي قضية اختيار.

المذيع:

تحدثنا عن نفاق اعتقادي، هل هناك نفاق آخر غير اعتقادي، لنَقُلْ عملي ؟

الأستاذ:

هناك نفاق اعتقادي، أن تقول ما لا تعتقد، وهناك نفاق عملي، أن تفعل ما لا تقول، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

لأن الكلام سهل، بالمناسبة: الأنبياء العظام والنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم له مهمتان كبيرتان جداً، مهمة دون مهمة، له مهمة التبليغ، ومهمة القدوة، التبليغ سهل، أيّ إنسان ذكي ذاكرته قوية يحفظ

نصوصاً كثيرة، مطّلع ثقافته عميقة، بإمكانه أن ينطق بكلام منمق لطيف واضح، لكن أن تكون قدوة للآخرين فهذا يحتاج إلى جهاد، إلى بذل جهد كبير، فأعظم مهمات الأنبياء أنهم قدوة، فالمنافق باعتقادي قال ما لا يعتقد، لكن المنافق الثاني فعل ما لا يقول: القول سهل.

مثلاً: حينما قال المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي و أسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها و يسهر الخلق جراها و يختصم

الخيل و الليل و البيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

كان مسافراً بين البصرة وحلب، خرج عليه أعداء له فولى هارباً، قال له غلامه: ألم تقل:

الخيل و الليل و البيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال: قتلتني قتلك الله.

من السهل جداً أن تقول: أنا شجاع، أنا كريم، القضية سهلة، كلام في كلام، لكن البطولة كل البطولة أن تكون كريماً حقيقة، وأن تكون شجاعاً، فالكلام سهل، الآن ما من إنسان يلقي بكلام أمام جمع من الناس إلا ويدعي أنه أخلاقي، ورجل مبدأ، حتى المنافق والكافر والمنحرف والمجرم، الإنسان منطقي، لا يتكلم.

فرعون قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29))

(سورة غافر)

هو الذي قتل بني إسرائيل، واستحيا نسائهم، وقال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص)

حينما تكلم ماذا قال ؟ قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ(29))

أي إنسان يتكلم يتمنطق يدعي أنه رجل مبدأ أنه، حيادي، أنه رجل منصف، هذا كلام لا قيمة له إطلاقاً، ولا يصمد، لذلك: النفاق باعتقادي أعطى نتيجة خطيرة جداً في الحياة، أن الناس كفروا بالكلمة، الأنبياء جاؤوا بكلمة، وهم العظام، وهم من قمم الخير في العالم، ما جاؤوا بالصواريخ ولا بالكمبيوتر ولا بأجهزة عالية الدقة، ولا بحواسب، جاؤوا بكلمة صادقة، فقلبوا وجه الحياة، لأن هناك ممارسات ثقافية كثيرة جداً، الناس عامة كفروا بالكلمة، والآن الكلمة لا يمكن أن تعود لها مصداقيتها إلا إذا دُعمت

بعمل عظيم، حتى ترجع الكلمة مصداقيتها، فالنفاق السلوكي جعل الناس يكفرون بالكلمة أصلاً.
أنا كنت أقول قبل حين: نحن نحتاج إلى دعوة صامتة، دعوة لا تبنى على الكلام، دعوة أساسها الصدق والأمانة، والعفة والوفاء بالوعد، والحقيقة موقف أخلاقي يعدل أن تعبد الله سنوات طويلة، الذي يشد الناس إلى الدين مسلم يتحرك، كيف أنهم قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي، أنا أريد مسلما يتحرك أمامي، أرى وفاءه، وتواضعه، وبذله، وكرمه، وصدقه، وأمانته، وعفته، أساساً لماذا آمن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم به ؟ قالوا:

((... كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ.....))

(مسند الإمام أحمدعن أم سلمة)

هذا الذي شدهم إلى الدين، القدوة، فالأنبياء لهم مهمة القدوة، وهي أخطر مهمة، ولهم مهمة التبليغ، ويحسنها أي خطيب مسجد، أما القدوة فهي التي تشد الناس إليك، أنك صادق فيما تقول، أنك مطبق لما تقول، أنك عند الأمر والنهي.

يقول بعض العارفين بالله: ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وجه الماء، الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فالنفاق الاعتقادي محاولة إرضاء من حولك، النفاق العملي ضعفك عن أن تكون في مستوى كامل، من نتائج ضعف الإيمان أن هذا الإنسان من غلبته شهواته، فلم يفعل ما يقول.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 17 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان8 - فرح المنافق بمن أصابته مصيبة من المؤمنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

ننطلق من قوله تعالى:

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

(سورة آل عمران)

هذه أولى صفات المنافقين، الحقيقة هو في خندق الكفر، لا في خندق الإيمان، ما من أمّ على وجه الأرض تتمنى فضيحة ابنتها، فإن شهدت بفتاة فضحت معنى ذلك أنها ليست ابنتها، هي غريبة عنها، فالمنافق حينما يسمع بخبر سيئ عن المؤمنين يرتاح، يفرح، ثم إن الله عز وجل وفي آية من آيات الله العظيمة يبين أن الله يحاسب على شعور داخلي فقط.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة النور)

ما فعل شيئاً، ما تكلم، ما قال كلمة، فقط ارتاح.

(أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

(صحيح مسلم)

المؤمن يحب المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، ويكره الكفار، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، بل إن بعض العلماء الكبار كابن القيم رحمه الله تعالى يقول: **" إذا أساء إليك مؤمن تظل على محبته، ولو أنك تألمت من إساءته، وإذا أحسن إليك كافر تبقى على كرهه، ولو أحسن إليك ".**

المذيع:

إنك تحبه لله، وفي الله، وتكرهه لله، وفي الله.

الأستاذ:

فقضية الانتماء، أنا أنتمي إلى من ؟ إن كان انتمائي للمؤمنين فيجب أن أفرح لخير أصابهم، وأن أتألم لسوء نزل بهم، إن كنت مؤمناً حقاً، أما إذا كان الإنسان وفق خندق آخر ينبغي أن يتحرك وفق خندقه الجديد.

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

في القرآن والسنة شيء لطيف، أن في هذه النصوص مقاييس لنا، أنا حينما أفرح لمصيبة نزلت بمؤمن فهذا مؤشر خطير على أنني لست مؤمناً، وحينما أتألم ألماً شديداً لمصيبة نزلت بكافر، أو بمنحرف معنى ذلك أنني في خندقي، وأنني موالٍ له، والعبرة الولاء والبراء، وهذا من أعظم ميزات المؤمن، يوالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً، ويتبرأ من الكفار، ولو كانوا أقوياء، والذي يعين الإنسان يوم القيامة على دخول الجنة أنه كان مع المؤمنين، يقول الله عز وجل مخاطباً زوجات النبي صلى الله عليه وسلم:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

قد يعجب الإنسان، امرأتان، حفصة وعائشة، أيعقل أن يكون الرد:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4))

بعض علماء التفسير رأى في الآية ملمحاً لطيفاً، هو أنك حينما تريد أن تناهض الدين، أو أهل الحق، أو من كان على صواب يجب أن تعلم من هو الطرف الآخر، وأنا أقول: أشقى الناس قاطبة من كان في خندق مُعادٍ للدين، مبدئياً من كان في خندق معاد للدين يفرح بكل مصيبة ألمت بالمؤمنين، ويشمت بهم، أما المؤمن فيتألم لألمهم، هو واحد منهم، ومن علامات إيمانك أن اهتماماتك تزيد على مصالحك، تهتم بأمر المسلمين، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))

[الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود]

المؤمن الصادق يحمل هموم المسلمين، يتحرك لتخفيف آلامهم، يتحرك لحل مشكلاتهم، لا أنسى أن ابن عباس رضي الله عنه كان في معتكفه، فرأى رجلاً كئيباً كآبة شديدة، قال: مالي أراك مكتئباً ؟ قال: ديون ركبتني، لا أطيق سدادها، فقال له ابن عباس لمن ؟ قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك ؟ قال: إذا شئت ".

الآن ابن عباس كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من معتكفه، قال له أحدهم: يا ابن عباس، أنسيت أنك معتكف ؟ قال: لا والله، ولكن سمعت صاحب هذا القبر، وأشار إلى النبي عليه الصلاة والسلام والعهد به قريب، قال: والله هكذا قال النبي: لأن أمشي في مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا !

هذا يعني أن عظمة الإيمان أن المؤمن لكل المؤمنين، وأن كل المؤمنين للمؤمن، لست وحدك في الحياة، أنت بين مؤمنين محبين صادقين.

المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم.

العبرة أن يكون انتماؤك واضحا، تنتمي لمن ؟ إن كنت تنتمي للمؤمنين فينبغي أن تفرح لخير أصابهم، وأن تتألم أشد الألم لمصيبة ألمّت بهم، أما إن عكس فهذا الإنسان قطعاً ليس مع المؤمنين، مع أعدائهم.

المذيع:

وهناك من لا يكون فرحاً، ولا حزيناً يقول: ما لي لشأنهم ؟ أنا بخير، وكفى، فما حكمه ؟ هل هذا المظهر من ضعف الإيمان ؟

الأستاذ:

طبعاً لا ينتمي، الانتماء مهم جداً، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ليس له اهتمامات إطلاقاً، هذا انتمائه ذاتي، والمشكلة أن هذا الشيء واقع في معظم بلاد المسلمين، الاهتمام شخصي.

مرة سيدنا عمر بن الخطاب أدخل شاعراً السجن، لأنه قال بيتاً في رجل يعدّ في تاريخ الأدب أهجى بيت قاله شاعر، ماذا قال له ؟ قال له:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

المطعَم المكسو، هذا البيت شعار كل إنسان الآن ! بيت دخل من أجله الشاعر السجن، لأنه عدّ وقتها أهجى بيتٍ قاله شاعر !

أليس هذا حال معظم المسلمين ؟ وهذا سبب تأخرهم، أنه مادام بيته فخمًا، ودخله كبيرًا وأولاده أصحاء لا يعبأ بأحد، انتماء فردي، لن تكون مؤمناً إلا إذا كان انتماؤك جماعياً.

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر)

أنت ترى ما يصيب المسلمين من تشرد من ألم، وجوع، وعري، ولا تتحرك إطلاقاً، ولا حركة، ولا كلمة، ولا بذل، ولا عطاء، هذه مشكلة، ولا تقاطع عدوان من أوقع هذا في إخوانك المؤمنين، مثلاً، الحد الأدنى أن تقاطع بضاعة صنعها أناس يظلمون الناس، فأما من دون أية حركة، هذا يؤكد أنه لا إيمان عنده، من علامات الإيمان أن تتألم لمصاب المسلمين، وأن تفرح لخير نزل بهم.

المذيع:

هناك من يذهب إلى المسجد، وهي الخلية الاجتماعية، إذا صح التعبير، التي تحرك المجتمع الإسلامي، يذهب إلى المسجد يصلي، يؤدي الصلاة جماعة، ويخرج، لا يسأل عن حال المسجد، ولا عن حال المسلمين الذين يسكنون هذا الحي، ولا يسأل عن حال إخوانه، لا يفتقد أحداً منهم، لا يقرأ ماذا هناك من توجيه، أو إعلان على لائحة الإعلانات في المسجد، إذا صح التعبير، هذا يعتبر إيمانه إيماناً سلبياً.

الأستاذ:

ضعف إيمان شديد، لأنه اكتفى بالبحث عن مصالحه، ولن ينتمي لمجموع المؤمنين.

الحقيقة لمجرد أن تستقر حقيقة الإيمان في قلب عبد مؤمن لابد من أن تعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، إيمان سكوني لا يوجد، إيمان سكوني، انتماء فردي غير مقبول، لا يمكن إلا أن تكون مع الجماعة. عَن ابْنِ عُمَرَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

(سنن الترمذي)

الإنسان الذي يحب أن يعيش وحده هذا شيء مخالف لقواعد الدين، أمرنا أن نصلي في المسجد، فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفاً، أمرنا أن نتعاون، أمرنا أن نتزاور، أمرنا أن نتبادل العطاء، من هنا ورد في بعض الأحاديث القدسية،

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاورِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أحمد]

النقطة الدقيقة: أنه لابد من أن تعيش مع الجماعة من أجل أن تعمل صالحاً، لأن العمل الصالح هو العملة الرائجة في الجنة، فإن كنت وحدك فلا معاونة، ولا دعوة إلى الله، ولا بذل، ولا تضحية، ولا تحمل الأذى، بل إن في حديثٍ صحيح عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))

(سنن الترمذي)

ورد في بعض الآثار: اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

أنا لست مكلفاً أن أتحرى مكاناً إن فعلت فيه خيراً أن يأتيني الرد، لا، مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله، العبرة أن المسلم اجتماعي.

أحدنا يتقن شيئاً واحداً، ويحتاج إلى مليون حاجة، فلابد من أن يكون مع المجتمع، هل نحسن ؟ هل نسيء ؟ هل نصدق، أو نكذب؟ هل نخلص، أم نخون ؟ هل نعطي، أم نمنع ؟ هذا شيء لا يمكن أن يكون إلا في جماعة، فلذلك من ملامح الآية الدقيقة أنك إذا كنت في معركة، والمواجهة بالسلاح الأبيض، ودخل وقت الصلاة ينبغي أن نصلي جماعة، وفي القرآن آية تبين صلاة الجماعة في الحرب، فإذا كنت في الحرب فينبغي أن تكون في الصلاة مع إخوانك، فلأن تكون في السلم مع إخوانك من باب أولى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 18 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان9 -عدم اتباع سنة النبي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان حينما يعرف الله، وحينما يعرف الأمر يتفانى في طاعة الله عز وجل، فيطبق المحكمات، ويتباعد عن المتشابهات، ويأخذ بالحسنات، ويفعل الفضائل، ويحب أن يأخذ كل ما في الدين بحذافيره، لأنه يحب الله عز وجل، والدليل: أن الله عز وجل يقول في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[البخاري]

أنتم تفضلتم، وقلتم: هناك من يريد أن يأخذ بالمحكمات وبالقرآن فقط من أحكام، ولا يعبأ بما في السنة.

المذيع:

يقول: هل هذا الشيء محرم في القرآن ؟ هل يوجد نص واضح يحرمه ؟

الأستاذ:

هناك اتجاه خطير جداً هو فصل القرآن عن السنة، عَنْ مَالِك أنَّهم بَلَغَهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

(موطأ مالك)

أنا أؤكد للإخوة المستمعين أنه لمجرد أن تكتفي بالقرآن فأنت تخالف القرآن، لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر)

النبي مشرّع، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة النساء)

حينما كرر فعل أطيعوا، معنى ذلك أنه ينبغي أن تطيع رسول الله استقلالاً، ولا تربط بين كلامه والقرآن.

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء)

أولوا الأمر كما قال الإمام الشافعي هم العلماء والأمراء، أمرهم ينبغي أن يربط بأمر رسول الله e، فإن وافقه فعلى العين والرأس، وإن خالفه فلا نعبأ به، إلا أن الله حينما قال:

(أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ)

ينبغي أن تطيعه استقلالاً، لا أن تطيعه تبعاً للقرآن، النبي صلى الله عليه وسلم معصوم.

المذيع:

ولأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلى وحي يوحى، فما ينطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو وحي يوحيه إليه الله سبحانه وتعالى.

الأستاذ:

أحد أصحابه سأله: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ أَشْيَاءَ أَفَأَكْتُبُهَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، قَالَ: نَعَمْ، فَإِنِّي لَا أَقُولُ فِيهِمَا إِلَّا حَقًّا))

(أحمد)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ فَأَمْسَكْتُ عَنْ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ))

(أبو داود)

الله عز وجل عصمه، من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، لذلك أمرنا أن نأخذ ما أعطانا، وأن ننتهي عما عنه نهانا، طاعة رسول الله جزء من طاعة الله.

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب)

أخ زياد، القضية دقيقة جداً: حينما نرفض السنة وفيها تفاصيل مئات الموضوعات الفقهية، فلا وجود لها إن حذفت السّنة، أمرك الله أن تصلي، كيف تصلي ؟ كم وقتًا ؟ أمرك أن تزكي، كيف تزكي ؟ كأن

في القرآن الكليات، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين، ويفصل هذه الكليات، فكأن سنته تبيان وتفصيل لما جاء في القرآن.

نحن الآن حينما يصدر قانوناً بخمسين مادة، ثم يصدر مرسوم تشريعي تنظيمي لهذا القانون بألف مادة، فهل يعقل أن نفصل المادة عن المرسوم التنظيمي ؟ مستحيل، إن ألغينا المرسوم التنظيمي لهذا القانون التشريعي ألغينا القانون التشريعي.

العلماء حينما فسروا قوله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

رأوا أن من لوازم حفظ الله لهذا الكتاب حفظ سنته، لذلك الله عز وجل هيأ رجال كبار محققين، لهم باع طويل، نخلوا هذه الأحاديث، وأخذوا ما صح منها، وتركوا ما لم يصح، فأي محاولة لفصل الكتاب عن السنة محاولة تخريبية في الدين، وهذا الذي يقول: أنا أتبع ما في القرآن، ولا أتبع ما في السنة هو يناقض القرآن، ويدع القرآن، لأن القرآن أمرنا أن نأخذ ما آتانا النبي صلى الله عليه وسلم.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

أنا أرى أن الذين يناصبون الدين العداء بذكائهم أدركوا أنه مستحيل أن يهاجموه كلياً، بدؤوا بحرب جزئية، أرادوا أن يطعنوا في السنة، ويقولون: إنها أحاديث كثيرة، بعضها موضوع، وبعضها ضعيف، هذا الشيء كفانا إياه علماء الحديث، نحن معنا الصحاح، معنا كتب صحيحة واضحة جداً، لنأخذ ما صح من السنة، ونكتفي بها، أما السنة فلها موقع خطير جداً في الدين، بل إن كتاب الله وسنة رسوله هم المصدران الأساسيان لهذا الدين، وما القياس ولا الإجماع إلا تبع لهما، فالإنسان حينما يضعف إيمانه يريد تحريماً قرآنياً صريحاً، حتى إن الذين يقولون: إن الله لم يحرم الخمر، والعياذ بالله، قال تعالى:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة)

الاجتناب أشد من التحريم، لو أن الخمر محرمة فقط، جاز لك أن تبيعها، وتشتريها، وتتاجر بها، وأن تعصر عنبها، وتحملها من مكان إلى مكان، لكن حينما قال:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

لعن الله شاربها، وشاريها، وبائعها، وحاملها، والمحمولة إليه، والمعلن عنها، فنحن حينما نفهم كلام الله فهماً أصولياً لابد من أن نفهمه في ضوء سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

المذيع:

أن تجتنبها أن تبتعد عنها، فكيف بك، وأنت تدخلها إلى بيتك.

الأستاذ:

أن تدع بينك وبينها هامش أمان، بربك لو أن وزير كهرباء كتب على لوحة قرب تيار التوتر العالي " ممنوع مس التيار "، أيهما أصح ؟ ممنوع مس التيار، أم ممنوع الاقتراب منه ؟ التيار له ساحة، من دخل هذه الساحة جذب إليه، واحترق فوراً، فلابد من أن تقول: ممنوع الاقتراب من التيار، لا ممنوع مس التيار، وهناك معاصٍ خطيرة جداً لها قوة جذب، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء)

(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

(سورة الأنعام)

لابد من أن تدع هامش أمان بينك وبين المعصية.

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة)

هذا الهامش إذا ألغي، وقعنا في الحرام عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَدْرِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمِنَ الْحَلَالِ هِيَ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ، فَمَنْ تَرَكَهَا اسْتِبْرَاءً لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ فَقَدْ سَلِمَ، وَمَنْ وَاقَعَ شَيْئًا مِنْهَا يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَ الْحَرَامَ، كَمَا أَنَّهُ مَنْ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ))

(سنن الترمذي)

فالورع كما قيل: " ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط "، أي من الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئًا.

هناك مقولة تعجبني: من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، عمله أصبح نفاقيًا، فهذا الذي يقول: أنا آخذ بالقرآن فقط، ولا يعبأ بالسنة، إنه حينما ردّ السنة ردّ معها القرآن، وحينما ردّ السنة ردّ معها ثلثي الدين، كل الأحكام الفقهية مأخوذة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المذيع:

وعندما يسأل عن شدة حرمة هذا الأمر، هل أن حرمته قطعية شديدة ؟ أم أن هناك بعض العلماء، أو بعض المفسرين يخففون من حرمتها، لتكون مكروهاً، لتكون غير واجبة ؟

الأستاذ:

حينما تعرف الآمر والأمر تتفانى في طاعة الآمر، حينما تعرف الأمر، ولا تعرف الآمر تتفنن في التفلت من هذا الأمر، وجهد المسلمين اليوم البحث عن فتوى ضعيفة، ورأي شاذ ضعيف، وعن كتاب يبيح لك كل شيء، فهناك رغبة جانحة في التلفت من الدين، أولها ترك السنة، ثانيها البحث عن التحريم القطعي، المؤمن يتقصى الحلال بحذافيره، ويبتعد عن الحرام بحذافيره، أما حينما تجرؤ على أن تفعل شيئاً مختلفاً فيه، فأنت مما استبان أجرأ، حينما تدع ما اختلف فيه، فأنت مما استبان أبعد، وحينما تقترف ما اختلف فيه فأنت مما استبان أشد وقوعاً فيه، فالعبرة الورع، والورع يرقى بالإنسان إلى أعلى عليين، وكما قلت قبل قليل: ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، هذا كله يحتاج إلى معرفة بالله، ويحتاج إلى إيمان قوي، فمن لوازم ضعف الإيمان التفلت من منهج الله، بدعوى أن هناك خلافًا حول هذا الموضوع، أو أن هناك رأيًا شاذًا أباح هذا الشيء، تجد المؤمن ضعيف الإيمان جهده أن يبحث عن منفذٍ.

هناك من يقول: الربا ليست محرمة، وحينما قيل هذا الكلام أصبح هناك انحراف خطير جداً عند الناس.

المذيع:

الفائدة المصرفية ليست محرمة، وهي نوع من أنواع الربا.

الأستاذ:

أنا أقول حينما تظن أن الدين من المرونة حيث يمكن أن يتقولب مع كل شيء فهذا كلام غير صحيح، ما هو ثمن الجنة ؟ طاعة الله عز وجل، كنت قد ذكرت سابقاً أن في الإنسان طبعاً، ومعه تكليف، وأن هذا الطبع يتناقض مع التكليف، من هذا التناقض يكون ثمن الجنة، لا تحقق كل المصالح، من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه.

كنت أضرب هذا المثل: مطعم يبيع الخمر، تاب صاحبه، كان من الممكن ـ والله قدير على كل شيء ـ أن يرفع له دخله أضعافاً مضاعفة بعد ترك بيع الخمر، ولكن الذي يحدث عكس ذلك، حينما يلغي بيع الخمر يقلّ دخله، ليجعل هذا الإنسان يدفع ثمن قراره العظيم، ولا يرقى إلا إذا دفع ثمن قراره، لو أن الإنسان ترك معصية، فجاءته الدنيا وهي راغمة، عندئذ الإنسان يتاجر بالدين، أما حينما تأخذ قراراً خطيراً، وتدفع ثمنه ترقى إلى أعلى عليين، وحينما يظن المرء أنه لابد من توافق الدين مع المصالح المادية فهذا وهم خطير لا وجود له، لابد من أن تضحي، لابد من أن تدفع الثمن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(سورة التوبة)

ربما تفتقرون، الآن بالمنطق السياحي لو منعنا دخول الأجانب إلى بلدنا، الفنادق أصبحت شاغرة، والمطاعم أصبحت فارغة، الدخل يقلّ.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

لابد من أن يأتي الرد متأخراً، ليأخذ الإنسان أبعاده، لابد من أن تأخذ أبعادك، لابد من أن تدفع ثمن قرارك.

المذيع:

هل ستصبر ؟

الأستاذ:

لابد من أن تصبر، الإمام الشافعي سئل: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى، أنت حينما تمكن نفسك على أن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لا يفرح لرخاء، لأنه مؤقت، ولا يحزن لشقاء أيضاً لأنه مؤقت: قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ويعطي، ويبتلي ليجزي، هذا الفهم العميق للدين يجعلك تصبر، وتتحمل المتاعب في سبيل رضوان الله عز وجل وجنته التي عرضها السماوات والأرض، أما حينما أبحث عن مصالحي، يكون هذا من ضعف الإيمان.

المذيع:

هنا البعض يفهمها فهماً سطحياً هذه المعادلة ـ فضيلة الدكتور الشيخ محمد راتب النابلسي ـ يفهمها دعوة إلى الركود، وعدم السعي، وعدم عمارة الأرض، والسعي إلى تحسين وضعه الأفضل والأفضل، كيف توضحون الفكرة ؟

الأستاذ:

نحن معنا دين توقيفي، فيه قرآن وسنة، فكليات الدين عقائده، وعباداته، ومواقفه لا تطور فيها، ولا تبديل، ولا حذف، لكن الدنيا ينبغي أن نطور حياتنا، أن نستخرج ثروات بلادنا، أن نصنع خاماتنا، أن نحسن مستوى معيشتنا، أن نبني المساكن، أن نقيم المصانع، هذا كله نحن أُمِرنا به، لكن المسلمون طوروا في دينهم، وقلدوا في دنياهم، الأمر ينبغي أن يكون معكوساً، الأمر يجب أن يتبعوا في دينهم، وأن يطوروا في دنياهم، هم قلدوا في دنياهم، وطوروا في دينهم، تفلتوا من منهج الله عز وجل، فنحن مع عمارة الأرض، ومع تأمين حاجت الناس، والدليل قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة)

علماء التفسير قالوا: البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة، لا يتناقض ما في الدين مع السعي لتحسين مستوى المعيشة لتأمين الطعام والشراب، لتوفير الأعمال.

سيدنا عمر سأل أحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذا جاء من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكره، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

سيدنا عمر كان في بلدة وجد معظم من بيده أنشطته الاقتصادية بيد غير المسلمين، وبخهم توبيخاً شديداً، وقال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ أدرك هذا الخليفة الراشد أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، ديننا دين قوة، دين صناعة دين زراعة، دين تجارة، دين تحسين مستوى المعيشة، لكن يفهمونه فهماً مغلوطاً

المذيع:

وعندما تقول لهم: إن هذه الدنيا هي ابتلاء والتواء، وهي ليست استواء.

الأستاذ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

(مسند الإمام أحمد)

ما قولك بهذا التوجيه ؟

((النبي رأى رجلاً لا يعمل، سأله: من يطعمك ؟ قال: أخي قال: أخوك أعبد منك))

(ورد في الأثر)

((كان صلى الله عليه وسلم واقفاً بين أصحابه فأمسك بيد سيدنا بن مسعود، وكانت خشنة من شدة العمل رفعها وقال: إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

(ورد في الأثر)

ديننا عملي، ديننا بذل جهد، لكن بذل جهد مدروس ومنظم، أنا في أمور الدين لا أطور، إنما أنا متبع، لأنه وحي من الله، وحي مطلق في كماله، أما في شأن الدنيا أطور، وأجدد، وأنوع، وأزيد من دخلي، لعل هناك توجيهًا رائعً جداً: إن الله يلوم على العجز، أن تستسلم لواقع، أن تقول: ماذا أفعل ؟ هذا قدري، هذا مصابي، وهذا ابتلاء، نحن انتهينا، من قال لك ذلك ؟ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ

((أَنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْن، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالْكَيْس، فَإذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود]

اسعَ، تدبر الأمر،

((فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

مثلاً: طالب ما درس فرسب، هل يقول: هذا ما كتبه الله علي ؟ هذا كلام فيه خفة واستهتار بالآخرين، أما حينما يمرض مرضاً شديداً قبل الفحص، ويحول هذا المرض بينه وبين الفحص، ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام صحيح

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

أنا أعمل، وأحل مشكلتي، ومشكلة أولادي، وأرفع مستوى دخلي، وأطور في صناعتي، وأطور في زراعتي، وأستخدم ما استجد من بحوث علمية، أفعل كل شيء لتكون حياة المسلمين حياة راقية، أما الدين فهو توقيفي، العقائد منتهية، العبادات منتهية، لا أزيد، ولا أحذف، ولا أطور، ولا أجدد.

مرة ذكرت لكم فيما أذكر أن التجديد في الدين له مفهوم دقيق جداً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 19 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان10 - البحث عن الفتاوى الضعيفة - التجديد في الدين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين وحي من الله، فأي شيء صدر عن الله لا يمكن أن يقبل تعديلاً، ولا تطويراً، و تجديداً، ولا حذفاً، ولا إضافة، نحن بني البشر لو أن قاضياً حكم ألف حكم، بضعة أحكام منها جائرة نسميه قاضيًا عادلا، لأن كل القيم الأخلاقية في حق البشر نسبية، أما حينما تصف الله عز وجل بأنه مطلق فلا يمكن أن يكون في أي فعل من أفعاله، أو أي تشريع من تشريعاته نقص، وإلا لما كان من عند الله.

المذيع:

ولله المثل الأعلى.

الأستاذ:

يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

بالمناسبة الكمال نوعي، والإتمام عددي، أقول لك: أعطيتك عشرة بالتمام والكمال، أي عشر ليرات ذهبية تامة في العدد، كاملة في النوع، فإذا قلت: شيء تام أي عدداً، شيء كامل نوعاً، فكأن الله يقول: إن مجموع القضايا التي طرحها الدين تام، وإن طريقة المعالجة كاملة، لذلك الدين لأنه وحي من عند الله فلا يقبل حذفاً، ولا لإضافة، ولا تجديداً، ولا تطويراً، ولا تحسيناً، إلى آخره، هذا المعنى دقيق جداً، وينبغي أن نهتم به.

إذاً: ما التجديد في الدين ؟ كما تفضلتم، هناك من يقول: التجديد في الدين، لا يمكن أن نفهم التجديد في الدين إلا بالتعريف التالي: أن يزيل عنه ما علق به مما ليس منه، هذا هو التجديد، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا))

[أبو داود]

ينفي عنه البدع.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ:

((مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ...))

(سنن النسائي)

حينما تحاول أن تذهب نحو الأسوأ، نحو الأقل، نحو الخلل، نحو المحاباة، نحو الزيادة، نحو المتاجرة بالدين تضلّ، أما حينما تكتفي بما صح من الدين، وبما صح من سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحينما تكتفي بالقرآن والسنة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

[مالك في الموطأ]

فنحن أمام بيت أحجاره أصبحت سوداء، تراكم عليها الغبار والدخان، فتجديد هذا البيت أن نزيل عنه هذه الطبقة التي ليست منه، أما أن نلغي غرفة، أو نضيف غرفة، أن نلحق حديقة، نقيم تعديلاً جذرياً، هذا ليس من التجديد في شيء، طبعاً هذا ينقلنا إلى موضوع البدعة.

ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...))

(صحيح مسلم)

العلماء حيال هذا الحديث فرقوا بين البدعة في الدين والبدعة في اللغة، البدعة في الدين مرفوضة، لأنها اجتراء على الله، ولأنها حذف مما ينبغي ألاّ يحذف، أو أنها إضافة مما ينبغي ألاّ يضاف، لكن البدعة في اللغة تعني شيئاً آخر، لو أنني كبرت الصوت في المسجد هذا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن يوجد تطورات حديثة، وإمكانات لتكبير الصوت يستمع المصلون إلى الخطيب، وهم مرتاحون، يمكن أن ندفئ المسجد، ونأتي بماء بارد صيفا، وماء ساخن في الشتاء، أن نفرشه بالفرش الذي يريح المصليين، فأيّ تطوير في الدنيا مقبول بل مندوب إليه.

المذيع:

وهذا هو منطلق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَنَسٍ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ، قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ ؟ قَالُوا: قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ))

(صحيح مسلم)

الأستاذ:

أنا حينما أؤسس صندوقا للزواج، هذا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

حينما أؤسس صندوقًا لمعالجة المرضى، حينما أقيم تعاونًا بين التجار، ومشاريع بناء لشبابنا، حينما أبني معامل لتأمين فرص العمل لأبنائنا، هذا كله تجديد في الحياة الدنيا، أما أن آتي إلى أحكام العبادات فألغي بعضها، أو أضيف إلى بعضها بعضاً آخر، أو أن أطور في العقيدة، أو أن أبحث عن تفلت أغطيه بالشرع، فهذا ليس من التجديد في شيء، وقلت لكم من قبل: إن الإنسان حينما يضعف إيمانه يبحث عن شيء، أن يوافق الدين حريته في الحركة في الحياة، يوافق شهواته.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان)

الدين كيان صلب واضح المعالم، نحن نقلناه من الصلابة إلى اللزوجة، ومن اللزوجة إلى السيولة، ومن السيولة إلى الغازية، فصار الدين كالغاز، يصلح لكل شيء، ممكن أن نقيم على كل الشهوات، ونحن في إطار الدين، في المفهوم الحديث للتجديد، يمكن أن نفعل كل المنكرات، ونحن في الدين بالمفهوم الجديد، هذا شيء منكر، هذا شيء يعبر عن إنسان أراد هواه، أراد شهوته، وهو حريص على أن يبقى منتمياً إلى هذا الدين، فجمع وسمح بالغناء وبالرقص وبالتمثيل، وبذهاب المرأة في السفر من دون محرم، وبأكل أموال الناس بالباطل، وبالفائدة المصرفية، هذا الذي يكون، تجد فتوى تبيح معصية، فأنا دائماً حينما أسأل عن حرمة هذا الشيء أقول له: تبحث عن فتوى أم عن التقوى، إن بحثت عن الفتوى فهناك فتوى لكل معصية، أم إن بحثت عن التقوى فالتقوى أن تدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس، لا يمكن أن يكون التجديد في أصل العقيدة، ولا في أصل العبادة، ولا في الأحكام الكلية، لكن حينما قال الله عز وجل:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

(سورة النساء)

مع من ؟ أولاً: من هم أولوا الأمر ؟ الإمام الشافعي يقول: العلماء والأمراء، العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر، فإن تنازعتم مع من ؟ مع علمائكم، أو أمرائكم في أمر تشريعي، قال تعالى:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

خالق الكون يأمرنا إذا تنازعنا مع علمائنا، أو أمرائنا في قضية تشريعية أن نرد هذا إلى الله في كتابه، وإلى ورسوله في سنته، أيعقل أن نحال إلى الكتاب والسنة، ولا نجد فيهما ما يشفي غليلنا ؟ أيعقل أن يحيلك الله إلى شيء لا تجد فيه بغيتك ؟ مستحيل.

مثلاً: يقال لك اليوم: لابد من التأمين، والناس بحاجة ماسة إلى التأمين، والتأمين محرم، فماذا نفعل ؟ الإسلام حرم التأمين التجاري، وسمح بالتأمين التعاوني، نحن ألف تاجر، نشكل قطاعاً في التجارة معينًا، لو أن كل واحد منا وضع في صندوق نصيباً من المال تجمع في هذا الصندوق مال كثير، أي

واحد من المشتركين في هذا الصندوق ألمت به كارثة يأخذ حاجته من هذا الصندوق، لو فرضنا أنه لم يقع في العام شيء، هذا المال لنا ثمره، نقتسمه، نعيده مرة ثانية للعام القادم، هذا لنا، فقضية التأمين لها وجه شرعي، أن تجعله تعاونياً، لا أن تجعله تجارياً، لا أن تأخذ من إنسان مبلغاً كبيراً دون أن ينتفع منه، نحن في الأصل عندنا المعاوضة، فهذا الذي وضع عشرة آلاف تأمينًا لسيارته، ولم يحدث معه شيء، دفع، ولم يأخذ، وهذا الذي أخذ ثمن مركبته أخذ، ولم يعطِ، أما لو كان هناك صندوق تعاوني، فهذا الذي أخذ يكون قد أخذ من مجمل هذا الصندوق، فالباقي لنا جميعاً.

ما من معضلة تشريعية إلا ولها في الدين أصل واضح، ماذا يمنع أن أنشئ مصرفاً، وأثمر فيه الأموال عن طريق المشاريع الصناعية والتجارية والزراعية ؟ وأجمع الأرباح، ثم أوزعها على أصحاب رؤوس الأموال بالتمام والكمال، ماذا يمنع ؟ ماذا يمنع أن يكون هناك بنك للإقراض الحسن ؟ كل معضلة تشريعية لها في الإسلام حل رائع، ولكن العلة في المسلمين، لا في الإسلام.

المذيع:

لكن فضيلة الشيخ، معظم المصارف يقولون: إنهم يأخذون الأموال من الناس، ويستثمرونها في مشاريع صناعية وتجارية، ويقسمون الربح على المساهمين، وهذا ما هو حاصل في المعاملات المصرفية عامة، البعض يتخذ من هذا سبيلاً إلى تحليل الفائدة المصرفية، يقول: أفيد، وأستفيد، وأستثمر هذا المال، وهنا يأتي مظهر من مظاهر ضعف الإيمان، بأن يتخير الفرص لكي يتفلت.

بالنسبة لهذا الأمر ولمثيلاته من الأمور التي تطرأ في حياتنا المعاصرة ترك هذا كله هو مظهر من مظاهر قوة الإيمان، أن يعيش هكذا مستقلاً عن بقية المجتمع.

الأستاذ:

قوة الإيمان تعني أن أحدث في مجتمعي صيغاً إسلامية، أو أن أجعل المؤسسات البنكية مسلمة، أي تسير على النظام المصرفي الإسلامي.

المذيع:

ولكن للأسف فضيلة الشيخ، لنكن واقعيين، هناك من يقول لك: أبيعك هذا بالتقسيط المريح، ومن دون فوائد، ولكن إذا اشتريته، ودفعت ثمنه نقداً تحصل عليه لنَقُل بخمسمئة ليرة، وإن اشتريته مقسطاً تحصل عليه بسبعمئة ليرة، هو احتسب الفائدة، ولكن يقول: هذا مقابل تأجيل الدفع، هناك نوع من الاحتيال على الشرع، وهذا يسيء إلى الإسلام.

الأستاذ:

أنا أرى أن هذا الكتاب بعته بمئة ليرة، الكتاب الثاني بعته بمئة وخمسين، لأنه مجلد، الكتاب الثالث بمئة وخمسة وسبعين، لأن اسمك مكتوب عليه بماء الذهب مثلاً، وأن هذا الكتاب ثمنه مئتا ليرة، لأنه

من ورق غالٍ، فكل هذه الزيادات في الكتاب، أما حينما أبيعك إياها نيئة بثلاثمئة ليرة، هذه الزيادة ليست في الكتاب، بل مقابل الزمن، وحينما تخصص للزمن ثمناً، وقعت في شبهة الربا، النبي عليه الصلاة والسلام كان أول مضارب في الإسلام، الحاجة إى استثمار المال حاجة أساسية جداً في أي مجتمع.

هناك امرأة لا تحسن التجارة، هناك شاب صغير يدرس ومعه مال، وليس من أبيه، هناك موظف متقاعد، وهناك حالات لا تعد ولا تحصى أصحابه بحاجة ماسة إلى استثمار أموالهم، ما هي القناة النظيفة لاستثمار الأموال في الإسلام ؟ أن تدفع المال لشاب خبير متألق، هو بحاجة ماسة إلى مالك، وأنت بحاجة ماسة إلى خبرته، فاجتمعت الخبرة والمال، فنتج عنها ربح وفير، يأخذ الشاب نصف الربح مقابل جهده، وأنا آخذ نصف الربح مقابل مالي، هذا الاستثمار مشروع، ومندوب إليه، بل إن الشارع الحكيم حينما فرض على المال المجمد زكاة فالزكاة تستهلكه في أربعين عاماً، وكأن الزكاة باعث لك على استثمار مالك، وإلا تأكله الزكاة، وقد ورد هذا المعنى من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ مَالِك أَنّهم بَلَغَهم أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ قَالَ:

((اتّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لَا تَأْكُلُهَا الزّكَاةُ))

(موطأ مالك)

فنحن مطالبون أن نستثمر مالنا في مشاريع تحقق النفع للناس جميعاً، أنت حينما تؤسس مشروعًا، تطرح كميات كبيرة من الفواكه في السوق، هذا من شأنه أن يخفف الأسعار، وأن يعم الخير على الناس جميعاً، ما من مشكلة اقتصادية إلا ولها في الإسلام تشريع رائع، قلت لك قبل قليل: ماذا يمنع أن نجمع الأموال في مؤسسة ؟ وأن نستثمر هذه الأموال في مشاريع نافعة للأمة ؟ وأن نأخذ الأرباح، وأن نوزعها بالتمام والكمال على المستثمرين، أما حينما أعطي فائدة محددة ثابتة، وأنا أربح الأموال الطائلة، فهذا ليس مشروعاً في الدين، البنك الإسلامي يمكن أن يعطيك فائدة بالمئة خمسة، أو اثني عشر أو عشرين، حسب الربح، أما الفائدة الثابتة فهي محرمة، لأنه ليس فيها إنصاف للطرفين، إنسان يأكل ما شاء له أن يأكل، وإنسان يأخذ القليل نتيجة استثمار هذا المال.

المذيع:

أود أن أتوقف، وأوضح نقطة، الزكاة تأكل رأس المال، وإنما الزكاة تنمي المال، وهي مدعاة لتنمية المال، وتزكية النفس وتطهيرها، وإنما قصدتم بالأموال المكنوزة.

الأستاذ:

أنت معك مليون دولار فرضاً، أيعقل أن تتركها في مكان، وقد قفلت عليها، هذا أصبح كنزًا، حرمت منها الأمة، هذا المبلغ لو أنك استثمرته في زراعة، أو صناعة، أو تجارة، أو مشروع خيري، أو

مشروع استثماري، عاد نفعه على الأمة، فكأن الشارع عاقب كانز المال بأن الزكاة وحدها تستهلكه، فإما أن تستثمره، وإما أن تستهلكه الزكاة، هذا المعنى لا علاقة له بقول: حصنوا أموالكم بالزكاة، من طرح ماله للاستثمار: وزكى عنه يزداد هذا المال، لأن الله عز وجل يقول:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة)

فأنت حينما تستثمر مالك في مشاريع إنمائية نافعة للمسلمين، إنك تفعل ما أراده الله عز وجل، الإسلام لا يعجز عن حل أية مشكلة، ولكن أكرر وأقول: حينما يزهد المسلمون في دينهم، ويتطلعون إلى ما عند الغرب من نماذج استثمارية، ولا يعبئون بحرمة ما حرم الله عليهم عندئذ يدفعون الثمن باهظاً.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 20 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان11 - احتقار المعروف - احتقار الحسنات.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة أن هذا احتقار المعروف، أو احتقار الحسنات ولو أنها صغيرة تنطلق من ضعف الإيمان، بمعنى أن الإنسان حينما يعيش لذاته، ولا يعيش للناس لا تعنيه إلا ذاته، ولا يحرص إلا على سلامته وسعادته بمنظوره هو، أما حينما يقوى إيمانه، ويعرف سر وجوده وغاية وجوده، ينطلق من ذاته إلى خدمة الآخرين، هناك مجلة اسمها المختار مترجمة عن ريدر دايجست، مرة أتصفح مقالتها، فإذا في نهاية بعض المقالات فراغ ملئ حكمة، هذه الحكمة: إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، لمجرد أن تنطلق من ذاتك إلى خدمة الخلق فأنت أسعد الخلق، فالمؤمن ينطوي على قلب رقيق، لا يحتمل أن يرى مصاباً أو مشكلة أو مصيبة في مخلوق، فالقصة أن أخطر قلب في جسم إنسان القلب القاسي، قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الزمر)

المؤمن لأنه اتصل بالله أصبح قلبه رحيماً، والآية الدقيقة:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

هذا اللين، وهذه الرقة، وهذا الحب بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلال اتصالك بنا، فكل إنسان يتصل بالله يمتلئ قلبه رحمة، أرحم الخلق بالخلق على الإطلاق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك قال الله له:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

جاءت منكرة تنكير تقليل، وفي آية ثانية:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف)

كأن جزءاً يسيراً من رحمة الله يترحم بها الخلائق، أنا لا أنسى نصّا قرأته لا أعلق أهمية على مرجعيته، ولكن له دلالة كبيرة جداً، يروى أن سيدنا موسى مشى في الطريق، فرأى امرأة تخبز على التنور، وولدها إلى جنبها، فكلما وضعت في التنور رغيفاً أمسكت ابنها، وضمته، وقبلته، وفرحت به،

فتعجب سيدنا موسى من هذه الرحمة، قال: يا رب ما هذه الرحمة ؟ فقال الله: هذه رحمتي أودعتها في قلب هذه الأم وسأنزعها، فلما نزعت الرحمة من قلبها وبكى ألقته في التور.

حينما ينطوي قلبك على رحمة هي من الله قطعاً، ومن علامة ضعيف الإيمان قلبه القاسي، لا يرحم، ومن لا يَرحم لا يُرحم، وإن أردتم رحمتي فارحموا خلقي، الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

كأن هذه الآية تبين قانون الالتفاف والارتباط، اتصال بالله، تستقر معه رحمة، تنعكس ديناً، يلتف الناس حولك، قلب مقطوع عن الله، امتلأ غلظة وقسوة، ومنعكس هذه القسوة فظاظة وغلظة ينفض الناس من حلوك، معنى الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

فالمؤمن لأن في قلبه رحمة قد يرى قشرة فاكهة يمكن أن تسبب حادثاً لطفل صغير أو لشيخ كبير يأخذها، من أماط الأذى عن الطريق فهي له صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق، هذا أحد فروع الإيمان، أن تنزع غصناً يعترض طريق المسلمين، هذا عمل صالح، أن تلقى أخاك بوجه طلق، ألاّ تخيفه، ألاّ ترعبه، ابتسمت له، رحبت به، هذا عمل صالح، وهناك أحاديث كثيرة، عَنْ أَبِي جُرَيٍّ الْهُجَيْمِيِّ قَالَ:

((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَعَلِّمْنَا شَيْئًا يَنْفَعُنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ، قَالَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ...))

(مسند الإمام أحمد)

هذا نوع من الأعمال الصالحة، في أحاديث كثيرة جداً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ، لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ))

(صحيح مسلم)

من أماط الأذى عن الطريق كتب له حسنة، ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة، من رفع حجراً من الطريق كتبت له حسنة، ومن كانت له حسنة دخل الجنة.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

(صحيح مسلم)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يذبح شاة أمام أختها، فغضب، قال له:

((هلا حجبتها عن أختها ؟ أتريد أن تميتها مرتين ؟))

(ورد في الأثر)

العبرة أن قلبك إذا كان موصولاً امتلأ رحمة، هذه الرحمة تنعكس وجه باسمٍ مشرق أمام إخوانك، أمام من هم دونك لئلا تخيفهم، ينبغي أن تطمئنهم، وأن تدخل على قلبهم السرور، قد تجد أذىً في الطريق فتميطه عن طريق المسلمين، قد تجد غصناً يعتلي طريقهم، هذا كله من الأعمال الصالحة، والمؤمن بعد أن يعرف الله لا همّ له إلا أن يتقرب إليه بعمل صالح، والأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))

(سنن أبي داوود)

فتوقير الكبير، والرحمة للصغير، وأن تميط الأذى عن الطريق، وأن ترشد الرجل الضال، وأن تفرغ من دلوك في دلو المستسقي، هذه كلها أعمال صالحة.

المذيع:

مهما قلّ شأنها، ومن هنا مظهر ضعف الإيمان من مظاهره احتقار المعروف والحسنات الصغيرة، يقول: مالي وهذا فإنه قد لا يجزئني شيئاً.

الأستاذ:

عندي دليل قوي جداً، مقام النبوة مقام لا يرقى إليه مقام، ومقام سيد الأنبياء مقام واحد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمّ صَلُّوا عَلَيّ، فَإِنّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنّةِ لَا تَنْبَغِي إِلّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلّتْ لَهُ الشّفَاعَةُ))

(صحيح مسلم)

ومع علو مقامه في معركة بدر وجد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن الرواحل قليلة، وأن أصحابه يزيدون على ثلاثمئة، فماذا يفعل ؟ أعطى توجيهه القيادي، فعَنْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أبي طالبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد في المسند]

مع مقام نبوته ورسالته ودعوته، وأنه النبي الأول صلى الله عليه وسلم طمع في أجر أن يمشي، وصاحبه يركب الناقة.

وحينما كانوا في سفر وأرادوا أن يعالجوا شاة ليأكلوها، قال أحد أصحابه:

((عليّ ذبحها، وقال الآخر: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله، نكفيك هذا، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

(ورد في الأثر)

حسبك من هذا أن أحد العرب دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فما عرفه، قال:

((أين محمد ؟ فقال: بعضهم هذا الوضيء، وفي رواية ثانية: قال: أنا))

(ورد في الأثر)

كلما امتلأ قلبك رحمة انطلقت إلى العمل الصالح، بل يكاد العمل الصالح يستحوذ عليك، لأنه ثمن الجنة.

وهناك دليل قوي جداً، أن الإنسان حينما يأتيه الموت لا يندم إلا على شيء واحد، ما سمعنا في حياتنا أن إنسانًا على فراش الموت قال: أنظرني حتى أنهي بناء البيت، أو أنهي تخليص البضاعة، أو أنهي بيعها.

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

فحينما يأتي الموت لا تندم إلا على شيء واحد، وهو العمل الصالح، والإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ))

(صحيح مسلم)

فحينما تميط الأذى عن الطريق هذا إيمان، يوجد إله كبير خلق هذه الخلائق، وهذا الحجر يؤذي المارة، فينبغي أن أزيحه.

أنا أذكر مثلا في الطرق في السفر تقف شاحنة، وتضع جحرًا كبيرًا وراء إحدى عجلاتها، ثم تمشي، وتضع الحجر في الطريق، هذا الحجر قد يسبب كارثة لو بقي في مكانه.

ألاحظ شخصاً منطلقا بسرعة هائلة، يقف، ويزيح الحجر عن الطريق لئلا يأتي إنسان في الليل فيرتطم به، فيسبب حادثًا وبيلا، فكلما اشتدت رحمتك انطلقت إلى عمل صالح.

المذيع:

البعض يقصر العمل الصالح ـ فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي ـ على العبادات، هل هذا صحيح، أم أنه يشمل كل معروف كما تذكرون ؟

الأستاذ:

العبادة شعائرية، وهناك عبادة تعاملية، العبادة الشعائرية لا قيمة لها إطلاقاً إن لم تدعم بعبادة تعاملية، أنا حينما أصلي، وليس لي عمل صالح، ما الذي أقدمه بين يدي ؟ أما حينما أمضي النهار في خدمة الخلق، ويأتي وقت الصلاة فأقف بين يدي الله، وجهي أبيض، معي هدية إلى الله، خدمة عباده، لذلك العبادة الشعائرية تشبه ساعة الامتحان، والعبادة التعاملية تشبه العام الدراسي بأكمله، فلو أن الطالب لم يدرس إطلاقاً، ولم يحضر الدروس، ولم يكتب الوظائف، ماذا يفعل بهذه الساعات الثلاث ؟ لا قيمة لها، من هنا قال الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

ربط الله عز وجل بين الصلاة وترك الفحشاء والمنكر، فالعبادات ما لم ترقَ بنا، ما لم تهذبنا فلا تقبل عند الله عز وجل، والشيء الفاصل في هذا كرد لطيف على سؤالكم حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

هذا النموذج الذي يعبد الله عباداته الشعائرية، ولا يعمل صالحاً ينطبق عليه هذا الحديث، بل إنني أعتقد أن الفقر الحقيقي هو فقر العمل الصالح، وأن الغنى الحقيقي هو غنى العمل الصالح، من هو الغني عند الله ؟ الذي أجرى الله على يديه الخير، لأن فاعل الخير خير من الخير، وفاعل الشر شر من الشر، هؤلاء الذين ألقوا القنابل في العراق، وفي أوروبة، وفي البلقان، وفيها نفايات نووية، وأصابت الآلاف بسرطان الدم، وهذا حديث اليوم بين الناس، هؤلاء بعد مئة عام انتهت مشكلتهم، ماتوا، لو أنهم لم يصابوا بهذا المرض سيموتون، لكن ما الذي يبقى ؟ هذا الذي أمر بإلقاء هذا السلاح بالذات فاعل الشر شر من الشر، لأنه سوف يشقى بفعله إلى أبد الآبدين، وفاعل الخير كإنسان أسس مسجدًا أو معهدًا شرعيًا أو ميتمًا، عند قيام الساعة سينتهي هذا العمل، ما الذي يبقى ؟ يبقى خيرية هذا الإنسان، يسعد

بقراره إلى أبد الآبدين، أمراض الجسم مهما تفاقمت تنتهي عند الموت، ولكن أمراض القلب تشقي صاحبها إلى أبد الآبدين، فأنت حينما تسبب مشكلة، نوبل رصد كل أمواله كجائزة لمن يقدم بحثًا في السلام، عرف أنه لما اخترع البارود سيموت آلاف مؤلفة لا ذنب لهم، القنابل، الألغام، كل الأسلحة الحديثة أسلحة فتاكة، تصيب المقاتل وغير المقاتل، هذا أدركه نوبل حينما اخترع البارود، ولعل هذا الذي وقفه لخدمة السلام يجزئه أو لا يجزئه، الله أعلم، لكن:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس)

وكل آثار الأعمال في صحيفة هذا الذي فعل ذلك، كم من الموبقات سببها بعض الاختراعات ؟ موبقات لا تنتهي.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، ما هو جزاء إتيان المعروف مهما كان صغيراً ؟ ومهما كن محتقراً بنظر ضعيف الإيمان ؟

الأستاذ:

الحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن هذا السؤال، فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...))

(صحيح البخاري)

قيمة العمل لا بحجمه، ولا بشكله، ولا ببيئته، ولا بفاعله، قيمة العمل بالنية التي تكمن وراءه، فأنا قد أنطوي على نية عالية جداً، الأعمال الصغيرة تصبح أكبر الأعمال، وأنا حينما أعمل عملاً كبيراً، لكن نيتي حب الظهور، وقد قالوا: حب الظهور يقسم الظهور، يصبح عملي لا قيمة له.

وفي بعض الأحاديث القدسية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ

نِعَمَهُ، فعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

(صحيح البخاري)

يروى أن امرأة على جانب من الجمال أحبها رجل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فاشترطت عليه أن يهاجر إلى المدينة، فهاجر من أجلها، سماه الصحابة مهاجر أم قيس، وهاجر لا ابتغاء مرضاة الله، بل طلباً للزواج من هذه المرأة، فالعمل قيمته لا بحجمه، ولكن بالنية، فقد تنوي نية عالية جداً، وتعمل عملاً صغيراً، هذا العمل من أعظم الأعمال.

سيدنا موسى ماذا فعل ؟ سقى لامرأتين، ثم تولى إلى الظل، قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

لا تنظر إلى صغر العمل، انظر إلى النية التي وراءه، ورد في بعض الأحاديث: وأن تضع اللقمة في فم زوجتك لك صدقة، إنسان يحب أن يمتن العلاقة بينه وبين زوجته، فأطعمها قطعة لحم في أثناء تناول الطعام، كتبت له عند الله صدقة، لأنه أكرمه بها، ويقابل هذا أنه من استهان بصغيرة، وأصر عليها انقلبت إلى كبيرة، لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

فالمؤمن يبحث عن رضوان الله، قد يجده في إطعام فقير، في معاونة أرملة، في تمريض مريض، في إرشاد رجل ضال، في إماطة الأذى عن الطريق، في معالجة حيوان أحياناً، في أعمال صالحة كبيرة جداً، كبيرة في مضمونها، وصغيرة في نواياها، بعض الأعمال كبيرة جداً في نواياها، وصغيرة في مضمونها، العبرة كما قال النبي الكريم:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

المسلم له استراتيجية إن صح التعبير استراتيجيته أنه بعد أن عرف الله، وعرف منهجه، واستقام عليه ليس عنده شيء يعمله إلا أن يعمل صالحاً، لأنه ثمن مقامه العالي في الجنة، وكلما ازداد عمله ارتفع مقامك، سيدنا علي يقول: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله "**، لا يعد الغني غنياً في الدنيا ولا الفقير فقيراً، لكن بعض العرض على الله الغني عنده أعمال صالحة، والفقير ليس له عمل صالح، قد يعيش الإنسان لشهواته، هناك أغنياء تركوا بضع ألوف بالملايين، ومع ذلك لا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، لا

شأن لهم عند الله، وإنسان فقير له أعمال طيبة كثيرة جداً، لذلك النبي الكريم لما دخل بعض الصحابة الفقراء وقف لهم قال:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي قال: نعم يا أخي، خامل في الأرض، علَم في السماء، فابتغوا الرفعة عند الله))

(ورد في الأثر)

بصراحة الدنيا لها مقاييس، الغنى مقياس كبير، والوسامة، والجمال، والذكاء، والقوة، وكل مقاييس الدنيا، لكن مقاييس الآخرة مقياسان فقط، الإيمان والعمل الصالح، أن ترقى عند الله بإيمانك، قال تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة)

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام)

درجات الآخرة متعلقة بالإيمان والعمل، لكن درجات الدنيا واسعة جداً، لكن القرآن ما اعتمدها، لذلك ورد في بعض الأقوال أن الله يؤتي الصحة والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 21 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان12 - انفصام عرى الأخوة بين المؤمنين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

الملاحظ أننا في هذا الزمان هناك مظاهر صارخة للدين، مساجد ضخمة جداً، فخمة جداً، فيها ترف، كتب لا تعد ولا تحصى، تسجيلات، مؤتمرات، المظاهر بأعلى درجة، ومع ذلك فالمؤمنون ليسوا في هذا المستوى، ما الذي حمل بضعة آلاف من الصحابة على أن يفتحوا العالم، ونحن اليوم مليار ومئتا مليون ؟ المسلمون مليار ومئتا مليون، ومع ذلك ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، ما هذه المفارقة العجيبة ؟ من بعض المفارقات ليس هناك حب بين المؤمنين، لا يتعاونون، قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

[سورة الحشر: الآية 14]

الشهوات فرقتهم، بينما قوة الإيمان جمعت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما تجد الواحد كألف، تجد ألفاً كأف، بينما تجد إخوةً مؤمنين متعاونين، متضامنين، متكافلين، هم كالبنيان المرصوص، وقد تجد ملايين مملينة متفرقين، مبعثرين، مشرذمين.

النقطة الدقيقة جداً، أنه حينما نطيع الله جميعاً يحب بعضنا بعضاً، وحينما نعصيه يكره بعضنا بعضاً، ولعل في هذا الموضوع آية حاسمة، وهي قوله تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: الآية 14]

على إطلاقها، بالمناسبة الآية لها سياق، لها سباق وسياق ولحاق، أما إذا نزعت من سياقها فهي قانون مستقل، مثلاً في سورة الطلاق يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

[سورة الطلاق: الآية 2]

لو نزعت هذه الآية من سورة الطلاق فهي قانون، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلاف ماله.

هذه الآية بسياق السورة تعني الطلاق، فمن طلق طلاقاً سنياً يجعل الله له مخرجاً إلى إرجاعها، ومن طلق طلاقاً بدعياً ليس له مخرجاً لإرجاعها، هذا معناها السياقي، أما لو أن نزعتها من سياقها لأصبحت قانوناً ينطبق على كل شيء.

طبعاً هذه الآية لها سياق آخر، قال تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: الآية 14]

الآن أي مجتمع مسلم عاصٍ، أسرة مجموعة أشخاص، أهل حيّ، أرباب صنعة، زملاء في عمل، أي مجموعة، سمّها ما شئت، لو أن بعضهم تفلت من منهج الله لكانت بينهما العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وهذا شيء واقع، تجد شرخاً في الأسرة الواحدة، في القبيلة، في العشيرة، في البلد المسلم الواحد، في المجتمع المسلم، في أي مكان، شروخ، وعداوات، وبغضاء، وأحقاد، ومكر، وكيد، هذه الحياة والله لا يعاش فيها، أما لو استقمنا جميعاً على أمر الله، لو أطعنا الله جميعاً لكان بيننا من الود ما لا يوصف، قال الله عز وجل:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً (96))

[سورة مريم: الآية 96]

في بعض التفاسير: فيما بينهم، المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم.

أنا أريد أن أبحث عن قانون الحب، حينما تطيع الله أنت، وأطيعه أنا، أحبك وتحبني.

من هنا قوة الإيمان تأتي عندما يحب المرء لا يحبه إلا لله.

الحديث الشريف الصحيح عَن ابْنِ عُمَرَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَقُولُ:

((... وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادّ اثْنَانِ فَفُرّقَ بَيْنَهُمَا إِلّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا...))

كلام النبي صلى الله عليه وسلم قوانين.

مرة ثانية، حينما أطيع الله، وتطيعه فأنت أحبك وتحبني، وحينما أقصر مع الله أبغضك، وتبغضني، هذه قاعدة عامة، فحينما تجد في مجتمعنا عداوات وبغضاء، وأحقاد ومؤامرات، وشروخ، هذا مجتمع عاص لله، قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتّى)

[سورة الحشر: الآية 14]

وحينما تجد إيماناً واستقامةً، وإنابةً إلى الله تجد الحب الذي لا يوصف، بالمناسبة حينما أحبك، وتحبني فنحن لسنا اثنين، نحن مئة، لأن هذه الطاقات إذا اجتمعت لا تحسب حسابياً، تحسب بسلسلة هندسية، فهذه قاعدة مهمة جداً.

الآن أحد أسباب ضعف المسلمين، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية 46]

هكذا علّمنا ربنا عز وجل، فما الذي يعيق محبتنا ؟ معاصينا، فما من معصية إلا كانت شرخاً بين المؤمنين، لذلك قَالَ عُبَادَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أحمد]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ))

أخ زياد، نقطة دقيقة جداً، هي أن الله عز وجل قال للنبي الكريم:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ)

[سورة الأنفال: الآية 63]

هذا الود بين المؤمنين من خَلْق الله عز وجل، انظر إلى سيدنا الصديق وسيدنا عمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له الصديق: يا عمر، أبسط يدك لأبايعك، فقال عمر: أي أرض تقلّني، وأي سماء تظلني إذا كنت أميراً على أناس فيهم أبو بكر ؟ أي هذا فوق طاقتي، قال له: يا عمر، أنت أقوى مني، قال: يا أبا بكر، أنت أفضل مني، قال له عمر: قوتي إلى فضلك.

نتعاون، لذلك قال عمر: كنت خادم رسول الله، وسيفه المسلول، وجلواذه، فكان يغمدني، إذا شاء، وتوفي عني، وهو عني راض، وأنا به أسعد، ثم كنت خادم أبي بكر، وسيفه المسلول، وجلواذه، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني، وهو عني راض.

حينما صعد عمر المنبر نزل درجة، لماذا ؟ قال: ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر، أرأيت هذا الأدب ؟ لكن لحكمة أرادها سيدنا عثمان لم ينزل درجة، لماذا ؟ خليفة أموي سأل وزيره، لِمَ لمْ ينزل درجة سيدنا عثمان ؟ قال: والله لو فعلها لكنت في قعر بئر.

وهذه حكمة بالغة، ولكن أنا أريك أدب الصحابة مع بعضهم بعضاً، هذا لا تجده اليوم، عهد المسلمين منازعات، وخصومات، وعداوات، وأحقاد، وطعن، وتكفير، وتشريك، فما هذا المجتمع ؟ لأنه فقدت منه طاعة الله عز وجل، شعار المؤمن: أطيع الله، وتطيعه، فأحبك وتحبني، لأن ما الذي يحصل ؟ لأنك أنت حينما تكون مع الله فلك مواصفات، لك نقاط بارزة، هذه تتوافق عفواً مع نقاط أخيك، فيكون الود بينكم.

من أطرف ما سمعت أنه يوجد برنامج على الكومبيوتر في أمريكا للزواج، ما الذي يعيق نجاح الزواج؟ هو ضعف نقاط الاشتراك بين الرجل والمرأة، فتأتي فتاةٌ تسأل ألف سؤال، وتجيب عنه، وتغيب شهرًا، تسأل هذا الجهاز أي شاب القواسم بيني وبينه كبيرة جداً، قضية تقاطع، فكلما كانت

القواسم المشتركة بين الزوجين عاليةٌ جداً كان الوفاق بينهما، لأن كل مؤمن منيب مطيع مقبل على الله كل صفاته تنطبق على صفات أخيه، هذه القواسم المشتركة العالية جداً تسبب حباً، ووئاماً، ورحمةً، وودّاً، فالود بين المؤمنين من خلق الله تعالى، قال تعالى:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ)

[سورة الأنفال: الآية 63]

وفضلاً عن ذلك ما من شيء يضعف العلاقة بين المؤمنين إلا نهى النبي عنه الغيبة النميمة، السخرية، المحاكاة، التقليد، الاستهزاء الطعن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ...))

[البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد، مالك]

وما من شيء يمتن هذه العلاقة إلا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بردّ السلام، وتلبية الدعوة، ومعاونة الأخ المؤمن في حاجاته، في حمل أثقاله، في وفاء ديونه، لعل الحديث المشهور حديث الجار:

((إذا استعان بك أعنته، وإذا استنصرك نصرته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا مرض عدته، وإذا مات شيعته...))

حديث رائع جداً، شأن المؤمنين التعاون والمحبة بينهما، فحينما تجد العداوة والبغضاء تكون النتيجة الفرقة والشقاق.

وكيف الحال إذا كانت العداوة والبغضاء في مجال الأسرة الواحدة بين الإخوة والأخوات، يقطع بعضهم أرحام البعض ؟

لأن فيها مشارب متعددة، وفيها تغذيات متناقضة، وفيها ثقافات متباينة، وفيها حظوظ، وفيها شهوات، وفيها تفلت، طبيعي جداً أن تكون هذه الأسرة كتلة من العداء، أما لو أنهم كانوا يتلقون من مشكاة واحدة مشكاة الدين، لو أنهم جميعاً أطاعوا الله لكان بينهم من الود ما لا يوصف.

نحن بحاجة إلى الحب، ولكن نحن الذي فرقنا البغضاء والعداوة فيما بيننا، ونتمنى أن نقوي هذا الحب بطاعة الله، أن نقوي هذا الحب بالبذل والعطاء، الإنسان له طبيعة، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((يا داود، ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها))

يوجد لفتة لطيفة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، إنسان له جار يؤذيه كثيراً، قال له: اقطع لسانه، ما معنى هذا الحديث ؟ اقطع لسانه بالإحسان إليه، أنت حينما تحسن إلى جارك يثني عليك.

أنا لا أنسى أحد خلفاء بني أمية جاءته رسالة من مواطن عادي، قال له: أما بعد، فيا معاوية، إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام، مواطن يجترئ على مقام

الخلافة، فعنده ابنه يزيد، قال: يا يزيد، ماذا نفعل ؟ يزيد شاب، قال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده، وآخره عندك، يأتوك برأسه، فقال: غير هذا أفضل، فأمر كاتبه أن يكتب: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد نزلت له عن الأرض ومن فيها، يأتي الجواب من ابن الزبير عبد الله: أما بعد، فيا أمير المؤمنين، قال له من قبل معاوية، أما بعد: فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا الرأي، استدعى ابنه، وقال له: انظر ماذا جاء الجواب، تريد أن نرسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندنا يأتونا برأسه، قال له: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب.

حينما أؤمن بالله، وأطيعه ينبغي أن أحبك وتحبني، نحن في أمسّ الحاجة إلى الحب، يوجد تكنولوجيا، تقدم حضاري، مركبات، طائرات، اتصالات، ولكن لا يوجد حب، والحب روح الحياة الاجتماعية.

إذاً مظهر من مظاهر ضعف الإيمان انفصام عرى الأخوة بين المتآخيين، وربما أبرز هذا هو قطع الأرحام، وحذر منه القرآن الكريم، ونهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ما نهى عنه الباري عز وجل، وحذر منه رسوله صلى الله عليه وسلم، قطع الأرحام هذه معصية كبيرة، ويجب أن نقوي إيماننا بصلة الرحم، وأن نصل من قطعنا، وأن نعفو عمن ظلمنا، وأن نعطي من حرمنا، هذه أخلاق المؤمن، قال تعالى:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

[سورة فصلت: الآية 34]

إذاً أن نقابل السيئة بالحسنة، أود أن أتوقف عند مسألة قطع الأرحام وعلاقتها بضعف الإيمان، يقول: أزوره، ولا يزورني، لماذا أعود وأزوره؟

أنا أقول له: أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، هذه قاعدة.

ومن قوة إيمانه يقول: سأصل رحمي لله عز وجل.

أنت حينما تتعامل مع الأشخاص إن لم يزرك لا تزره، قاعدة، أما إذا تعاملت مع الله عز وجل تقدم الذي عليك، ولا تعبأ بالذي لك، لذلك لا تحاسبوا الناس بعدها على تقصيرهم، عليك أن تؤدي ما عليك اتجاههم، فأنا أسلم عليه، وأزوره، هو حر أن يقابل هذا بالإحسان، أو بالإساءة، شأنه مع الله، أنا شأني مع الله أن أقوم بواجبي اتجاهه، بالمناسبة أكثر من ثلاثين حديثًا صحيحًا تؤكد على صلة الرحم، والذي أفهمه من صلة الرحم هناك من يتوهم أنه لمجرد أن تزوره فقد وصلته، لا الأمر أعقد بكثير، ينبغي أن تزوره أولاً، وأن تتفقد أحواله الدينية والاجتماعية والمعيشية ثانياً، وأن تمد له يد العون ثالثاً، وأن تأخذ بيده إلى الله رابعاً، هذه صلة الرحم، أما إنسان غني يزور ابن عمه الفقير، كيف الصحة، كيف حال

أولادك، ثم ينصرف، ما هذه الصلة ؟ لابد من أن تقدم شيئاً من مالك، من علمك، من جاهك، لابد من أن يكون المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

فصلة الرحم تبدأ بالزيارة، وتنتهي بالهداية، أنت عم، ولك أولاد أخ أيتام، أنت حينما ترعاهم، وتأخذ بيدهم إلى الله، وترشدهم، وتعلمهم هذا معنى صلة الرحم، أما أزورهم في العيد، كيف حالك يا أولاد، هل أنتم مسرورون الصحة، جيدة، هذا كلام مرفوض، هذه صلة شكلية لا تقدم ولا تؤخر.

لذلك أنا أقول: زيارة الأقوياء والأغنياء من الدنيا، أما زيارة الفقراء والضعفاء من الآخرة، من عمل الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 22 - 30 : مظاهر ضعف الإيمان13 - الفزع والخوف عند نزول المصيبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أن الله عز وجل يقول:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلّينَ(22))

[سورة المعارج]

هناك استثناء في أصل التركيب البشري في أصل جبلة الإنسان شديد الفزع من المصيبة، لكن الله استثنى المصلين، النقطة الدقيقة هو أن السيارة لماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير، علة صناعتها السير، وفيها مكبح يتناقض مع أصل صناعتها، لكن المكبح مهم جداً لسلامتها، كذلك الإنسان خلق ليسعد، خلق ليرحمه الله، خلق ليكون معافى سليماً مطمئناً آمناً موفور الكرامة، أما إذا خرج عن منهج الله فلابد من مكبح يكبحه عن الاسترسال في هذا الطريق، فتأتي المصيبة للإنسان كالمكبح للسيارة حينما تنحرف عن الطريق، فإما إلى هاوية ما لها من قرار، وإما إلى سلامة.

فحينما نفهم المصائب فهماً بهذا المعنى، أنها مكبح في سيارة من أجل سلامتها، من أجل سعادة أصحابها نفلح في الدنيا، البطولة ليس أن تدرك نزول مصيبة، هذه يدركها أي إنسان، يقع زلزال في بلد، تقع حرب أهلية في، بلد يقع اجتياح في بلد، تقلّ الأمطار في بلد، تغلو الأسعار في بلد، هذه كلها مصائب يدركها جميع الناس من دون استثناء، لكن فضل المؤمن أنه يفهم حكمتها، فإذا كشف الله لك الحكمة بالمنع عاد المنع عين العطاء، وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة: الآية 216]

المصيبة لها خمسة تفسيرات، لغير المؤمن، للعاصي، للكافر مصيبة ردع أو قصم، لأن الله جل جلاله من سننه مع عباده أنه يبدأ بالهدى البياني، والإنسان عليه أن يستجيب، قال تعالى:

(يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية 24]

فإن لم يستجب دخل في مرحلة أخرى، يأتيه تأديب تربوي، عليه أن يتوب، فإذا لم يتب تأتيه مرحلة ثالثة، الإكرام الاستدراجي، فإن لم يشكر يقسم، فمصيبة الكفار المنحرفين والعتاة الظالمين قصم أو ردع.

الآن مصائب المؤمنين، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)

[سورة البقرة]

معنى هذا أن مصائب المؤمنين مصائب دفع أو مصائب رفع، الدفع كان في سرعة بطيئة، فجاءت مصيبة فحفزته إلى سرعة عالية، كان يصلي صلاةً شكلية، فجاءت مصيبة فصار يصلي صلاةً ممتلئة بالحرارة.

كانت هذه المصيبة دافعاً له إلى الله، إلى مستوى أرقى، ذكرته بأن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، هذا يعني أن هذه المصيبة دفعته من مستوىً ضعيف إلى مستوىً قوي، هذه المصيبة جعلته يتقن عباداته، جعلته يغض بصره عن محارم الله، جعلته يضبط لسانه، فحينما كان مقصراً، كان متفلتاً من بعض الأوامر التفصيلية، فجاءت هذه المصيبة، وحملته على الطاعة، إذاً هي مصيبة دفع، وحينما يكون للإنسان عند الله رتبة لم ينلها بعمله لابد أن ينالها بصبره، تأتيه مصيبة، وترفع مقامه إلى المستوى الذي يليق به، فمصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، بينما مصائب الأنبياء مصائب كشف، هناك كمال ينطوي عليه الأنبياء، لا يمكن أن يظهر إلا بمصيبة، كما كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف، مشى إليهم ثمانين كيلومتراً على قدميه، وردوه شر رد، فجاءه جبريل وملك الجبال بإمرته فلو شاء لأطبق عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

فالأنبياء مصيبتهم كشف، والمؤمنون مصيبتهم دفع ورفع، والكفار والعتاة والظالمون مصيبتهم ردع أو قصم.

هذه فلسفة المصائب، وفلسفة أخرى حينما طاف على أصحاب الجنة طائف على بستانهم، فأصبحت كالصريم، وفي اليوم التالي تنادوا مصبحين، ورأوا أن محاصيلهم قد بادت وأتلفت، قال تعالى:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

[سورة القلم]

قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

[سورة القلم: الآية 33]

ما من عذاب أسوقه لكم في الدنيا يا عبادي إلا من أجل أن تعودوا إلي، وأن تتوبوا، فهذه فلسفة المصيبة في الإسلام، قال تعالى:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

[سورة المعارج: الآية 19]

هذا ضعف لصالحه، لأنه لو لم يخف لم يتب إلى الله، لو أن إنساناً عمل فحصاً فوجد كتلة، يسارع إلى الصلاة، إلى قيام الليل، إلى الدعاء، لأن القضية خطيرة، لو أنه لا يخاف لا يتوب، خلق هلوعا من أجل أن يتوب.

أخ زياد ـ جزاك الله خيراً ـ أنت عندما ترى كومبيوتراً غالياً جداً، يوجد كومبيوترات صناعية غالية جداً، ثمنها بالملايين، فيها وصلة ضعيفة، اسمها بالتعبير الاصطلاحي فيوز، عبارة عن خط كهربائي ضعيف جداً، لو جاء التيار عالياً يسيخ هذا الخط، وينقطع التيار، هذا الفيوز يحفظ هذا الجهاز الغالي من العطب، وكذلك المصيبة تحول بين الإنسان وبين التدهور، وكأن يد الله الرحيمة تدخلت، فأنقذت هذا الإنسان، قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: الآية 20]

المصائب من النعم الباطنة، فكلما كنت أقرب إلى الله فهمت على الله حكمته، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ:

((بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمّ أَضْحَكُ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمِمّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ: عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ، فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلّا الْمُؤْمِنُ))

[مسلم، أحمد، الدارمي]

هو يرى حكمة الله، يرى أن عطاء الله يكون تارةً بالإمداد، وتارةً بالمنع، إذا كشف الله لك حكمة المنع عاد المنع عين العطاء، فالمؤمن يستسلم لله.

ومن مظاهر ضعف الإيمان هذا الخوف والجزع عند نزول المصيبة، لا يسلم أمره إلى الله، ولا يقول: أصبر، وأستغفر، وأتوب إلى الله.

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، عندما تقول الأم في لحظة حنون على ولدها: لو أنه لا قدر الله أصابه مكروه سوف ألحق به أو سوف.. من هذه العبارات التي يتداولها البعض، لو أصاب ولدي مكروه، أو توفي، هذه مصيبة كبيرة لا حياة لي بعده.

هذا من ضعف الإيمان، أما لو أنك آمنت أن الله سبحانه وتعالى حكيم عليم، وأنه قدر، فأحسن التقدير، وأن هذا قراره، وأن هذه حكمته، وأنه عليك أن تستسلم لله عز وجل لما كنا في هذا الوضع.

الحقيقة الانهيار المفاجئ لمصيبة نزلت دليل ضعف الإيمان الحقيقة والدليل قوله تعالى:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلّينَ(22))

[سورة المعارج]

لكن ما كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي. الله سبحانه وتعالى أعطانا المواصفات: وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره. يوجد نقطة دقيقة جداً، كلمة ليس كل مصل يصلي، ماذا قال الله عز وجل ؟

(إِلاّ الْمُصَلّين)

هو كل واحد يصلي يظن نفسه أنه ضمن هذه الدائرة ؟ لا نحن عندنا قاعدة في المنطق: إن الصفة، قيد أنا أقول لك الآن: إنسان، هذه تنطبق على ستة آلاف مليون، لو كتبت كلمة أخرى إنسان مسلم، تنطبق على مليار ومئتي مليون، لو كتبت إنساناً مسلماً عربياً تنطبق على خمسمئة مليون، لو كتبت إنساناً مسلماً عربياً مثقفاً تنطبق على مليون، لو كتبت إنساناً عربياً مسلماً مثقفاً طبيباً خمسمئة ألف، طبيب قلب صاروا مئة، مقيم في بيروت مثلاً خمسة، كلما أضفت صفة ضيقت الدائرة، هذه واضحة، الآن:

(إِنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلّينَ(22))

[سورة المعارج]

دائرة واسعة جداً، قال تعالى:

(الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ مَعْلُومٌ (24) لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُوم (25) وَالّذِينَ يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدّينِ (26) وَالّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنّ عَذَابَ رَبّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

(وَالّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ (35))

[سورة المعارج]

الدائرة تضيق جداً، هذا المصلي صلاة حقيقية هذا ناجٍ من الهم والحزن، والخوف والقلق، مستسلم لله تعالى، راض بقضائه وقدره.

هذه المرأة الصحابية الجليلة التي كان زوجها في الجهاد هذه وكان ابنها مريضاً مرضاً عضالاً هذه فلما جاء زوجها من الجهاد سألها عن الصغير، قالت له: هو في أهدأ حال، وهو قد مات، لم تخبره، استقبلته، وأطعمته، وتزينت له، وفي الصباح قالت له: لو أن جاراً لنا أعطانا وديعة، ثم استردها، أنغضب ؟ قال: لا، قالت: وهكذا فعل الله عز وجل.

الصحابة علمونا أن المصيبة يجب أن تستقبلها بالرضا بالسرور الصحابة لأن الله عز وجل كله خير، قال تعالى:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: الآية 26]

والله إنني قرأت في بعض الآثار أن بعض الصحابة كان يتزين إذا ألمت به مصيبة حتى يعبر على من حوله أنه راض عن الله.

كان أحد الرجال يطوف حول الكعبة قال: يا ربِ، هل أنت راض عني ؟ يمشي وراءه الإمام الشافعي قال له: يا هذا هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ قال: يا سبحان الله من أنت ؟ قال له أنا محمد بن إدريس قال له: كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: يا هذا إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، البطولة أن أرضى بالمصيبة وهذا وسام شرف كبير طبعاً هناك مصائب تأتي من تقصيري أنا حينما أطبق ما علي، وآخذ بالأسباب، وشاءت بعدها حكمة الله أن يكون شيء فأنا أقبله من الله عز وجل، أما إذا قصرت ولم تأتِ بالأسباب، فهذا من تقصيري وعجزي.

موضوع آخر، هذا جاء التقصير، النقطة الدقيقة أن الإنسان حينما يفزع بالمصيبة يصاب بما يسميه الأطباء الشدة النفسية، والشدة النفسية وراء الأمراض كلها، حتى إن الشدة النفسية تضعف جهاز المناعة، وجهاز المناعة مسؤول عن الأمراض السرطانية والجرثومية، فأنت حينما تثق بالله، ولك معنويات عالية جداً هذا يعين على شفائك من مرضك، وهذا يعين على مقاومة الأمراض ومقاومة الأحزان، عظمة المؤمن أنه راض عن الله، لا ينهار أمام مصيبة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

نعم، هنا قوة الإيمان تكمن في بعض جوانبها في هذا الأمر، أن يكون قابلاً، صابراً راضياً على قضاء الله وقدره، والإيمان من أركانه الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره من الله.

وكلمة (شره) كلمة نسبية، قد يأتي فقر طارئ، هذا الفقر حملني على طاعة الله، هو بالنسبة إلي مصيبة وشر، لكن حينما أرى نتائجه خير، حينما يغضب الأب من ابنه الذي يلهو بلعبة يحطمها من أجل أن يدرس، ويدرس، ويصبح في مقام عالٍ في المجتمع، يشكر والده على تحطيم هذه اللعبة، مع أن في سنه تحطيمها شر، يحبها كثيراً، فحطمها أبوه، لأنها ألهته عن الدراسة هكذا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 23 - 30 : أسباب ضعف الإيمان1 - الابتعاد عن الأجواء الإيمانية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب ضعف الإيمان كثيرة، ولكن يمكن أن تعود إلى زمر كبيرة، ولعل من أبرز أسباب ضعف الإيمان أن يبتعد المسلم عن الأجواء الإيمانية، نحن في آخر الزمان كما أنبأ النبي عليه الصلاة والسلام ففي الحديث الصحيح عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم، الترمذي، أحمد]

وفي بعض الآثار النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتاق إلى أحبابه، فقال أصحابه: أو لسنا أحبابك ؟ قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم ؟ قال: منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.

طبيعة الحياة المعاصرة أن كل شيء في الحياة يدعو إلى المعصية، النساء في الطريق كاسيات عاريات، مائلات مميلات، هناك رغبة شديدة في كسب المال دون النظر إلى طريقة كسبه، ولعل من أبرز مظاهر الفساد في المجتمع حرية في كسب الأموال من دون ضابط، وحرية في ممارسة الشهوات من دون ضابط.

لو حللت مجتمعاً فاسداً في أي مكان في العالم، وأردت أن ترجع فساده إلى أسباب كبرى فلا تجد إلا هذين السببين، حرية مطلقة من دون ضوابط، من دون مكابح، من دون منهج، من دون قواعد، من دون منظومة قيم في كسب الأموال، وحرية مثلها في ممارسة الشهوات.

لكن الله عز وجل حينما أودع فينا حب المال رسم لنا قناة نظيفة لكسبه المشروع، وحينما أودع فينا حب النساء أيضاً رسم لنا قناةً نظيفة لممارسة هذه الشهوة، وأكبر دليل على ذلك أن الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: الآية 50]

المعنى المخالف الذي يؤكده علماء الأصول أنه من اتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه، الإسلام هو الحياة، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، ولعل هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

[سورة هود: الآية 86]

كأن الشهوة فرجار يمكن أن يفتح مئةً وثمانين درجة، لكن منهج الله عز وجل سمح لك بثمانين درجة فقط، في أي موضوع هناك شيء مشروع، هناك شيء حلال، هناك شيء يرضي الله، هناك شيء مباح تفعله، ولا شيء عليك، تفعله ولا تشعر أنك ابتعدت عن الله، تفعله وبإمكانك أن تصلي صلاةً متقنة بعده، لأنه ضمن المنهج.

نحن بنظرة واقعية شئنا أم أبينا يتضح لنا أن هناك فساداً عريضاً في المجتمعات المعاصرة، ليس في بلادنا، بل في كل البلاد، ذلك أن الأرض كلها أصبحت كما كانوا يقولون: قرية صغيرةً، ثم قالوا: بيتاً، وأنا أقول الآن: غرفةً، فكل مظاهر الفساد في العالم عممت في كل بقاع العالم، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذه الحقائق المخيفة في آخر الزمان، فذكر أن المسلم عليه أن يفر بدينه إلى شاهق، أن يبتعد عن أماكن الفساد، أن يأوي إلى بيت الله، أن يأوي إلى بيته، أن يكون نقياً طاهراً بعيداً عن دنس الشهوات، ومن أجمل الأدعية التي أدعو بها أحياناً: اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، وأخرجنا من وحول الشهوات إلى جنات القربات.

فلعل من أكبر أسباب ضعف الإيمان أن المسلم يعيش في أجواء غير إيمانية تدعوه إلى المعصية، تغريه بالمعصية، تسهل له المعصية، تحثه على المعصية، ولعل النبي عليه الصلاة والسلام أصاب كبد الحقيقة حينما قال:

((كيف بكم إن لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر ! قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

هذا من أشد ما يعانيه المسلم، فالمسلم حينما يعيش في أجواء لا يرضي الله، النساء كاسيات عاريات، المال الحرام سهل جداً كسبه، المال الحلال يصعب كسبه في أجواء فاسدة، فكلما اندمج المسلم في هذه الأجواء الفاسدة انعكس على إيمانه، وضعف إيمانه، بل انطفأت شعلة الإيمان في قلبه، فلا بد للمؤمن أن يكون حكيم نفسه، لابد من أن يشحن نفسه من حين إلى آخر، لا تكفي خطبة الجمعة، لابد من أن يختار مسجداً ينتفع من خطيبه، ولابد من لقاء مع أخ مؤمن، لابد من مذاكرة كتابٍ علمي، لابد من تلاوة قرآن، لابد من تفهم حديث، لابد من أن يقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين، عن بطولاتهم، عن ورعهم، عن رحمتهم، عن شجاعتهم، أما أن يعيش بمثل ساقطة فهذه مشكلة كبيرة جداً.

في حياة المسلم دائماً شخصية يتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، وشخصية يكونها، قل لي من هي الشخصية التي تتمنى أن تكونها أقل لك من أنت، فإذا كانوا كما يسمونهم نجوم المجتمع فليسوا

على هدى، يقولون: المثل الأعلى لفلان ما، إذا كان نجوم المجتمع أناساً غير منضبطين بالشرع، متفلتين، بل لعل من وجوه بطولتهم أنهم متفلتون، بل لعل مظهرهم يغري، لكن حديثهم وقيمهم ومثلهم لا ترضي الله عز وجل، إذا كان هؤلاء هم القدوة فالمشكلة كبيرة جداً.

فالمسلم عندما يبتعد عن الأجواء الإيمانية، الأجواء الإيمانية يجدها في المسجد، الأجواء الإيمانية يجدها في إخوانه المؤمنين، الأجواء الإيمانية يجدها عند الصالحين، عند الرجال الذين تقربوا إلى الله، الذين عرفوا الله، الذين انضبطوا بمنهج الله، الذين اصطبغت نفوسهم بالكمال البشري، هؤلاء إن عاشرتهم اقتبست من فكرهم النير، ومن أخلاقهم العالية، ومن قلبهم المفعم بالرحمة والإحسان، والتواضع والعطف، وما إلى ذلك، فأي ابتعاد عن الأجواء الإيمانية يسبب ضعف الإيمان.

شيء في الإنسان دقيق جداً، أنا لا أقول لك: إن كل الناس هكذا، ولكن أقول: ألا ترون معي أن هناك استثناءات كثيرة ؟

لكن الخط العريض في المجتمع هكذا، الاستثناءات كثيرة جداً، لأنه يوجد في كل عصر أناس عرفوا ربهم، وابتعدوا عن هذه الأجواء، وزهدوا في هذه الدنيا التي تبعد عن الله عز وجل، ولكن هؤلاء قلة، في آخر المؤمنون الصادقون قلة، والدليل قوله تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة الأنعام: الآية 116]

الأكثرية مبتعدون عن الله فالبطولة أن تكون مع الأقلية الملتزمة، مع الأقلية المتفهمة، مع الأقلية العارفة ربها، مع الأقلية الطائعة له مع الأقلية المتألقة حينما تعتصم بربها.

النقطة الدقيقة هي أن الإنسان ابن بيئته، الخط العريض في المجتمع، الإنسان تحركه معطيات البيئة، لكن قلة من الناس بدل أن يتأثروا بالبيئة يؤثرون بها.

حدثنا أستاذ في الجامعة مرةً، وهو أستاذ علم النفس، قال: إذا صح أنّ الإنسان هو ابن بيئته، وابن محيطه، وابن وراثته، وابن أبويه، وابن ثقافته، وابن... وعدد أكثر المعطيات التي تؤثر في شخصيته، فإنه يصح أيضاً أنه ابن نفسه، المتفوقون لا يتأثرون، بل يؤثرون، وعظماء العالم ماذا فعلوا ؟ غيروا ملامح البيئة، الأنبياء ماذا فعلوا ؟ في ربع قرن تغير وجه الأرض بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

مثلا: امرأة مات أخوها في الجاهلية، الخنساء، ملأت الدنيا بكاءً، وكل شعرها شعر رثاء لأخيها صخر، بعد أن أسلمت، وعرفت ربها مات أربعة من أولادها، فما زادت على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن ألتقي بهم في مستقر رحمته.

الإسلام يبدل الإنسان تبديلاً جوهرياً، لأن لولا هذا التبديل لما كان هناك من قيمة لهذا الدين إطلاقاً، وأنا أقسم بالله لو أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فهموا الدين كما يفهمه بعض المسلمين اليوم والله ما خرج الدين من مكة، ولم ينتشر في الآفاق.

الذي أتمناه على الإخوة المستمعين أن هذا المسلم مادام مع كل شيء متفلت، مع كل شيء فيه معصية، مع كل بعد عن الله، يعيش هذه الأجواء، ويندمج معها، وينسجم معها، ويحبها، ويؤثرها على طاعة الله، نقول له: الطريق إلى الله غير سالك ما دمت هكذا، لن تكون الطريق سالكة إلا إذا ابتعدت عن هذه الأجواء الموبوءة، والتحقت بالمؤمنين الأطهار.

هنا نتحدث عن علاج هذا السبب من أسباب ضعف الإيمان، سنتطرق لهذا بالتفصيل بإذن الله، إذاً من أبرز أسباب ضعف الإيمان الابتعاد عن الأجواء الإيمانية، فما قولك بالذي هاجر إلى ديار غير ديار الإسلام، وهناك تمسك أكثر فأكثر بالإسلام ؟

هذه حالات لا أقول: إنها حالات طبيعية حالات نادرة، إلا أن هذه الحالات سببها كما يلي، وأنا أفسر هذا الأمر كابن عاق لأبيه، هو يسيء لأبيه، لكنه سمع من بعض خصوم والده كلاماً عن أبيه، لن يحتمله، أصبح عنده ردة فعل عنيفة جداً، فكان هذا الذي استفزه، وتحدى أباه سبباً في عودته إلى طاعة أبيه، قد تجد افتراءات على الإسلام لا تحتمل، وقد تجد تفلتاً لا يحتمل كل أنواع الفساد، قد يجدها الإنسان بشكل لا يحتمل في أماكن بعيدة عن بلاد المسلمين، عندئذٍ يشعر بقيمة دينه، وبضدها تتميز الأشياء، الإنسان أحياناً لا يعرف قيمة بلده، ولا قيمة دينه، ولا قيمة أمته، ولا قيمة العلاقات الاجتماعية التي تسود مجتمعه إلا إذا رأى مجتمعاً آخر.

مثلاً: نحن في بلادنا في الشرق الأب مقدس، والابن شيء ثمين جداً، فأكثر آباء المسلمين يحرصون على أبنائهم، وعلى تزويجهم، وعلى تأمين أعمال لهم، بينما تجد الأب هناك أنجب هذا الولد، وتركه، اذهب اشتغل، اعمل، كما تريد ذكراً كان أم أنثى، فهذا الترابط الأسري شيء ثمين جداً نراه في بلادنا، وهو بقية من دين، هذا الذي بقي من ديننا، بقي من رحمتنا، بقي من تعاطفنا، بقي من تواصلنا، شيء متميز جداً أمام المجتمعات التي ضاعت فيها كل القيم، لذلك هؤلاء الذين يأتون إلى بلادنا من بلاد بعيدة يشعرون أن بيننا روابط قوية جداً.

قال أحدهم: عندكم شيئان أساسيان، الحب فيما بينكم والروحانية في دينكم، وهذه نفتقدها نحن هناك، إن الذي أريد أن أؤكده أن البيئة لها تأثير كبير في الخط العريض من المجتمع، والاستثناء الذي بينته قبل قليل من أن بعض الأشخاص العظام يؤثرون ولا يتأثرون هذا استثناء، لكن لا ينسحب على كل أعداد المجتمع، لذلك لابد أن تحيط نفسك ببيئة إسلامية، ببيئة منضبطة، ببيئة تخاف الله، ببيئة تحب الله ورسوله، ببيئة الخلق شيء مقدس فيها.

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الرّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

[الترمذي]

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: الآية 13]

يوجد معنا نصوص كثيرة جداً قرآنية ونبوية تؤكد أنه لابد من أن يكون ولاؤك للمؤمنين، وأن تكون معهم، وأن تحبهم، وأن تعطف عليهم، وأن تكون في خدمتهم حتى تقتبس من إيمانهم، ومن ورعهم، ومن رحمتهم، ومن خلقهم الفاضل، هذه النقطة الأولى.

المذيع:

فضيلة الشيخ، هناك منحىً آخر في هذا الموضوع، إذا كنت من المؤمنين الملتزمين، وترى في نفسك قوة إيمان، وأحدهم من أصدقائك أو معارفك ضعيف الإيمان، ينغمس بعض الشيء في المعاصي، وهكذا، هل تنأى جانباً عنه، أم تظل على علاقة به، على رجاء أن تصلح حاله ؟

الأستاذ:

والله المؤمن القوي يلتقي مع جميع الناس، مع كل الأصدقاء، لأنه واثق من قوة إيمانه، واثق من بيانه المؤمن معه حجة، ألم يقل الله تعالى:

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)

[سورة الأنعام: الآية 83]

فالمؤمن معه حجة، أساساً يقال: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه، المؤمن معه حجة، معه بيان، معه منطق، أو معه تصور دقيق للكون وللحياة وللإنسان، حجم الإنسان، مكانة الإنسان، هدف الإنسان، رسالة الإنسان، لو أن مؤمناً اهتدى إلى الله عز وجل هداية كبيرة، وله أصدقاء في الجاهلية، أنا أرى أن من واجبه أن يكون معهم كي يأخذ بيدهم، إلا أنني أحذر هذا الأخ الكريم أنه إذا التقى بهم، وشدوه إلى مستنقعهم، أو شدوه إلى بيئتهم التي لا ترضي الله ينبغي أن يبتعد عنهم، أما إذا أمكنه أن يشدهم إلى ما هو عليه ينبغي أن يكون معهم لعبة شد الحبل هي الضابط في هذا الموضوع.

وقلت: مع الرجاء بأن يصلح حالهم، هو واثق من إيمانه، وقد تكون هناك تجارب عديدة، منها تجربة مررت بها أنا شخصياً، أحدهم كان صديقاً لي، وأبقيت على صداقته، شيئاً فشيئاً تغير حاله من دون حجة وإقناع، وهكذا، إما بالمعاملة، ورؤى الممارسة ورؤى القيم التي يتمسك بها المؤمن.

أنا سمعت كلمة من عالم أعجبتني جداً، يقول هذا العالم: البطولة لا أن تأتي بإنسان من جامع إلى جامع، بل من ملهى إلى جامع، بطولتك ليس أن تأتي به من جامع، أن تزهده بشيخه، وأن تضمه إلى

شيخك، هذه ليست بطولة، البطولة أن تنقله من الملهى إلى المسجد، من الضياع إلى اللقاء مع الله، من الشرود إلى الاتصال بالله، من الشقاء إلى السعادة، من الجهل إلى العلم، من الغفلة إلى اليقظة هذه هي البطولة.

وبالتالي على ضعيف الإيمان أن يقوي إيمانه بمعاشرة المؤمنين، والإبقاء على علاقته معهم، ومحاولة أخذ الأسباب لتقوية هذا الإيمان.

هل تصدق أن هناك آية دقيقة جداً في القرآن الكريم تؤكد هذا الموضوع.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

[سورة آل عمران: الآية 102]

أمر إلهي، أي: أطيعوا الله، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

[سورة التوبة: الآية 119]

وكأن الآية تقول: إنكم لن تستطيعوا أن تتقوني يا عبادي إلا إذا كنتم مع الصادقين، كنتم في أجواء إيمانية، لذلك:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

إذاً:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ)

كن معهم، أجواؤهم إيمانية.

(وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يعني الملاهي وأماكن اللهو، واللقاءات المختلطة فرضاً.

(وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

بالمناسبة هناك لفتة لغوية رائعة جداً، كلمة أغفلنا لا تعني أن الله جعله غافلاً.

المذيع:

هنا أريد الاستفسار.

الأستاذ:

لأن العرب تقول في لغتها: عاشرت هؤلاء فما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، وعاشرتهم فما أبخلتهم، أي ما وجدتهم بخلاء، كلمة أغفلنا لا تعني أنه خلق الغفلة فيهم، تعني أنه وجدهم غافلين.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

وآية أخرى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ)

[سورة لقمان: الآية 15]

كن معه، لذلك قال بعض علماء القلوب: لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ويدلك على الله مقاله، الصاحب مهم جداً في أمور الدنيا، لا بأس أن تصاحب من هو دونك في الدنيا، لئلا تحتقر نعمة الله عليك، قد تكون أنت في صحة تامة، ونعمة الصحة لا تعدلها نعمة، إلا الهدى، تأتي هذه النعمة قبل الصحة، فإن صاحبت من هو أغنى منك تزدري نعمة الله عليك، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له أما في أمور الدين، ينبغي أن تصاحب من هو فوقك بكثير، ليكون قدوةً لك، ولتقتبس من علمه وخلقه، ونمط سلوكه في الحياة.

فلا بد أن يحيط المسلم نفسه بأجواء إيمانية، إما في المساجد، إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر. قد لا تأكل طعاماً في المسجد، لكن قد تلهم الحكمة، والحكمة أثمن شيء، قد تلهم شعوراً بالأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

[سورة الأنعام: الآية 81-82]

والإنسان حكيم نفسه، أنا سهرت مع هؤلاء، فابتعدت عن الله، سهرت مع هؤلاء، فتاقت نفسي للبقاء معهم، أو ترقرقت دموعي، أو لان قلبي، أو شعرت أنني في جنة، معنى هذا أن المكان الذي ارتحت إليه، وانسجمت معه، ورأيت أنه يقربك إلى الله الزم هؤلاء، لابد من جو إيماني، لابد من بيئة إيمانية، حتى في قضاء أوقات الفراغ، لابد من أصحاب مؤمنين، أطهار، حتى في العلاقات الاجتماعية، حتى في مناسبات الفرح، لابد من الصحبة الصالحة، هذه قاعدة أساسية.

محور هذا اللقاء كله قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

[سورة التوبة: الآية 119]

أي: إن لم تكونوا معهم فلن تستطيعوا، لأن الصاحب ساحب.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 24 - 30 : أسباب ضعف الإيمان2 - الابتعاد عن القدوة الصالحة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

يوجد في الإنسان خصائص نفسية، سأسميها ابتداءً الغيرة، هذه خصيصة، وقد درسنا في الجامعة أن للإنسان صفات كثيرة، وإن للإنسان سمات قليلة، السمات مجموعة صفات تعود إلى سمة واحدة، فهناك سمة عميقة جداً في شخصية كل إنسان، وهي الغيرة، يتمنى أن يكون ما عند الذي تفوق عليه في أي مجال، هذه عامة، سمة جُبل عليها في أصل خلقه، وهي حيادية، يمكن أن تستخدم في شؤون الآخرة، فيعود خيرها على الإنسان بشكل مريع، ويمكن أن تستخدم للدنيا، فتكون أحد أسباب الشقاء، إن استخدمت لشؤون الآخرة كانت غبطة، وإن استخدمت لشؤون الدنيا كانت حسدًا، الفرق شاسع.
فأنت حينما ترى إنساناً أرقى منك خلقاً، وأعمق منك علماً، تتمنى أن تكون مثله، فالإنسان مجبول ومفطور على أن يقلد من فوقه، أو أن يسير بطريق من فوقه، وكلام عام جداً، لأنه مخير فهذه الخصيصة التي في أعماق نفسه عامة تشمل الدنيا والآخرة، وتشمل الخير والشر، فحينما يأتي المؤمن، ويستخدم هذه الخصيصة في الخير فيعيش مع أناس صالحين، مع أناس متفوقين، مع أناس أبطال، بحكم فطرته، وحكم جبلته، وحكم خصائص نفسه يتمنى أن يقلدهم، ويتمنى أن يكون مثلهم، ويمشي في طريقهم.

الأمر لو كان بالعكس، لو جلس مع أهل الدنيا، مع المنحرفين، مع المنغمسين في شهواتهم، وانحطاطهم، وضعهم يغريه، فيتمنى أن يكون مثلهم، قضية الغيرة، أي هذه الخصيصة في الإنسان تدعو إلى تقليد المتفوق، إن في الدنيا، وإن في الآخرة، إن في السعادة الروحية، وإن في الملذات الشخصية.

أثر القدوة كبير جداً، وأنا أرى أن الأنبياء العظام حينما جاؤوا بأمر ربهم لهداية الخلق معهم مهمتان، الأولى: التبليغ، ولكن أعتقد أن أي إنسان طليق اللسان، قوي الذهن بإمكانه أن يبلّغ، لكن مهمة الأنبياء الكبرى التي لا تعدلها مهمة، والتي ينفردون بها أن مهمتهم هي القدوة، أن يكونوا قدوةً للآخرين، لذلك ما أثر على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال شيئاً ولم يطبقه، كان سباقاً إلى ما يقول، فكان صلى الله عليه وسلم قدوةً بحق، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

كان قدوةً في الصبر، وكان قدوةً في العفو، وكان قدوةً في الشجاعة، وكان قدوةً في الرحمة، وكان قدوةً في اللين، وكان قدوةً في السخاء، هو مثل أعلى، فالمؤمن في آخر الزمان حينما يصحب من تفوق عليه في الإيمان يرى من ورعه، يرى من خلقه، يرى من استقامة لسانه، يرى من اتساع قلبه، يتمنى أن يكون مثله، بحسب الفطرة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لا حَسَدَ إِلا عَلَى اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه]

وقد استخدم الحسد بمعنى الغبطة،

((رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

أنت كمؤمن حينما تحيط نفسك بأناس كبار مؤمنين صادقين، شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، تتمنى أن تكون مثلهم، ولعلك تسلك طريقهم، ولعلك تنضبط بقيمهم، ولعلك تتمنى صلاح حالهم، والعياذ بالله لو أن الإنسان صاحب الأشرار، صاحب أهل الشهوات، صاحب المتفلتين، ورأى انغماسهم في الملذات يتمنى أن يكون مثلهم، ويسلك طريقهم، لذلك أخطر شيء على الشاب الرفيق السيئ.

يا أيها الآباء الكرام، يا من تحرصون على أبنائكم، الشيء الذي يدمر ابنك رفيق السوء، فينبغي أن تعتني بأصدقاء ابنك عنايةً تفوق حد الخيال، ينبغي أن تعرفهم واحداً وَاحداً، ينبغي أن تعرف منبتهم، أن تعرف بيئتهم، أن تعرف أهلهم، وإلا الآن الفساد واسع جداً، وشاب طاهر عفيف يمكن أنه لو رأى شيئاً مثيراً ينحرف مئة وثمانين درجة، لو أطلعه صديقه على شيء لا يرضي الله، أو لو أعطاه شيئاً لا يرضي الله، أو لو دله على معصية لا ترضي الله، لكان قد دمره، لذلك أحد أكبر أسباب ضعف الإيمان أن يحاط الإنسان بأناس متفلتين، بأناس ليسوا قدوةً له، فنحن بحاجة ماسة إلى مجتمع مؤمن، والحقيقة أن الطرف الآخر يطالبنا دائماً: أين مجتمعكم الإيماني ؟ سمعت أن في أحد أحياء نيويورك في أمريكا حي مسلم، لكنه متميز جداً في انضباطه، لا يوجد فيه مخدرات، ولا زنا، ولا فيه أي انحراف، ولا ربا، ولا أي شيء من هذا القبيل، وهذا الحي له حراسة، وله مبادئ، وله قيم، كل الشركات في أمريكا تتهافت على أن تفتح فرعاً في هذا الحي.

الحقيقة أكبر دعوة للإيمان ليست باللسان، بل بالعمل، فنحن حين نحيط أنفسنا بأناس طيبين نتمنى أن نكون مثلهم، وكما تعلم ما الذي جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألقون ؟ لأن قدوتهم هو

النبي صلى الله عليه وسلم، ما الذي جعل التابعين يتألقون ؟ أن قدوتهم الصحابة، ما الذي جعل ما بعد التابعين يتألقون ؟ لأن قدوتهم التابعون، لكن حينما نكون في مجتمع ليس هناك قدوة، القدوة هي الشهوات والموبقات والانحرافات والمعاصي والآثام، فعندئذ هناك ـ والله ـ خطر كبير.

القدوة الصالحة هي التي علينا أن نتمثل بها، أين نجدها ؟ لقد دلّنا عليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

مرة سألني سائل قال لي: أنا أشعر بالغربة، قلت له: هذا الشعور صحي، وهذا ينبغي أن تشعر به دائماً، إذا الفساد عم، والمعاصي انتشرت، وصار الإنسان الشهواني هو المتفوق، الإنسان الذي جمع مالاً طائلاً من دون أن نحاسبه كيف جمعه هو المتميز في المجتمع، هو الذي له الوجاهة، إذا أصبحت القيم المادية هي الأساس في المجتمع، هناك مشكلة كبيرة.

الإمام علي رضي الله عنه يقول: **" قيمة المرء ما يحسنه ".**

لكن في آخر الزمان تكون قيمة المرء متاعه، نوع مركبته، مساحة بيته، في أي حي بيته، رصيده في المصرف، هذه القيم المادية، حجمه المالي، مركبته، مسكنه، أناقته، إنفاقه، تفلته، في آخر الزمان قيمة المرء متاعه، وأنا من باب الطرفة قيمته لا تأتي من نوع مركبته، من رقم يوضع إلى جانب مركبته، يوجد ست مئة، ويوجد مئتان وثمانون، وأربعمئة، وثلاثمئة، فقيمة المرء متاعه، بينما قيمة المرء ما يحسنه.

أنا لا أنسى أن أحد التابعين اسمه الأحنف بن قيس كان ذميم الخلق، وصفه بعض الكتاب أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، أحنف، الرجل ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيما غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

الرجل قيمته بعلمه، وعمله هذه القيم الأصيلة في المجتمع، أي إنسان قيمه ومبادؤه وعمله الطيب هو الذي يرفعه، أما في مجتمع متفلت فوسامته، وماله الكثير، وانغماسه في الشهوات هو الذي يرفعه، فنحن بحاجة ماسة إلى تأكيد القيم الدينية، وتأكيد القيم الأخلاقية لئلا ينجرف الناس وراء من يتفلتون من منهج الله، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

أستاذ زياد، هناك مشكلة دقيقة جداً، القيم التي تواضع الناس على أنها قيم في الحياة الدنيا لم يعترف بها القرآن أبداً، قيمة المال، قيمة النسب، قيمة الوسامة، قيمة القوة، قيمة الذكاء، القرآن اعترف بقيمتين فقط، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: الآية 132]

قيمة العمل.

واعترف بقيمة العلم، قال تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

[سورة المجادلة: الآية 11]

وقال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: الآية 9]

فنحن نؤكد في المجتمع العالم العامل كيف ينبغي أن يكون هذا القرآن في مكان عالٍ، وحينما تسود المجتمع قيم آخر عندئذ اقرأ على الأمة السلام.

نحن حريصون جداً على تأكيد القيم الدينية والأخلاقية، وإلا ضاع أولادنا، وضاع شبابنا، وضاع مجتمعنا، تصور شاباً في الثامنة عشر من عمره، أين تجده كل يوم ؟ قد تجده في الملاهي، تصور أسامة بن زيد الذي قاد جيشاً فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، شاب في الثامنة عشر، بين أن يكون الشاب شيئاً متميزاً بخلقه بعلمه باندفاعه بورعه، وبين أن يكون متخلفاً عن أقرانه، غارقاً في معاصيه وفي شهواته.

إذاً نحن بحاجة إلى القدوة، ولاسيما لشبابنا، في علم النفس الشاب في سن المراهقة أكثر شيء يلفته القدوة، فبدل أن يكون للشباب قدوة من أهل الضياع، ومن أهل الفجور والانحراف ينبغي أن تكون قدوتهم الناس الصالحون المتفوقون في دينهم، فنحن بحاجة إلى أن نصاحب من يرقى بنا إلى الله حاله، نحن بحاجة أن نصاحب من يدلنا على الله مقاله، نحن بحاجة أن نصاحب أناساً مؤمنين أطهار، وإلا فهناك مشكلة، هذا الكلام كله ينسحب على الخط العريض في المجتمع، وهناك أناس مستثنون متفوقون، لا يهتزون لا لبيئة متخلفة، ولا لقدوة سيئة، إنهم هم القدوة، وهم البيئة، هؤلاء لا ينسحب الحكم عليهم لضآلة حجمهم في المجتمع، أما الأكثرية فتحركها القدوة الصالحة والمثل الطيب.

ذكر لي صديق مقيم في واشنطن أن سائقاً في واشنطن وجد محفظة فيها مبلغ كبير من المال، فاتصل بالشرطة، وسلمها هذه المحفظة بما فيها من مبلغ، ذكر لي أن حاكم الولاية جمع طلاب المدارس في احتفال، وسألهم هذا السؤال: ماذا تفعلون إن وجدتم محفظة فيها مثل هذا المبلغ ؟ والمبلغ كبير جداً، فقالوا بصوت واحد: نأخذها، ماذا قال هذا الحاكم ؟ قال ولكن إنساناً مسلماً ردها إلى صاحبها.

هذا قدوة في الأمانة، وفي العفة، سيدنا يوسف قدوة لكل شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، إنسان قد يجد مبلغاً كبيراً جداً فيعيده إلى صاحبه.

سمعت قصة أن إنساناً وجد في مركبته ثمانية عشر مليوناً، وهو مبلغ ضخم جداً، في كيس أسود، بحث عن صاحبه عشرين يوماً حتى وجده، وسلمه إياه، هذا قدوة، فنحن دائماً نحتاج إلى قدوة، القدوة تعلّم، قد يقول قائل: القدوة حقيقة مع البرهان عليها، لأن القيم الأخلاقية من دون قدوة تغدو حبراً على ورق، وتغدو شيئاً موهوماً، فحينما تجد أن هذا الخلق موجود في فلان تقتدي به، لذلك حينما قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي، أنا أريد مسلماً يمشي بورعه وعفته واستقامته وأمانته.

وأول قدوة للمرء هو والده والدته، وهكذا، إذاً علينا أن نتوجه إلى أولياء الأمور لكي يحسنوا القدوة بالنسبة لأولادهم، وهكذا من خلية الأسرة ينمو المجتمع مجتمعاً صالحاً ذا قدوة طيبة.

كيف ينتظر الأب من ابنه أن يكون مستقيماً إذا كان هو غير مستقيم ؟ كيف ينتظر الأب من ابنه أن يكون عفيفاً إذا كان الأب غير عفيف ؟ كيف ينتظر الأب من ابنه أن يكون صادقاً إذا كان الأب غير صادق ؟ قل لهم: يا بني، أنا لست في البيت ، أنت كذبت أمام ابنك، فأنا أقول ما أفعل، ومن أنواع التربيةِ التربيةُ بالقدوة، أفعل أسلوب في التربية الأب الذي يكون قدوةً لأولاده، يقطع أربعة أخماس الطريق إلى تربيتهم إذا كان قدوةً لأولاده، أما إن لم يكن قدوةً لهم يسقط من أعينهم، أو قلدوه فيما هو عليه، وظنوا أن هذا هو الصواب.

المذيع:

إذاً الابتعاد عن القدوة الصالحة هذا سبب مباشر من أسباب ضعف الإيمان، هل تكفي القدوة، أم أن هناك ثقافة يجب أن يتحلى بها المرء ليكون بالتالي قوي الإيمان، ويبتعد عن أسباب ضعف الإيمان ؟

الأستاذ:

اسمح لي أستاذ زياد أن أشبه الإنسان بوعاء الماء له فتحة من أعلاه، وله صنبور من أسفله، فالشيء الذي تضعه فيه يخرج من الصنبور في النهاية، فما الذي يغذِّي الإنسان ؟ الإنسان كائن عنده حواس، وعنده إدراك، هذه الحواس وذاك الإدراك يستقبلان من المحيط الخارجي كل شيء، فلو أن شاباً له قدوة صالحة، لكن ثقافته ليست صالحة، ثقافته مثلاً ثقافة جنسية، أو قصصه قصص عابثة، أو مطالعاته مطالعات رديئة، أو البرامج التي يراها برامج هابطة، فهو يتغذى تغذية سيئة جداً، فماذا تنتظر من إنسان يتابع قصصاً ومسرحيات وأعمالاً فنية ليس فيها أي قيمة أخلاقية، بالعكس فيها قيم شهوانية فقط، فهذه الثقافة التي يجترّها تسهم في انحرافه، إنه وعاء، فالشيء الذي يغذى به من أعلى يتصرف به بطريقة أو بأخرى، لذلك حينما نبتعد عن الأجواء الإيمانية هذا موضوع الحلقة الأولى، وحينما نبتعد عن القدوة الصالحة أيضاً نقع في مطب كبير، إلا أننا اليوم يجب أن نبتعد عن الثقافة الهابطة والكتاب حينما يثيرون الغرائز المادية في الإنسان، أو يثيرون شهواته الهابطة، فيدمرون مجتمعاً وهم لا

يشعرون.

يجب أن ننتبه إلى أولادنا إلى التغذية التي يتغذونها، هذه مهمة جداً، لأن في الأعمال أحياناً يمكن نبرز شخصاً بقصة أو بمسرحية، وهذا مهم جداً، لكنه متفلت من الدين، والكاتب أسبغ عليه كل صفات البطولة، وفي الوقت نفسه صوّره تصويراً هابطاً دينياً، فهذا الشاب إذا قرأ هذه القصة، أو شاهد هذه المسرحية، أو تابع هذا المسلسل ما الذي يحصل له ؟ تتسلل القيم الهابطة إليه دون أن يشعر، ذلك أن الإنسان عنده خطوط دفاع كبرى، الأعمال الذكية والهابطة تستطيع أن تخترق خطوط دفاعه، وأن تصل إلى منطقة التأثير فيه.

أنا أضرب مثلاً، أنت إذا ألقيت على إنسان نصيحة بلغة فصيحة عن مضار السرعة العالية في القيادة، قد لا يستجيب لك، وقد يهزأ، وقد يرى أنه متمكن من القيادة، أما حينما يرى حادثاً مروعاً، والجثث ملقاة حول المركبة، هذا المشهد الواقعي يفعل فعل السحر في نفسه، الذي أريد أن أقوله أنك كحاجة إلى تغذية صحيحة.

المذيع:

قلت: إن البيئة الصالحة تغذية، والقدوة تغذية، لكن الثقافة تغذية كبيرة جداً، خاصة عندما لا يعلم، لأن المشكلة في الجهل، تقولون: إنه بحاجة إلى ثقافة صحيحة ضدها الجهل.

الأستاذ:

أنا حينما أسمح لأولادي بأن يقرؤوا، أو حينما يقرؤون هم ما طاب لهم أن يقرؤوا، وتأتيهم القيم المنحطة دون أن يشعروا تسللاً، وأنا أؤكد على هذه الناحية، الإنسان في وعيه عنده خطوط دفاع، أما حينما ينسجم مع عمل فني تتسلل القيم الهابطة إلى منطقة التأثير فيه دون أن يشعر، قضية المطالعة قضية مهمة جداً مثلاً: أنت حينما تقرأ عن الأبطال الذين جاؤوا في العصور الذهبية في الإسلام، وتقرأ تفاصيل حياتهم، تفاصيل قيمهم، تقرأ عن رحمتهم، عن شجاعتهم، عن جرأتهم، عن نزاهتهم، عن عفتهم، عن علاقاتهم الاجتماعية، تؤخذ بهذه الشخصيات، وهذه تغذية إيجابية جيدة جداً، فحينما نسمح أن نغذي أنفسنا بثقافة هابطة ندمّر.

الحقيقة أنه مسموح للمؤلف أن يصور الرذيلة، لكن على نحو نشمئز منها، أما إذا صورها على نحو نحبها، ونعجب بأبطالها فغير مسموح، لإن مجتمعاً بأكمله يسقط من خلال هذا الأدب.

كتب ومسرحيات وقصص وأعمال فنية ومسلسلات أساسها الإثارة، ولن تكون الإثارة إلا عن طريق القيم الهابطة، إلا عن طريق الانحراف، والزنا، والخيانة الزوجية، وما إلى ذلك.

فهذه الثقافة الهابطة تسهم في ضعف الإيمان، أنت لك ساحة، هذه قد تملأ هذه الساحة بالمواقف المخزية ـ لا سمح الله ولا قدر ـ إذاً كيفما تحركت، وكيفما تكلمت، وكيفما تصرفت عمل غلط فيه انحراف، أما حينما تملأ ساحتك ببطولات رائعة، وبقيم خالدة كيفما تحركت قدوتك هؤلاء.

قلت في حلقة سابقة: إن للإنسان شخصية يكونها، وشخصية يتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، فلنحرص جميعاً على أن تكون الشخصيات التي نتمنى أن نكونها شخصيات متوازنة، شخصيات أخلاقية، شخصيات علمية، شخصيات من أصحاب المبادئ والقيم، لا من أصحاب الشهوات والانحرافات.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 25 - 30 : أسباب ضعف الإيمان3 - معالم الثقافة الصحيحة والصالحة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-01-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الابتعاد عن معالم الثقافة الصحيحة والصالحة سبب من أسباب ضعف الإيمان:

هذا الموضوع دقيق جداً، العلماء قالوا: هناك علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، وهناك علم فرض كفاية.

أوضح ذلك: أنا حينما أنزل بمظلة قد أجهل شكل المظلة، بيضوي، أم دائري، أم مستطيل، أم مربع، وقد أجهل عدد الحبال، ونوع القماش، ونوع الخيوط، قد أجهل مئات المعلومات عن هذه المظلة، ولكن معلومة واحدةً إذا جهلتها نزلت ميتاً، وهي طريقة فتحها، طريقة فتح المظلة علم ينبغي أن يعلم بالضرورة.

فالعلماء اتفقوا على أن في الشريعة علوماً ينبغي أن تعلم بالضرورة، وأن هذه العلوم لا يعفى منها أحد، ولو كان يحمل أعلى شهادة في العالم، إنها علوم تتوقف عليها سلامته وسعادته.

لنقرب هذا بمثل، أنت اشتريت آلة بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة، وليكن مَخبرًا عن طريق الكومبيوتر، هذا المخبر معه تعليمات الصانع، لو أن هذه التعليمات لم تقرأها لأتلفت هذه الأجهزة، وهي غالية الثمن، أما إذا استخدمت هذه الأجهزة وفق تعليمات الصانع تؤتي أكلها كل حين، وتربح أرباحاً طائلة منها.

من هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها ؟ الجهة الصانعة، بداهةً وواقعاً الجهة الصانعة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

من هو الخبير في خلق الإنسان ؟ هو الله عز وجل، فالقرآن كلامه، وكأن القرآن تعليمات الصانع، وكأن القرآن تعليمات التشغيل والصيانة، فالإنسان بدافع من حبه لذاته اسمح لي أن أقول: بدافع من أنانيته عليه أن يطبق تعليمات الصانع، طلباً لسلامته وسعادته، والدليل أن أهل النار في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

أنا لا أتصور إنساناً يستطيع أن ينجو من شقاء الحياة إن لم يكن معتصماً بالكتاب والسنة، السبب أن الخبرات تتراكم، لكن هناك حول الإنسان مشكلات، تعرف الحقيقة بعد أن تكون أنت الضحية.

أوضح هذا مثل أضربه، ثمة شيء كأنه قنبلة، جاء إنسان، وقال: يا ترى هو قنبلة أم ليس قنبلة، أراد أن يجرب، فلما فتحها انفجرت، وقتلته، لم تبق له القنبلة ثانيةً واحدةً لينتفع بهذه الخبرة.

كم من معصية دمرت الشاب، وأنهته، وصار نزيل السجن، أو صار نزيل المخدرات، أو صار نزيل آفة منحرفة، أنا حينما أدعي أنني أتعرف على الحياة، وأكتشف الحقائق بنفسي هذا كلام غير صحيح، هناك خبرات تدمر صاحبها، وصاحبها هو الضحية، أنت لابد من أن تعرف الجهة الصانعة، وأن تنفذ تعليمات الجهة الصانعة.

لذلك أية ثقافة تخلو من الكتاب السنة ثقافة قد لا تعصمني من الشقاء والهلاك، لأن الذي خلقني هو أخبر بي من نفسي، وأعلم ما يصلح ذاتي.

هذا الأمر يصلحك، وهذا يضرك، هذا الأمر يسعدك، وهذا يشقيك، مبدأ اللذة الذي هو دندن الناس اليوم قال بعض العلماء: حينما يتخذ هدفاً ينقلب إلى مبدأ الأم، كل إنسان سعيد إذا طبق تعليمات الصانع، فإذا انجرف إلى تلبية نداء غرائزه من دون ضابط يصبح أشقى الناس، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقى الناس أرغبهم فيها.

فكيف تنتظر من إنسان لا يعلم عن كتاب الله شيئاً، ولا عن أمره، ولا عن نهيه، ولا عن الحلال والحرام، ولا عن مصير الإنسان، ولا عن حكمة وجوده وخلقه، ولا عن رسالته في الحياة، هذه كلها أساسيات الحياة، فإذا ابتعدنا عن ثقافة القرآن، وثقافة السنة فنكون ضحية مقولات غير صحيحة، كم من إنسان انتهى لمقولة توهمها، وهي ليست صحيحة، رأى المال كل شيء، فانكب على جمعه من حرام أو حلال، ثم اكتشف أن المال شيء، وليس كل شيء، أما عند الموت فوجده ليس بشيء، و وجد الله عنده، فوفاه حسابه، لابد من ثقافة قرآنية.

وترى المبتعد عن منهج الله سبحانه وتعالى ومن جهله بهذه الثقافة الصحيحة تراه مندهشاً عندما تجيب آية قرآنية عن تساؤل يبحث عن جواب له، ولا يجده في العلوم الدنيوية، مع الثقافة الضحلة التي يعرفها.

نعم، الحقيقة هذا كتاب الله، وهو من عند خالق الأكوان، من عند الخير، أضرب على ما تقدمت به مثلاً، قد يذهب إنسان إلى مجتمع بالمقياس المادي متقدم جداً، يجد الحياة فيها شيء مدهش، ويقابل هذا انحراف وسقوط عجيب أخلاقي، فيختل توازنه، فإذا قرأ القرآن يستعيد توازنه، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

[سورة الأنعام: الآية 44]

قد يجد إنساناً ينمو ماله نماءً عجيباً، وهو ينميه عن طريق الربا، فإذا قرأ القرآن يجد أن الله سبحانه وتعالى أمهله، ولم يهمله، يقول الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 276]

فقد يبلغه بعد حين أن المال قد تلف، أو دمر، فحينما يقرأ القرآن يرى كل شيء حوله يؤكد معاني هذا الكتاب، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: الآية 39]

العلماء قالوا: التأويل وقوع الوعد والوعيد، فالقرآن يحل كل المشكلات التي تنشأ من بعض التناقضات يجد جوابها في القرآن الكريم.

المذيع:

وهكذا الثقافة الإسلامية، أو الثقافة الشرعية، إذاً هل لها حد دقيق، وأدنى إذا صح التعبير، وأهمها القرآن والسنة النبوية الشريفة ؟

الأستاذ:

لابد من أن تقرأ القرآن، معظم آياته واضحة جداً، لا تحتاج لا إلى مفسر، ولا إلى إنسان، لكن بعض آياته المتشابهة تحتاج إلى تفسير، أنت حينما تقرأ القرآن تأخذ فكرةً واضحةً نيرةً جداً عن سر وجودك وعن غاية وجودك، هذه واحدة.

لكن طبيعة القرآن طبيعة كلية، فالنبي عليه الصلاة والسلام بيّن وفصّل، فحينما تقرأ السنة تجد فيها تفصيلات لطيفة جداً، و واضحة جداً لما في مجمل آيات القرآن الكريم من أحكام، لكن كما تفضلت أنا لا أستطيع أن أطالب الناس أن يتعمقوا في الكتاب والسنة، لكن هناك حد أدنى مقبول ومنجي، هو أن تقوم بالفرائض، وأن تنتهي عن المحرمات، ما بينهما يرمم، أما السنة فحينما تقتني كتاباً في السنة الصحيحة، كتاب كله أحاديث صحيحة معظم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم واضحة وضوح الشمس، بعضها يحتاج إلى من يبين لك معانيها الدقيقة فتزكي بها نفسك من وقت لآخر.

المؤمن يريد النجاة في هذه الدنيا، لا يقرأ القرآن إطلاقاً، يهجره، الإنسان يريد النجاة في هذه الدنيا، لا يعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، ولا عن سنته القولية والعملية، أنا أقترح أنه لابد من حد أدنى من ثقافة قرآنية، ولابد من حد أدنى من ثقافة نبوية، ولا بد من حد أدنى من ثقافة فقهية، ولابد من حد أدنى في ثقافة في السيرة، لأن السيرة مهمة جداً، أفعال النبي صلى الله عليه وسلم أقوى في الدلالة على حقيقة القرآن من بيانه، لأن البيان يحتمل التأويل، أما الفعل فلا يحتمل التأويل، هو واضح

جداً.

المذيع:

نحن إذا اتفقنا أن هذا الشاب المؤمن لابد له من حد أدنى من ثقافة قرآنية ونبوية وفقهية وفي السيرة، هذه كلها تمده بتصور صحيح عن الدين، وعن مهمته في الحياة، إذا أضفنا إليها العقيدة، وهي على رأس هذه الثقافة، لأنه لو صحت العقيدة صح كل شيء، وإن فسدت فسد كل شيء.

أنا أقول: فرضاً لو أن العقيدة لا علاقة لها بالسلوك، اعتقد ما شئت، لكن لأن أي عقيدة مهما دقّ فله منعكس في السلوك، إذًا لابد أن أعتقد صواباً، والعقيدة الصحية هي ميزان صحيح، بينما الخطأ في السلوك خطأ في الوزن، وفرق شاسع بين الخطأ في الميزان والخطأ في الوزن، الخطأ في الميزان لا يصحح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، أنا حينما أعتقد صواباً أسلك صواباً، وينبغي أن تستقى العقيدة من الكتاب والسنة، من آية واضحة الدلالة، ومن حديث واضح الدلالة، فأنا حينما يرسب في أعماقي تصورات صحيحة عن الكون والحياة والإنسان وعن حقيقة الحياة الدنيا أتحرك وفق الشيء الصحيح.

ذكرت سابقاً عن إنسان نزل في بلد أجنبي، إلى أين يذهب ؟ نسأله: لماذا أتيت إلى هذه البلاد ؟ إن كنت جئت سائحاً فاذهب إلى المقاصف، إن كنت جئت طالب علم فاذهب إلى الجامعات، إن كنت جئت تاجراً فاذهب إلى المتاجر، فالحركة لا تصح إلا إذا عرف الهدف، فلذلك أنا ألح على حد أدنى من ثقافة إسلامية، أساسها عقيدة صحيحة، وكتاب وسنة، وبعض أحكام الفقه.

مثلاً: أنا أعمل في التجارة، لابد من أن أتعرف إلى أحكام البيوع، وإلا أكلت الربا، شئت أم أبيت.

أنا مقدِم على زواج، ينبغي أن أعلم حقوق الزوج، وواجباته، وحقوق الزوجة وواجباتها، وكل تفاصيل الحياة الزوجية.

أنا مقدم على سفر، ينبغي أن أعلم أحكام السفر في الإسلام، أو مقدم على حج بيت الله الحرام، مثلاً، لابد من تلاوة لكتاب الله، ولابد من فهم... فتصبح هذه الأمور ضرورة.

لابد من تلاوة لكتاب الله، ولابد من فهم لبعض آياته، ولابد من اقتناء لكتب الحديث، ولا بد من فهم لبعضها، ولابد من معرفة الأحكام الفقهية التي تمسه كزوج، أو كبائع، أو كمسافر، أو كتاجر، أو كطبيب، أو كمهندس، ولابد من مثل عليا من خلال السيرة، إما أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو على رأس هؤلاء، أو أصحابه الكرام الذين اختارهم الله له، فحينما أجمع بين العقيدة الصحيحة والكتاب والسنة والفقه والسيرة بحدود دنيا أنجح في طريقي إلى الله.

أنا أضرب مثلاً: في بريطانيا مثل رائع، تعلم كل شيء عن شيء، وشيئاً عن كل شيء، لابد من ثقافة موسوعية تتميز بها، ولابد من ثقافة عامة تحميك من الجهل.

أنا أقول: الأخ الكريم طبيب، هذا مهندس، يوجد معلومات في الدين حد أدنى لابد منها، ينبغي أن تعلم بالضرورة، أنا حينما أقول: سيارة، أنا لست مطالباً أن أعرف ممّ صنعت المكابح ؟ هذا فوق طاقتي، أما حينما أنشئ معمل السيارات فينبغي أن أعلم هذه الحقيقة، أما حينما أقود سيارة فيكفي أن أعرف كيف أنطلق بها، وكيف أوقفها، وكيف أعتني بمحركها وأجهزتها، وكيف أنعطف يميناً ويساراً، وكيف أتلافى الأخطار فقط، هذا الذي بدأت به هذه الحلقة، العلم الذي ينبغي أن يعلم بالضرورة، هذا العلم نجده في أمهات الكتب، في كتب مبسطة ميسرة، نجده عند بعض العلماء، نجده في بعض الندوات، نجده في المحاضرات، في خطب الجمعة، فلا بد من أن ترتاد بيوت الله، وأن تقتني كتباً إسلامية، وأن تلتقي بعلماء، وأن تسمع محاضرات حتى تنشئ من خلال هذه النشاطات حدّ أدنى من الثقافة الإسلامية، يعصمك من الزلل، ويدلك على طريق السعادة.

المذيع:

إذاً هذا السبب من أسباب ضعف الإيمان، ألا وهو الابتعاد عن طلب العلم الشرعي بحده الأدنى، كما ذكرتم للعامة.

الأستاذ:

لكن هناك نقطة سبحان الله ! عظمة هذا الدين مدهشة، كل مسلم ينبغي أن يكون داعية، لكن لا على أنه داعية متحقق، متوسع، متبصر، جامع لكل التفاصيل، لا، تلك فرض كفاية، قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104))

[سورة آل عمران: الآية 104]

منكم.

ويقول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 1-3]

التواصي بالحق ربع أركان النجاة، لا يمكن أن أنجو إلا إذا تواصيت بالحق، هذه الدعوة التي هي فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[البخاري، الترمذي، أحمد الدارمي]

فأنت حينما تحضر خطبة جمعة، وتتأثر بالموضوع، وتأخذ النقاط الرئيسة منها، وتلتقي مع أخيك، مع جارك، مع زميلك في العمل، مع زوجتك، مع أولادك، وتجعل منطوق الحديث موضوع هذه الخطبة، أنت ماذا فعلت ؟ تعلمت، وعلمت، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ...:

((فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[متفق عليه]

أنا مكلف كفرض عين أن أنقل ما سمعت، وأن أنقل ما قرأت، وأن أنقل ما فهمت، فإذا فعل كل منا هذا انتشر الوعي، واتسعت دوائر الحق، و ضاقت دوائر الباطل، أما حينما لا يعنيني أمر الناس إطلاقاً، أنا مأخوذ علي مأخذاً كبيراً، حينما لا أهتم بأمر المسلمين ولا أهتم بهدايتهم، أنا عند الله مؤاخذ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ نِفَاقٍ))

وكأن الجهاد أنواع، أبرزها الجهاد الدعوي، والدليل قوله تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

[سورة الفرقان: الآية 52]

جاهدهم بالقرآن يا محمد جهاداً كبيراً، فتعلم القرآن، وتعليمه أكبر أنواع الجهاد الدعوي، تعلم السنة وتعليمها أرقى أنواع الجهاد الدعوي، تعلم أحكام الفقه وتعليمها أبلغ أنواع الجهاد الدعوي، تعلم ما في السيرة من نماذج بشرية وضاءة أبلغ ما في الجهاد الدعوي.

أنا كإتمام لهذا الموضوع أقول: لا ينبغي أن أتعلم، ينبغي أن أعلم، لا ينبغي أن أتلقى، ينبغي أن ألقي، لا ينبغي أن أستمع فقط، ينبغي أن أنطق، فهذا هو النشاط والفاعلية، المؤمن ليس سلبياً، ولا منعزلاً، ولا متقوقعاً، ولا منسحباً من الحياة، المؤمن إيجابي، فلو أن كل منا استمع إلى خطبة، أو قرأ كتاباً، أو استمع إلى شريط، أو اطلع على بحث لطيف، ونقله إلى من حوله تتسع دوائر الحق تتسع، وتطغى على دوائر الباطل، أما إذا التزمنا الصمت، وانغمسنا بأعمالنا إلى قمة رأسنا فاجأنا الموت في وقت غير مناسب، وندمنا ندماً لا حدود له، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون: الآية 99-100]

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 26 - 30 : أسباب ضعف الإيمان4 - الانغماس بأمور الدنيا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب من أسباب ضعف الإيمان، ألا وهو الانغماس والانشغال بأمور الدنيا:

المسلم من السهل أن ينجرف إلى جهة ما، أو يعتني بصحته عناية فائقة، وينسى عقله وقلبه، وقد يعتني بعقله، وينسى جسمه، وقد يعتني بقلبه، وينسى عقله.

المذيع:

قلتم: المسلم، هذا شأن الإنسان.

الأستاذ:

شأن الإنسان سهل جداً أن يتطرف، وأن ينساق إلى جهة واحدة، ومن السهل جداً أن يكون عنيفاً قاسياً، أو أن يكون مسيّباً، لكن البطولة في التوازن، أن تجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وأن تجمع بين الاهتمام بجسمك وعقلك وقلبك، وأن تجمع بين الاهتمام ببيتك وعملك ودنياك وآخرتك، إن أعظم ما في هذا الدين التوازن والوسطية، فالتطرف شأن المنحرفين، وشأن الأغبياء، وشأن الغارقين في شهواتهم، أما التوازن فشأن المؤمنين، من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ))

لابد من صلاح الدنيا والآخرة والدين، فالتوازن شيء مهم جداً، الله عز وجل ما لام مَن يعمل في التجارة، قال تعالى:

(رِجَالٌ)

[سورة النور: الآية 37]

وكلمة رجال في القرآن لا تعني أنه ذكر، تعني أنه بطل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))

[سورة النور: الآية 37]

معنى هذا أنه يوجد توازن، أما هذا الذي ينجرف إلى الانغماس في الدنيا، أو في عمله، وأنا أقول دائماً: العمل الذي يمتص كل وقتك صاحبه خاسر لا محالة، لأنه أهمل وجوده الإنساني، أهمل بيته، أهمل زوجته، أهمل أولاده، أهمل آخرته، من السهولة جداً أن أنجرف، وأن أستغرق.

يوجد أعمال فيها سلاسة، كالتجارة مثلاً، فقد تسهر إلى أنصاف الليل، وقد تأتي إلى المحل في وقت مبكر، وينشغل ذهنك في كل شيء متعلق بالتجارة، فإذا جاء الموت فجأةً وجد مثلاً هذا الإنسان أن يديه خاليتان من كل خير، ويندم ندماً لا يتصور.

أنا ألح لا على ترك الدنيا، ولا على ترك الآخرة، أن نجمع بينهما بشكل متوازن.

ورد في الأثر أنه ليس بخيركم من ترك دنياه لأخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا يأخذ منهما معاً، فإن الأولى مطية للثانية.

المؤمن القوي، قوي بعلمه، معنى هذا أنه حصل شهادات، وقوي بماله، وقوي بمنصبه، خير وأحب إلى الله تعالى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم، ابن ماجة أحمد]

بل إن القوة في الدنيا قوة في الآخرة، القوة في المال قوة في إنفاقه، القوة في العلم قوة في إنفاقه، القوة في المنصب قوة في إنصاف الضعيف، أنا لا أدعو إلى أن ننسحب من الحياة، أنا لا أدعو إلى السلبية، وأن نزهد في الدنيا، أدعو إلى التوازن، إلى أن يكون الإنسان بصيراً بأمر دنياه، يسعى لآخرته، وقد ورد في بعض الآثار: أنْ أصلح دنياك، واعمل لآخرتك، لابد من صلاح الدنيا، لابد من عمارة الأرض، ولكن بتوازن مع الآخرة، هؤلاء الذين انغمسوا إلى قمة رؤوسهم في أعمالهم اكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم قد أخطؤوا، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103))

[سورة الكهف: الآية 103]

التسابق المحموم إلى كسب المال ينتهي بالموت، فالفقير يموت، والغني يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والصحيح يموت، والمريض يموت، والوسيم يموت، والذميم يموت، فالموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض، لا يبقي شيئاً، فلا بد من أن نعمل للآخرة، ولاسيما أن هذا

الوقت الذي نعيشه هو أخطر شيء في عمرنا الأبدي، نحن خلقنا، ولن نموت، نذوق الموت، ولا نموت، معنى دقيق جداً، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

[سورة الزخرف: الآية 77]

نحن خلقنا إلى أبد الآبدين، ولكن إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها، فالبطولة أن نتوازن، أما هؤلاء الذين انغمسوا إلى قمة رؤوسهم في أعمالهم المشروعة وغير المشروعة فهم خاسرون.

لو أن العمل مشروع، تجارة حلال في الأقمشة، مثلاً، وانغمس فيها المؤمن إلى قمة رأسه، ماذا أبقى لآخرته ؟ لا شيء، ماذا أبقى لربه ؟ ماذا أبقى لدينه ؟ ماذا أبقى لعمل صالح ؟ أنا أقول: العمل الذي يأخذك كلك، أو يستهلك وقتك كله خسارة محققة، ولو درّ عليك ألوف الملايين، لأن هذه الملايين تبقى في الدنيا، ويذهب الإنسان إلى الآخرة صفر اليدين.

إذاً لابد من التوازن، هناك وقت لله لا ينبغي أن يطغى عليه وقت آخر، إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، إن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل، لو أنك أهملت أولادك، ونجحت في تجارتك ما النفع؟ قلت مرة في أمريكا لبعض الإخوة المؤمنين هناك لو أنك حصلت منصباً كرئيس أمريكا، وهو أعلى منصب في العالم، أو حصلت مالاً كأنوسيس، أو علماً كأنشتاين، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، فحينما أنهمك في التجارة، وأهمل أولادي، حينما أنهمك بالتجارة وأهمل زوجتي، حينما أنهمك في التجارة ولا أطلب العلم الشرعي فأنا في تصحر، في ضياع، إذاً البطولة تنظيم الوقت، لابد من شحنة دينية روحية كل أسبوع مرة أو مرتين، لابد من جلسة مع الأهل والأولاد، لابد من علاقة مع المؤمنين الصادقين، لابد من عمل صالح تتألق به، لابد من إنفاق مال، لابد من دعوةً إلى الله.

أنا أدعو إلى الوسطية، والتوازن، أقول لك: من السهل جداً التطرف، بل إن العبادة في أدق معانيها: طاعة طوعية، تسبقها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، هذا التعريف لعلة وجودنا، وهي العبادة، يوجد معنى علمي سلوكي وجمالي.

إذاً لابد في اليوم الواحد من أن تكون على خط العلم، وخط السلوك، وخط الجمال، الجمال يعطيك حافزًا إلى المتابعة، الجمال جمال القرب من الله، جنة القرب من الله، الإقبال على الله، تنزل السكينة على قلبك، هذه كلها نواح جمالية عالية جداً لا يعرفها إلا من ذاقها، ويوجد الانضباط السلوكي

والمعرفة، أنا حينما أتوازن أحقق الهدف وأتفوق، وحينما ينمو جانب على جانب أبتعد عن الصواب وأتطرف، هذا هو التطرف.

الانغماس في شؤون الدنيا سبب من أسباب ضعف الإيمان، يلهيه عن تذكر الله، وذكر الله، والعمل الصالح.

أنت افترض الإيمان شهادة جامعية، ليسانس، هذا الذي اهتم بمظهره وألبسته وطعامه وشرابه ووسائل راحته في بيته طوال العام، ولم يقرأ كتاباً واحداً، كيف ينجح ؟ لا ينجح، بالضبط تماماً، أنا عندما أهتم بشؤون الدنيا فقط لكسب المال، وترتيب البيت، والاهتمام بمتع الحياة، وأنسى أن أطلب العلم، أن أقرأ القرآن، أن أتعلم سيرة النبي العدنان صلى الله عليه وسلم، أنسى أن أعمل صالحاً، أن آمر بالمعروف، أن أنهى عن المنكر، أنا اختلّ توازني، تطرفت فاختل توازني حقيقةً، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))

[سورة النور: الآية 37]

بالمقابل هذا الذي لا يعمل يكون عالة على الآخرين، والنبي صلى الله عليه وسلم ذمّه، رأى شاباً في وقت العمل في المسجد، قال: من يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك.

أنا لفت نظري أن شريكاً شكا شريكه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له: لعلك ترزق به، وكان الشريك يطلب العلم، والعلم لغيره، قال له النبي: لعلك ترزق به، أما العبادة ففيها حظ نفس، قال: أخوك أعبد منك، الذي يكسب المال، إذاً الشيء الدقيق هنا ألاّ ينغمس الإنسان إلى قمة رأسه في متع الحياة الدنيا، والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة المنافقون: الآية 9]

ما هو اللهو أستاذ زياد ؟ اللهو أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، أن تشتغل بالأدنى عن الأعظم، أنت مخلوق في الدنيا لمعرفة الله، فإن اشتغلت في الدنيا فقد لهوت، لأنك اشتغلت بالخسيس الفاني، المنقطع عن النفيس الأبدي الباقي، الحقيقة أنّ أكبر خسارة على الإطلاق أن يخسر الإنسان نفسه وآخرته، قال تعالى:

(إِنّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: الآية 45]

فنحن حينما ننحاز كليًا إلى أعمالنا، إلى متعنا، إلى شهواتنا، قد ذكرت لكم سابقاً أن الشيطان ذكي جداً، يدعو الإنسان إلى المباحات، لكن يبالغ بها، أنا أعرف أناساً كثيرين جاءهم ملك الموت، لم يسكن البيت، لم يستفد من هذه المزرعة الفخمة جداً، عند افتتاحها جاءه ملك الموت، فهذا الذي يبقى بيد الشيطان آخر

ورقة رابحة ؛ أن تنغمس في الدنيا إلى قمة رأسك، وأن تنسى أن هذا القلب لمجرد أن يقف ينتهي كل شيء، وانتقل من بيت منيف إلى قبر ضيق، والله الذي لا إله إلا هو لو فكر الناس في مصيرهم المحتوم لما أكلوا طعاماً عن شهوة،

((يَا أُمّةَ مُحَمّدٍ، وَاللّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمّةَ مُحَمّدٍ، وَاللّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[متفق عليه عن عائشة]

لو تعلمون ما أعلم ما أكلتم طعاماً عن شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولذهبتم إلى الصعداء تلومون أنفسكم.

ما من بيت إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرات، فإذا وجد أن العبد قد انتهى رزقه، وانقطع أجله ألقى عليه غمّ الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والنادبة بويلها، يقول لهم ملك الموت: فيمَ الفزع ؟ وممَ الجذع ؟ ما أذهبت بواحد منكم رزقه، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة وعودة، حتى لا أبقي منكم أحدا.

ورد في بعض الأحاديث:

((هو الذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه، ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولاشتغلوا في أنفسهم))

[ورد في الأثر]

هذا الطريق، طريق الدنيا طريق مسدود، والذي يجمعه الإنسان في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة، فكل بطولة الإنسان، وكل مكانته، وكل هيمنته، وكل استمتاعه على ضربات قلبه، فإذا توقف القلب لضعف نظمه انتهت الحياة، أو على ضيق شريانه التاجي، أو على سيولة دمه، أو على نمو خلاياه، الذي يقول: أنا، ويضع كل الثقل، التجار الكبار يوزعون أموالهم، لا يجعلونها في عمل واحد، فلو أصاب هذا العمل خطر صار فقيراً، والمؤمن حينما يضع كل ثقله في الدنيا يأتيه الموت فجأةً يخسر.

أنا أضرب مثلاً تركيبياً، لو تصورنا أن بلداً نظام الإيجار فيه أن المؤجر يطرد المستأجر في أي لحظة شاء، وبلا إنذار مسبق، وبلا مقدمات، ولا يحق إلى ساكن هذا البيت أن يأخذ معه حاجة من هذا البيت، كل شيء اشتراه من أثاث يبقى في البيت، التزيينات تبقى في البيت، الثريات، فهل من عقل لمستأجر له دخل كبير أن يضع كل دخله في هذا البيت ؟ بالطبع لا، وفي أية لحظة يطرد منه، وله بيت في أطراف المدينة على الهيكل، أليس العقل أن تكسو ذلك البيت، وأن تعتني بذلك البيت الذي ستنتهي إليه، وفي أية نعي ماذا يكتب عليه ؟ سيشيع إلى مثواه الأخير، إذاً مثوانا في الدنيا مثوى مؤقتاً، إذاً الانغماس في الدنيا إلى قمة الرأس على حساب الدين هو الذي يضعف الإيمان، بينما التوازن لا شيء عليه، لأنه ما من

شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، المؤمن يعمل، ويتاجر، ويتزوج، ويؤسس شركة، لكن ضمن منهج، ضمن حدود، يوجد حد للدنيا وحدود للآخرة، قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19))

[سورة الإسراء: الآية 19]

أنا أتمنى على كل أخ كريم مستمع مؤمن أن يوازن، لابد من شحنة روحية كل أسبوع، لابد من درس علم أحضره، لابد من تلاوة أقرؤها، لابد من علم أحصله لابد من عمل صالح لابد من صلة رحم، لابد من زيارة عالم، لابد من بذل مالٍ، لابد، ولابد من أن أعمل، فأجمل آية في هذا الموضوع:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))

[سورة النور: الآية 37]

وهذا ينسحب أيضاً على من ينشغل إلى قمة رأسه بالزوجة والأولاد، وشؤون أسرته، وتأمين حياته، ومتطلباتها اليومية، أيضاً سبب آخر من أسباب ضعف الإيمان.

صحابي جليل طلبت منه زوجته حاجةً لا يقوى على تلبيتها، فقال لها: اعلمي يا أمة الله أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ.

ذكرنا شيئاً عن الزوجة والأولاد، ولكن لابد من توضيح حقيقة، كيف يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن: الآية 14]

آية تحير، أقرب إنسان لك زوجتك، الوفاء الزوجي والمحبة والاندماج الكامل ممكن، ما من علاقة على وجه الأرض أقوى من علاقة الزوج بزوجته، والله عز وجل يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: الآية 21]

المودة والرحمة من خلق الله، فكيف في آية ثانية يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

[سورة التغابن: الآية 14]

الحقيقة أروع شيء في الآية الكريمة من للتبعيض، يعني بعض أزواجكم إذا حملنكم على معصية الله، كلفنكم ما لا تطيقون، دفعنكم إلى الانغماس في الحرام من أجل تلبية طلبات الزوجة وغرورها، هذه الزوجة يوم القيامة تراها أعدى أعدائك، لأنها سببت لك دخول النار، فهذه عداوة مآل، وليست عداوة حال، هذا الذي تحمله زوجته على معصية، تدعوه إلى كسب مال حرام، يدعوه أولاده إلى أن يأتي

بالمال من أي طريق شاء، فيأخذ ما ليس له ليرضي غرورهم وغرور زوجته، هؤلاء يوم القيامة أشد أعدائه، لأنهم سبب هلاكه، فلا بد من التوازن.

كانت الصحابية الجليلة تقول لزوجها: إذا غادر البيت ليعمل: اتق الله فينا، فإننا نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام، فاتق الله فينا، هكذا كانت الزوجة، الآن تدفعه إلى أن يكسب المال الحرام، تدفعه إلى أن يأخذ ما ليس له، تدفعه إلى أن يقبل الرشوة، تدفعه كي يجدد البيت، ويأتي بأثاث جميل، ونسيت أنها حطمته، وأنه سقط من عين الله، ومن عين الناس حينما دفعته لما تريد، فلذلك روي عن النبي الكريم:

((أعظم النساء بركة أقلهن مهراً))

((أعظم النساء بركة أقلهن مؤونة))

[وردا في الأثر]

طلباتها خفيفة، والمرأة إذا صلت خمسها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها، وصامت شهرها دخلت جنة ربها، باب الجنة مفتوح على مصراعيه لكل زوجة مؤمنة تتقي الله في زوجها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

إذاً نحن نريد من هذا المسلم التوازن أن يعطي كل ذي حق حقه، إن لزوجك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسمك حقاً، فأعطِ لكل ذي حق حقه، عَنْ عَوْن بْن أَبي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الْآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ))

[البخاري، الترمذي]

بل إن هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا، وانسحبوا منها، وزهدوا فيها النبي عليه الصلاة والسلام ما أقرهم على ذلك.

جاءت امرأة رثة الهيئة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، سألتها عن حالها قالت: زوجي صوام قوام، يعني يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا شأن له بالزوجة، فذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فجاء به النبي، وقال له: يا عثمان، أليس لك بي أسوة ؟ ألست قدوتك ؟ وبخه، وحمله على أن يتوازن، فجاءت زوجته إلى السيدة عائشة بعد أيام كما تروي الكتب عطرة نضرة فقالت: أصابنا ما أصاب الناس.

ما رضي النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً.

بالمقابل إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة المنافقون: الآية 9]

بالمقابل ما رضي النبي صلى الله عليه وسلم من زوج يهمل زوجته، أو ينصرف عنها، أو من أب يضيع أولاده، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[مسلم، أحمد، أبي داود]

يعني أن تهمله هذه أكبر معصية.

أعود وأقول: التوازن أو بالتعريف الآخر الوسطية في الإسلام أن تجمع بين الدنيا والآخرة: وبين الاهتمام بجسمك وقلبك وبين الاهتمام بدنياك وأخراك: وهكذا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 27 - 30 : أسباب ضعف الإيمان5 - طول الأمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-01-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسباب ضعف الإيمان، هي طول الأمل أو الأمل بالأمد الطويل في الحياة الدنيا :

حينما يخطط الإنسان لعمر مديد، ولا يضمن هذا العمر ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: أنه من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، من هو المتأمل ؟ الذي ينسى الموت، ويغفل عن المغادرة، ويضع كل ثقله في الحياة الدنيا، هو يحلم، ويخطط لعشرين عاماً قادمة، والله الذي لا إله هو التقيت مع رجل ـ والقصة قديمة جداً ـ أنبأني عن طموحاته، سيغادر بلده إلى بلد في شمال إفريقيا، سيعمل مدرساً، وقال لي بالحرف الواحد: لن آتي إلى الشام قبل خمس سنوات، سأمضي صيفاً في أسبانيا، وصيفاً في بريطانيا، وصيفاً في إيطاليا، أطلع على تراثهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وحضارتهم، ومتاحفهم، وأعود إلى الشام بعد خمس سنوات، سوف أنشئ محلاً أبيع فيه التحف، وسوف يكبر أولادي، وسوف أجعل من هذا المحل منتدىً لي، وحدثني حديثاً طويلاً جداً، كأنه يخطط إلى عشرين سنة قادمة، هو يعمل في التدريس، كنت عنده في غرفته، وضيفني، وغادرت غرفته إلى درسي، وذهبت إلى البيت ظهراً، وعدت مساءً إلى المدرسة، وفي طريق العودة إلى البيت في اليوم نفسه فوجئت بنعوته، سبحان الله.

في اليوم نفسه فوجئت بنعوته قد ألصقت على الجدران، هذا يخطط للدنيا فقط، ولم ينتبه أن الموت يأتي فجأةً، وأن كل إنسان معرض لمغادرة الدنيا بلا سبب أحياناً، والآن كثر موت الفجاءة كثرةً تلفت النظر، فجأةً يغيب عن النظر، سكتة قلبية، أو سكتةٍ دماغية، أو احتشاء في القلب، أو إلى ذلك، أو حادث، فما دام الموت يأتي بغتة فلابد من أن أستعد له، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

[سورة آل عمران: الآية102]

فهذا الذي يفكر لثلاثين سنة قادمة مخطئ، النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد المربين، وإمام المعلمين علم أصحابه، وكان على أرض رملية، وبيده قضيب، فرسم مستطيلاً، وجعل هذا المستطيل عمر الإنسان، ورسم خطاً من داخل المستطيل، ومدده إلى خارج المستطيل لمسافة طويلة جداً، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ فِي وَسَطِ الْخَطِّ خَطًّا، وَخَطَّ خَارِجًا مِنْ الْخَطِّ خَطًّا، وَحَوْلَ الَّذِي فِي الْوَسَطِ خُطُوطًا، فَقَالَ: هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ الْإِنْسَانُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ عُرُوضُهُ، إِنْ نَجَا مِنْ هَذَا يَنْهَشُهُ هَذَا، وَالْخَطُّ الْخَارِجُ الْأَمَلُ))

[الترمذي]

كل واحد بذهنه أنه سيعيش إلى سنة متأخرة جداً، وسيفعل، وسيترك، وسيبني بيتاً، وسيذهب، ويسافر، ويأتي بالأموال، وقد يكون أجله قد دنا وهو لا يشعر، هذا شأن المؤمن ضعيف الإيمان، أما المؤمن فهو دائماً مستعد للقاء الله، يطبق قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

[سورة آل عمران: الآية102]

قال علماء التفسير: حق التقوى: أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

[سورة آل عمران: الآية102]

إذاً احرصوا يا عبادي على أن يأتيكم الموت وأنتم في طاعةٍ تامة لله عز وجل.

فطول الأمل يتناقض مع الإعداد للموت، والقصص ـ والله ـ حول أناس وضعوا كل ثقلهم في الدنيا، وتأملوا فيها أملاً مرضياً، وكيف فاجأهم الموت في أصعب الأوقات، وفي أحرج الأوقات، وفي وقت غير متوقع.

طول الأمل يسبب الغفلة عن الله عز وجل، والغفلة عن الله وراء كل معصية.

أذكر أن إنساناً يقود مركبته، فجأةً شعر بأزمة قلبية، وانكب على المقود، وزوجته إلى جانبه تصرخ، ومن غرائب الصدف أن صديقه وراءه في مركبةٍ أخرى، فخرج من مركبته، وحمل صديقه إلى المستشفى، ودخل في العناية المشددة، بعد أن صحا بعد يومين طلب آلة تسجيل، وشريط كاسيت، وقال: المحل الفلاني ليس لي، هو لأخي، والمكان الفلاني، والأرض الفلانية، شعر بدنو أجله، فبيّن أن كل الأموال التي اغتصبها في أثناء صحته في شريط، ولكن بعد أيام ذهبت هذه الجلطة، وتميع دمه، وشعر بنشاط شديد، فطلب الشريط، وكسره، وعاد إلى سابق عهده، بعد ثمانية أشهر بالضبط جاءت القاضية.

تأمل في الحياة أنه لا يوجد شيء، لماذا أعيد هذه الأموال إلى أصحابها ؟ أتمتع بها، وآخذ من ريعها، فالله عز وجل جعل الأزمة الأولى إنذارًا مبكرًا، فلما لم يرعوِ جاءته القاضية التي أنهت حياته.

الأمل مذموم عند الله، أما حينما آمل أن يرحمني الله فهذا محمود، هذا رجاء، أنا أرجو الجنة، أرجو السلامة، أرجو أن أرزق رزقاً حلالاً طيباً، أرجو زوجةً صالحة، أرجو أن يسخر الله لي شيئاً لأعمل عملاً صالحاً من خلاله، أرجو أن يجري الله على يدي خير الأعمال، هذا كله رجاء، وهذا مطلوب، أما حينما أضع كل ثقلي في دنيا عريضة، في دنيا غنية، في دنيا فيها شهوات، وفيها انحرافات، وأنسى

الموت، وأنسى المغادرة فأنا في حالة مرَضية، وأنا بهذه الحالة غافل عن حقيقة الإنسان، وهو بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وأجمل ما قال بعض الشعراء في هذا المعنى:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ما مضى فات، لا جدوى من الحديث عن الماضي، والمؤمل غيب، لا تملكه، لكنك لا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، وهناك بعض من يفصل في هذا الموضوع، أنت بين يوم مفقود هو الماضي، ويوم مشهود وهو الحاضر، ويوم مورود وهو الموت، ويوم موعود وهو يوم القيامة، ويوم ممدود في جنة أو في النار، هذا الإنسان أمام خمسة أيام، أخطر هذه الأيام على الإطلاق اليوم المشهود، والأيام القادمة يحددها اليوم المشهود، والبطولة لا في شباب العمر، بل في خريف العمر، لو أن الإنسان أمضى شبابه في طاعة الله أورثه الله خريف عمر متألقًا، لأن من أطاع الله حفظه، احفظ الله يحفظك، يا بني، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

الأمل المقصود منه أن أحلم بدنيا عريضة، وأن أغفل بهذا الحلم الممتع عن الموت، وعن عواقب الموت، وعن ما بعد الموت، وعن طاعة الله، وعن مصير الإنسان في جنة أو في نار، هذا هو الأمل الذي نحذر منه الإخوة الكرام المستمعين.

وهذا سبب من أسباب ضعف الإيمان، وبالتالي سبب من أسباب قسوة القلب عندما يتذكر المرء الموت، وما يؤول إليه مصيره يرق قلبه، لله سبحانه وتعالى ولمنهج الله سبحانه وتعالى، قسوة القلب سبب آخر من أسباب ضعف الإيمان.

هي سبب ومظهر في وقت واحد، لأن الإنسان بين رجلين، إما أنه متصل بالله، أو أنه مقطوع عنه، ولا حالة ثالثة لهذا، فالموصول يشتق رحمة في قلبه من الله، فيلين للناس، وتنعكس الرحمة ليناً، وينعكس اللين التفافاً حول الإنسان، أما إذا كان الإنسان مقطوعاً عن الله يقسو قلبه، والقسوة تنعكس غلظة وفظاظة، وتنعكس الغلظة انفضاضاً عنه، وكأنها معادلة رياضية، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

فالتفوا حولك.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

هذا عن الأمل، لكن هناك شيء يرافق الأمل، وهو من أسباب ضعف الإيمان، الإنسان حينما يكثر من متع الحياة، ويفرط في تناولها، مِن طعام وشراب ولباس فوق الحد المعقول، وفوق الحد المقبول، وفوق

الحد المتوازن، وفوق الحد المعتدل، والوسط، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[البخاري، الترمذي، ابن ماجه]

هو عندما يكون عبداً لهذه الشهوات انتهى عند الله، وسقط في عين الله، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتحطّمَ أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، فالنبي صلى الله عليه وسلم سماه تعيسًا شقيًا، لأنه عبد لبطنه، وعبد لفرجه، وعبد لمظهره، وعبد لدرهمه وديناره.

والشيء الدقيق في هذا الموضوع أن بعض الأدباء وصف صديقه فقال: كان لي صديق، كان مِن أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، فكان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلم بزّ القائلين، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً.

فعليك بهذه الأخلاق كما يقول الكاتب، فإن لم تحصلها فخذ بعضها، فإن أخذ القليل خير من ترك الكثير.

هذه معانٍ دقيقة وجميلة لهذه الحالة، إذاً ينبغي أن أكون معتدلاً حتى في طعامي، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف: الآية 31]

لو أن الله قال: لا تسرفوا في الأكل والشرب لانصرف الإسراف إلى الطعام والشراب، فقط أما حينما قال الله عز وجل وكلوا واشربوا ولا تسرفوا جاءت متأخرة عنها، إذاً هي مطلقة في كل شيء، حتى في المتع المباحة، الإسراف بها له مضاعفات لا ترضي صاحبها، والحقيقة أن الاعتدال وراء كل توازن، والمبالغة في الشيء وراء كل تطرف، ينبغي ألاّ يسرف، لكن العلماء صرفوا الإسراف في المباحات أما التبذير ففي المعاصي، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27))

[سورة الإسراء: الآية 27]

فالذي يسرف في المباحات مسرف أما الذي يبالغ في المعاصي والآثام مبذر، هناك فرق بينهما. قسوة القلب تأتي من المبالغة في الشهوات، ومباشرة هذه الشهوات من مأكل ومشرب وملبس وزينة، فمن أكل كثيراً شرب كثيراً، ونام كثيراً، وفاته خير كثير، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا

((كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَالَتْ: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ))

[أبو داود]

أي لما ازداد وزنها سبقها.

معنى هذا أنه كان محافظاً على لياقته عليه الصلاة والسلام، وهذه بطولة أن تحافظ على لياقتك، وأن تأكل باعتدال، وأن تنام باعتدال، وأن تستمتع كي يتنشط جسمك على طاعة الله أيضاً، وتكون يقظ الفكر.

بل إن الإنسان حينما يجعل همه التنعم بالحياة يكون قد خالف منهج الله عز وجل، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ بِهِ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[أحمد]

قد ينعم الله عليك، وقد يدخل على قلبك السرور، وقد يمتعك بالحياة الدنيا، أما حينما تجعلها أنت مبدأك، وتسعى لها وحدها فهذا هو الخطأ.

حينما يمشي الإنسان في الصحراء يحتاج إلى واحة من حين إلى آخر، ماء ظل ظليل، كل واحد منا بحاجة إلى هذه الواحة كي تعينه على متابعة السفر، أما حينما أجعل همي التنعم، وأجعل همي الاستمتاع بمباهج الحياة الدنيا دون أن أعبأ بسر وجودي، وغاية وجودي، فهذا تطرف، إذاً المبالغة في الطعام والشراب المباحة نوع من الإسراف الذي نهى الله عنه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 28 - 30 :علاج ضعف الإيمان1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-01

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن نتحدث عن علاج ضعف الإيمان لابد من أن نعالج قضية مهمة من قضايا الإيمان، وهي أن الإيمان يزيد وينقص، وقد جاءت آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى، وهناك بعض الأحاديث، فمن بعض الآيات:

(لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ)

[سورة الفتح: الآية 4]

ومن الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم))

[الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو]

وقد يسأل: سائل كيف يزداد الإيمان وكيف ينقص ؟ لو أن الإيمان حقائق نؤمن بها فالإيمان حينئذ حدّي، لا يزداد ولا ينقص، أما إذا كان الإيمان فضلاً على أنه حقائق نصدقها، ونعتقدها إنما هو وجهة إلى الله، واتصال به، هذه الوجهة، وهذا الاتصال يزداد وينقص، فبعض العلماء قال: لا يجوز أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لأن الإيمان حدّي، أنا مؤمن أن الله خالق السماوات والأرض، وأن الله بيده الأمر كله، وأن الله عز وجل خلقنا، وأن الله سيميتنا، وسيحيينا، هذه بنود حقائق الإيمان، ولكن الإيمان فضلاً عن هذا الاعتقاد الثابت الذي لا يزيد ولا ينقص، إنه اتصال بالله، ووجهة إليه، فالإنسان بين إقبال وفتور، بين تألق وعدم تألق، فإذا وردت الآيات في معرض أن الإيمان يزداد فمن هذا القبيل، فعقب كل عمل صالح ترقى إلى الله، تذوق طعم القرب منه، تشعر بقيمتك كإنسان، تشعر أنك في مرتبة يحبك الله فيها، إذاً أنت قريب من الله، لأن الإيمان في الأساس تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض، والتصديق والتكذيب حدي، التصديق حدي يعني لا يزيد ولا ينقص، محدود محدد.

أنت تقول: الله خلق السماوات والأرض، لا يوجد حالة وسط بينهما، لا يوجد حالة أشد، أما حينما تؤمن أنه خلق السماوات والأرض، وأن مصيرك إليه، ماذا الآن ؟ تعمل صالحاً من أجل التقرب منه، إذاً الإيمان يزداد من حيث إنه اتجاه إلى الله، وإقبال عليه، ومعرفة به، وتنعم بقربه، وينقص حينما يعرض الإنسان عن ربه بمعصية، أو بعيب خلقي منه، حجب عن الله عز وجل، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ))

[متفق عليه]

لا يمكن أن تستحضر عظمة الله عز وجل، وتكون مقبلاً عليه تقع في معصية كهذه المعصية، لكن حينما يغفل الإنسان عن ربه، وتقوى شهواته، وفي ساعة غفلة قد يقترف معصية، وسوف يحاسب عليها حساباً عسيراً.

الذي أتمنى أن يكون واضحاً هو أن الإيمان مادام تصديقاً، وحقيقة كبرى في الحياة هذه الحقيقة فجب أن تغنى، لا أن تزداد، أن تغنى، كيف تغنى هذه الحقيقة ؟

أنت مؤمن أن الأمر بيد الله عز وجل، لكن كل آية كونية، أو كل حقيقة علمية، أو كل حدث، أو كل قصة، هذه يمكن أن تعمق إيمانك بأن الله بيده كل شيء، وما قصة يوسف عليه السلام، وهي من أطول قصص القرآن إلا من أجل أن تعمق، وتغني إيمانك بأنه لا إله إلا الله، قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21))

[سورة يوسف: الآية 21]

أيها الأخ الكريم، القضية قضية توحيد، فكل الناس يؤمنون بأن الله خلق الكون، ولكن القضية الأساسية في الإيمان أن ترى أن الله فعال، وليس خلاقاً فحسب، الأمر بيده، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: الآية 84]

حينما توقن أن كل شيء خاضع له، وخاضع لأمره، وخاضع لحكمته، تتجه إليه وحده، أريد أن أربط الآن بين قوة الإيمان وقوة الاتجاه إليه، أنا حينما أوقن أن أمري كله بيده، وأن صحتي، وزوجتي، وأولادي، وعملي، ومن حولي، وأصدقائي، وأعدائي، كلهم بيد الله، كيفما شاء حركهم، إما أن يحركهم إيجاباً أو سلباً، أنا حينما أوقن أن الأمر كله بيده أنا مضطر بحكم فطرتي وجبلتي أن أتجه إليه وحده، إذاً حاولت أن أربط بين المعرفة النظرية وبين الحركة العملية، فكلما تعمقت معرفتنا بالتوحيد انعكس التوحيد إخلاصاً في الوجهة والعمل، وكلما ضعف الإيمان بأن الله فعال، وليس خلاقاً فقط تفلت الإنسان من الوجهة إلى الله عز وجل.

الأمر بسيط جداً، أنت إذا دخلت إلى دائرة، وتحتاج أن تأخذ موافقة من هذه الدائرة على سفر، أنت إذا علمت أن كل هذه الدائرة بكل طوابقها وموظفيها لا يستطيع واحد من هؤلاء أن يمنحك الموافقة إلا المدير العام، عندئذ تتجه إليه وحده، أما إن قيل لك: إن فلاناً يوقع لك هذه الموافقة، أو فلان أو فلان، أنت حينما اهتزت ثقتك بالمدير العام، ورأيت من يحل محله، أو من ينوب عنه بالتوقيع تتجه إلى هؤلاء الصغار، عندئذٍ هذه القضية بكل بساطة محل سذاجة منك، حينما يتعمق فهمي أن الأمر بيد الله وحده لا أتجه إلا إليه، ولله المثل الأعلى.

أما حينما أتوهم أن جهات في الأرض كثيرةً بيدها الأمر والنهي، بيدها العطاء والمنع، بيدها الإعزاز والإذلال، بيدها القوة والضعف، عندئذ أتوجه إليها، فما من ربط أروع من هذا الربط، حينما تؤمن أن الأمر بيد الله وحده، وتتجه إليه وحده، فالإيمان إيمان ووجهة، اعتقاد وإقبال، تصور واتصال، هذا هو الإيمان، يبدو أن الاتصال بالله والإقبال عليه هذا الذي يزيد وينقص، ولكن الآن قلت: يزيد، إذا كان اعتقادك أن الأمر بيد الله وحده، وينقص إذا توهم الإنسان أن هناك شركاء يفعلون، ويأمرون، ويعطون، ويمنعون، لذلك قالوا: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لذلك قال الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء: الآية 213]

كل ما في القرآن من قصص من أجل حقيقة واحدة، أن الأمر بيد الله وحده، سيدنا موسى قال تعالى:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

[سورة القصص: الآية 7]

معنى ذلك أن هذا الصندوق الخشبي الذي فيه غلام ولد حديثاً من يسيره ؟ أراد الله في كل قرآنه، وأراد النبي عليه الصلاة والسلام في كل أحاديثه أن يؤكد على هذه الحقيقة الأولى، وهي أن كل الحقائق مجتمعة فيه.

المذيع:

والأخذ بالأسباب هنا فضيلة الشيخ هل هو يضعف الإيمان، أو يضعف الاتجاه ؟

الأستاذ:

ذلك بأن الأخذ بالأسباب والاعتماد عليها هو الشرك، وعدم أخذها هو المعصية، دقق، لابد من أن تأخذ بها، وكأنها كل شيء، ولابد من أن تعتمد على الله، وكأنها ليست بشيء، أعود إلى حلقة سابقة، من السهل جداً أن آخذ بالأسباب كما يفعل الغربيون، وأؤلهها، وأعبدها من دون الله، وأجعلها تعطيني الراحة الكلية، على أنني أخذت بها، ولم يحدث إلا شيء يرضيني، هذا شرك، ومن السهل جداً أن أكون كأهل المشرق، أن أدع الأخذ بالأسباب، وأن أتوكل على الله جهلاً وتواكلاً وضعفاً، هذا مرفوض، مرفوض أن تأخذ بالأسباب، وأن تتكل عليها، وأن تعتمد عليها، أو أن تؤلهها، ومرفوض ألاّ تأخذ بها، والحالتان سهلتان جداً، لكن البطولة أن تأخذ بها، وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على، الله وكأنها ليست بشيء، كأن هذا الطريق العظيم طريق عن يمينه وادٍ سحيق، وعن شماله وادٍ سحيق، عن يمينه واد الشرك، فإن أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها فقد أشركت، وعن يساره وادي المعصية، فإن لم تأخذ بها فقد عصيت، فكأنني بأهل الغرب يأخذون بها، ويؤلهونها، ويعتمدون عليها، وينسون الله عز وجل، وكأني بأهل المشرق لا يأخذون بالأسباب، ويزعمون جهلاً منهم أنه توكلوا على الله.

أما الفهم الدقيق جداً، أن سيدنا عمر رأى رجلاً يتسول قال،: من أنت ؟ قال: أنا متوكل على الله، فقال له: كذبت، المتوكل من ألقى حبةً في الأرض، ثم توكل على الله.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا، وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا، وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي]

هذه أخطر نقطة في حياة المسلم، يجب أن نأخذ بالأسباب، وبعدها نتوكل على الله، أما أن ندع الأخذ بالأسباب، ونقول: نحن مقصرون، نحن منتهيون نحن... فهذا كله كلام مرفوض، أو نحن مسيرون إلى خير أو شر.

الله عز وجل يلومنا، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ

((أَنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْن، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْس، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود، أحمد]

أنا أقول: أنا مستسلم لمصيري إذا غلبني الأمر، أما إذا كان بإمكاني أن أعترض، أن أقدم اعتراضاً، أن أسعى، أن أتصل، أن أتحرك، هذا كله واجب، لأن سيدنا عمر حينما أمر جيشه ألاّ يدخل الشام، وفيها طاعون، فقال له بعضهم: أتفر من قضاء الله ؟ فقال: نعم، أنا أفر من قضاء الله إلى قضاء الله، إن كان عندك غنم، وهناك أرض مخصبة، وأرض مجدبة إن رعيتها في المخصبة رعيتها بقضاء الله، وإن رعيتها بالمجدبة رعيتها بقضاء الله، فأنا أفر من قضاء الله إلى قضاء الله.

هذا الفهم الدقيق للتوحيد ينعكس إخلاصاً في الوجهة، ينعكس قوةً في الإيمان، إذاً ما من ضعف في الإيمان إلا يقابله ضعف في التوحيد، أنا لا أتجه لغير الله إلا إذا توهمت أن غير الله بيده الأمر، أما حينما أوقن أن الأمر بيد الله وحده لا أتوجه إلا إليه.

وكم يقوى إيمان المسلم عندما يستذكر حديث الله صلى الله عليه وسلم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي، أحمد]

أستاذ زياد لو استعرضنا بعض آيات التوحيد فهي مذهلة:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

[سورة فاطر: الآية 2]

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: الآية 84]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ (123))

[سورة هود: الآية 123]

(لَهُ مَقَالِيدُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الزمر: الآية 63]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

[سورة الكهف: الآية 26]

دقق:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: الآية 54]

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر: الآية 62]

(فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

[سورة محمد: الآية 19]

آيات التوحيد كثيرة جداً، بل إن أكثر الذين آمنوا بالله تلبسوا بالشرك الخفي، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

[سورة يوسف: الآية 106]

لمجرد أن تعتقد أن جهةً غير الله يمكن أن تنفعك، أو أن تضرك، أو أن تعطيك، أو أن تمنعك، أو أن ترفعك، أو أن تخفضك، أو أن تعزك، أو أن تذلك، مجرد هذا الوهم هو عين الشرك، أما الإيمان فألاّ ترى مع الله أحداً، وأن يد الله تعمل وحدها، وأنه ما من شيء إلا بيد الله، ومن آيات الله الدالة على هذه الحقيقة، ونحن في أمسّ الحاجة إليها قوله تعالى:

(حَتّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ)

[سورة يونس: الآية 24]

هناك قوى عظمى في العالم تتوهم أنها قادرة على تدمير أي مكان في العالم، وأن أي مكان في الأرض تحت سيطرة أقمارها الصناعية، وتحت سيطرة مدافعها الفتاكة، هذا الشعور يعطيها غطرسة لا يحتمل، يقول الله عز وجل:

(حَتّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّيّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا أَنّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (24) وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السّلَامِ)

[سورة يونس]

قيل أيضاً: عرفت الله من نقض العزائم، الله كيف يؤدب عباده المشركين به ؟ يؤدبهم حيث يبطل عمل الأسباب أحياناً، أو يأتي بالنتائج بلا أسباب، وإن الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((... إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

أما أن أستسلم كما تفضلتم قبل قليل لمصيري دون أن أتحرك فهذا جهل بالدين، لو دخل لص إلى البيت، ماذا تقول ؟ تقول: هذا أمر الله، لابد من أن تقبض عليه، وأن تتصل بالشرطة، هذا الموقف الواقعي والعملي.

إذاً الإيمان يزيد وينقص في هذا المجال، في الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى، وسبب زيادته أو نقصه التوحيد إما قوة في التوحيد، أو ضعف في التوحيد، أجمل آية في هذا المعنى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء: الآية 213]

بل إن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى أن ترتفع معنوياتهم، الحقيقة أنّ الخطورة ليست أن نهزم، أخطر شيء أن نهزم من الداخل، الإنسان في الحياة كر وفر، ولكن حينما نستجدي، ونتطامن، ونيأس نكون قد وقعنا في شر مصيبة، فلا بد من رفع المعنويات.

مثلاً، قال تعالى:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

[سورة إبراهيم: الآية 46]

إله عظيم يقول:

(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

[سورة إبراهيم: الآية 46]

يعني أنّ خطط أعداء المسلمين مخيفة جداً، وفي آية لا تزيد عن كلمات عن كلمتين أو ثلاث يقول الله:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: الآية 120]

كل هذا المكر الذي تزول منه الجبال يلغيه الله بشرطين:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

هذا يملأ القلب ثقةً بالله عز وجل، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

[سورة آل عمران: الآية 139]

نحن بحاجة إلى أن تقوى معنويات المؤمنين، الله عز وجل لن يترنا أعمالنا، لن يتخلى عنا، إلا أن هناك قانوناً بسيطاً جداً، قانون التولي والتخلي، إن قلت: الله، تولاك بالرعاية، والحفظ، والتأييد،

والنصر، وإن قلت: أنا بخبراتي، بمكانتي، بشبكة اتصالاتي، بمالي، بعلمي، بعلاقاتي، بزيد أو عبيد، إن قلت: أنا، تخلى الله عنك، وكيف لا، وقد تخلى الله عن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم في حنين، قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

[سورة التوبة: الآية 25]

أما في بدر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ)

[سورة آل عمران: الآية 123]

أنا أقول: هذا قانون: إن قلت: الله، وافتقرت إليه تولاك، وإن قلت: أنا معتمداً على إمكانياتك وحدها تخلى الله عنك، فأنا في اليوم الواحد بين التولي والتخلي، بين أن أتجه إلى الله مفتقراً إليه، وبين أن أعتد بخبرتي، أو قدرتي، أو مالي، أو مكانتي، أو علمي، أو إلى ما ذلك، فيتخلى الله عني.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 29 - 30 :علاج ضعف الإيمان2- معرفة الخالق.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام علي كرم الله وجهه يقول: **" أصل الدين معرفته "**، الدين فيه أصول وفروع، فروعه لا تعد ولا تحصى، لكن أصل الدين أن نعرف الله، لأن الإنسان مفطور على حب وجوده، وحب سلامة وجوده، وحب كمال وجوده، وحب استمرار وجوده، حينما يعتقد أن سلامة وكمال واستمرار وجوده أساسه أن يعرف خالقه، ويطيع أمر خالقه، اتجه إلى هذا الاتجاه الصحيح، فأصل الدين أن نعرف الله، بل إن مشكلة الكفار وهم في النار، مشكلة الجهل:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

أنا أقول: ليس العار أن يكون الإنسان جاهلاً، ولكن العار أن يبقى جاهلاً، وليس العار أن يكون الإنسان مخطئاً، ولكن العار أن يبقى مخطئاً، الإنسان أودع الله فيه قوة إدراكية، قوة إدراكية يتميز بها عن بقية المخلوقات، فإن عطلها، أو استخدمها لغير ما خلقت له فقد ألغى إنسانيته، لأنك إنسان ينبغي أن تدرك، ما الحقائق الذي ينبغي أن تدركها ؟ بالمناسبة النبي الكريم دعا الله عز وجل، واستعاذ به من علم لا ينفع، نحن أمام ركام من المؤلفات والقصص والمسرحيات، والكتب الأدبية والعلمية، والثقافية والتاريخية، وأن ما يطبع في اليوم الواحد باللغة الإنكليزية فقط لا يمكن أن يقرأ في مائتي عام، لابد من الاصطفاء، أنت في مكتبة ممتلئة كتباً في كل رفوفها، وعندك امتحان مصيري بعد أيام، ومادة أساسية جداً، ولها كتاب مقرر، هل من العقل أن تقرأ قصة في هذه الأيام الثلاثة ؟ أم أن تقرأ كتابًا مقررًا ؟ أنا أقول: لابد من الاصطفاء مادام العلم أساسي، وأنا أودع الله في قوة إدراكية، أدرك ماذا ؟ يوجد مليار موضوع يمكن أن أدركه، أنا مكلف أن أدرك الموضوع المصيري، الذي يحدد مصيري، الموضوع الذي يحقق سعادتي، الموضوع الذي يحقق سلامتي، أبدأ بالاصطفاء، لابد من أن تصطفي، هذا الذي يعيش هكذا استرخاء من دون اهتمام، من دون تخطيط، دون اصطفاء، دون تميز، هذا إنسان خارج الحياة، هذا مهمّش، أما المؤمن فيصطفي الكتاب الذي ينبغي أن يقرأه، يصطفي الموضوعات التي ينبغي أن يهتم بها، يصطفي الأصدقاء الذين ينبغي أن يعاشرهم، لابد من أن يصطفي، أودع الله في قوة إدراكية، وأنني بهذه القوة الإدراكية أتميز عن بقية المخلوقات، أنا إنسان لأنني أدرك، فحينما أدرك مالا ينفعني، أو مالا يسعدني، أو يسلمني فأنا لست من بني البشر، وقد قال الله عز وجل:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون)

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)

(سورة المدثر)

هذه كلها في القرآن الكريم، مرة:

(حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)

مرة:

(خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

مرة:

(كَالأَنْعَامِ)

مرة:

(كَالْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)

لأنه عطّل قوة إدراكية، عطّل ما ميزه عن بقية المخلوقات، إلا أنه عطلها، أو أنه استخدمها في غير ما خلقت له، اشتغل بعقله للإيقاع بين الناس، أو لجمع أموال طائلة، أو لارتكاب حماقات مسلية له أحياناً، فأنا أؤكد على استخدام القوة الإدراكية، أن تستخدم العقل فيما خلق له، أن تستخدمه لمعرفة الله، وأقول لكم دائماً: الإنسان حينما يحب ذاته يسعى لسلامتها وسعادتها، ولو شققت على صدر ستة آلاف مليون من بني البشر الآن فلا يمكن إلا أن يكون كل واحد من هؤلاء من دون أن يشعر يسعى لسلامته وسعادته، فالفرق فرق علم، هذا ظن أن النار هي إله، فعبدها من دون الله، وهذا ظن أن هذا الصنم إله، فعبدها من دون الله، وهذا ظن أن البقر إله، فعبدها من دون الله، ونحن المسلمين ـ والحمد لله ـ عرفنا أن خالق الكون هو الإله، فاتجهنا إليه، فإذاً لابد من قوة إدراكية مسخرة للإيمان، لأن الإنسان حركته في الحياة أساسها تصور، لماذا يسرق السارق ؟ لأنه تصور أنه رابح بالسرقة، لماذا يزني الزاني ؟ لأنه يمتع حواسه بهذا الزنى، ما الذي حمل السارق على أن يسرق ؟ جهله بالله، ما الذي حمل الزاني على أن يزني ؟ جهله بالله، أكاد أقول: إن الجهل بالله وراء كل انحراف.

عندنا في الشام الأمن الجنائي له قاعدة عالمية: ابحث عن المرأة وراء كل جريمة، في الأعم الأغلب هناك امرأة وراء كل جريمة، أنا أضع قاعدة قياساً عليها: ابحث عن المعصية في كل مشكلة، لأن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة عليمة، علاقة سبب بنتيجة، الفرق بين الطقوس وبين العبادات، الفرق بين أوامر دين وضعي وبين أوامر خالق الأكوان، أمره مرتبط بالنتيجة ارتباطًا علميًا، كيف أني إذا وضعت يدي على مدفأة مشتعلة تحترق يدي، هناك علاقة علمية بين وضع اليد واحتراقها، أما حينما أقول لإنسان: اخرج من هذا الباب، فإذا خرج من هذا الباب عاقبته، لا يوجد علاقة علمية بين خروج إنسان من باب ممنوع منه، وبين باب سمح له، العلاقة وضعية، أما هنا فالعلاقة علمية، أنا مؤمن أن العلاقة بين كل أمر إلهي ونتائجه علاقة علمية، وأن العلاقة بين كل نهي ونتائجه علاقة علمية. فحينما أبحث عن معرفة الله، وأبحث عن منهجه أنا أقوم بعمل علمي في أعلى مستوى، لأن هذا الدين دين الله، دين أساسه التعلم والقوانين، فلابد من معرفة الله أولاً، وهي أساس كل شيء، وكنت أقول دائماً: إذا عرفت الآمر تفانيت في طاعته، أما إذا عرفت الأوامر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من هذا الأمر.

المذيع:

هذه دعوة لإعمال العقل في كل أمر، وعلى رأس هذه الأمور إعمال العقل في معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

الأستاذ:

أخ زياد، هل تصدق أن الآيات المتعلقة بالعلم ومشتقات العلم تقترب من ألف آية !

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68))

(سورة يس)

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44))

(سورة النحل)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ)

(سورة الغاشية)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة الصافات)

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6))

(سورة الزمر)

آيات كثيرة جداً تؤكد أن الإنسان ينبغي أن يعقل الحقيقة الكبرى، وهي أن الله خلقه ليسعده، توجد أفكار تعطي ظلال قاتمة، يقول: سبحان الله ! يسبح الله على عيبه، أن الله خلقنا للعذاب، قد تكون أسرة معذبة،

دخلها قليل، أمراض، فتظن أن هذا شيء مقصود من الله، مصمم، هذا ضعف إيمان، أنا كمدير مدرسة يمكن أن أعاقب طالبًا، لكن هذه المدرسة لم تنشأ لمعاقبة الطلاب، ولا لضربهم، بل لتعليمهم.

المذيع:

هذا مثل يقرب الصورة.

الأستاذ:

هذه المركبة لماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير، لكن فيها مكبح، المكبح أخطر ما فيها، وهو ضمان لسلامة ركابها، هي مصممة كي تسير، والمكبح مهمته إيقاف السير، فأنا أقول: المصائب كالمكابح، ضمان لسلامة الإنسان، الفهم للدين فهم مهم جداً.

كنت أقول مرة: أحدهم كان يمشي في فلاة، رأى لوحة مكتوب عليها: انتبه، حقل ألغام، هل يشعر بحقد على واضع هذه اللوحة ؟ أبداً، بالعكس يمتنّ له، هو لا يراها حداً لحريته، بل ضمان لسلامته، عندما يضع وزير الكهرباء لوحة أمام تيار عالي التوتر، ممنوع الاقتراب من التيار، هل هذا حد لحريته، أم ضمان لسلامته ؟ هكذا الفهم، فأنا حينما أفكر، وأتعرف إلى الله أصل إلى كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، وإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء.

وفي بعض الأحاديث القدسية الصحيحة عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا، لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم في صحيحه]

أنا بحاجة إلى معرفة الله كي أعرف لماذا خلقني ؟ ما مهمتي في الحياة ؟ ماذا جاء بي إلى الدنيا، لماذا جعل العمر محدوداً ؟ لماذا الإنسان يعيش أربعين سنة يهيئ حياته، و يبقى له في حياته عشرون سنة ؟ يوجد سر ! الذي يعيش هكذا بعيداً عن الحقائق إنسان تائه شارد ضال.

أول حركة في تقوية إيماني أن أعرف الله عز وجل، هناك في الدعوات إلى الله خطأ استراتيجي، يعلّمون الطالب فقط الأوامر والنواهي، ما عرف من هو الآمر، ولا من هو الناهي، لابد من أن تعرف الله حتى تأخذ الأمر مأخذ اهتمام، ومأخذ جد.

ذكرت في حلقات سابقة عن معرفة الله التي تتم عن طريق الكون، لأن هذا الكون يجسد أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، قال تعالى

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس)

(وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20))

(سورة الذاريات)

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105))

(سورة يوسف)

في القرآن ألف وثلاثمئة آية كونية تحضنا على التفكر في خلق السماوات والأرض، هذه العبادة شبه معطلة، ما معنى أن يكون ثلث القرآن آيات كونية ؟ من أجل أن نتفكر فيها، وأن نعرف الله عز وجل، لأن أكثر الناس يعبدون الله على حرف، أقل ضغط أو إغراء يخرج من الدين، أما المؤمن الذي يعرف الله في الأعماق فيقول:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

(السيرة النبوية لابن هشام)

هذه المواقف الصلبة تحتاج إلى معرفة بالله عز وجل، أما المواقف الهشة والمقاومة الهشة والعبادة على حرف فهذه من محصلات ضعف الإيمان.

المذيع:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي، بعض ضعفاء الإيمان يتساءلون تساؤلات كثيرة، تدل على

عدم معرفتهم بالله سبحانه وتعالى، كيف يمكن أن يقوى إيمان هؤلاء بما أننا في معرض الحديث عن علاج ضعف الإيمان من خلال معرفة الله سبحانه وتعالى ؟

الأستاذ:

الله جل جلاله لا يتعامل مع التمنيات، كل الناس يتمنون قوة الإيمان، ويتمنون طاعة الرحمن، ويتمنون الفوز بالجنة، والنجاة من النار، هذا التمني لا قيمة له إطلاقاً، لأن الله عز وجل يقول:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء)

الله عز وجل لا يتعامل مع التمنيات إطلاقاً، والتمنيات بضائع الحمقى، فماذا يقول ؟ يقول:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

(سورة الإسراء)

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت)

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال)

المؤمن إذا ما أخذ موقفًا عمليًّ في حياته، في بيته مئات المعاصي، وفي عمله مئات المعاصي، إذا ما أخذ موقفًا حازمًا، ولم يقم بمراجعات لحياته عن مخالفاته في بيعه وشرائه، المخالفات في بضاعته، وفي كسب المال، أو في تربية أولاده، فهذا المؤمن مهمّش، كما قلت قبل قليل، أما حينما أعرف الله فلابد من أن تنعكس معرفتي بالله حركة داخلية، جرد، متابعة، تمحيص، تدقيق، تأمل، هذه حرام، هذه حلال، هذه تجوز، هذه لا تجوز... أما الإنسان حينما يضعف اتصال الإنسان بالله عز وجل يعيش مع التيار العام:

وما أنا إلا من غَزَيّة إنْ غوَتْ غويتُ وإنْ ترشد غَزَيّةٌ أرشدِ

هل يمكن لمصمّم أزياء بفرنسا أن يحدد للمسلمين ثيابًا نسائية ؟ يجعلها تارة فاضحة، وتارة ضيقة ؟!

وما أنا إلا من غَزَيّة إنْ غوَتْ غويتُ وإنْ ترشد غَزَيّةٌ أرشدِ

أنا مع العصر، مع أحدث صرعات الأزياء، ومع ما يجري في العالم، مع كل القنوات وكل البرامج، وكل المسلسلات، هذا المسلم المعاصر، مسلم لا شخصية له، هو عبد لبيئته، وعبد لمعطيات الحياة، وعبد لظروفه، لكن ليس كل حركاته ردود فعل، لكن ما عنده فعل، المؤمن يفعل، قد يضع تحت قدمه شيء ثمين جداً إذا كان يغضب الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات إذاعية - إذاعة القرآن الكريم - طريق الهدى - الحلقة 30 - 30 :علاج ضعف الإيمان3- معرفة المنهج الإلهي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-02-03

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية علاج ضعف الإيمان تحدثت في الحلقة السابقة عن أن معرفة الله شيء أساسي جداً في علاج ضعف الإيمان، واليوم ننتقل إلى شيء آخر.

أنت حينما تتعرف إلى الله ترغب أن تتصل به، وتقبل عليه، وتطيعه، وترضيه، وتكون معه، ما الوسائل الذي تجعلك تقترب منه ؟ الطريق طبيعي، أنت حينما تعجب بإنسان تحب أن تتقرب منه، ولله المثل الأعلى، بهدية بخدمة ابنه، بكلمة طيبة، بباقة ورد، بهدية ثمينة، لابد من وسيلة كي تتقرب من الله، آية دقيقة جداً تلخص القرآن كله، يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف)

هذا هو المعتقد والمنطلق النظري في الدين، هذا هو الاعتقاد، والجانب العلمي في الدين، هذه هي العقيدة.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

الآن دقق:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

من عرف هذه الحقيقة: ليس في الكون إلا الله، أسمائه حسنى صفاته فضلى، ذات علية، كامل كمال مطلق، خلقنا ليسعدنا، من عرف هذه الحقيقة الكبرى، ماذا ينبغي عليه أن يفعل ؟ أن يتحرك نحو الله بشكل أو بآخر.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ)

نقطتان.

الآن القرآن كله ملخص بهذه الآية:

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

للكون مسير واحد فقط، معطي ومانع، وخافض ورافع، ومعز ومذل، ومسعد ومشق، واحد لا إله غيره أبداً.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

الآن أنتم إن أدركتم هذه الحقيقة:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

هنا تؤكد الآية أنه لابد من حركة نحو الله، وإلا فلا قيمة لهذا الإيمان، ذلك أنك إذا آمنت أن الشمس ساطعة، وأن جلدك بحاجة ماسة إلى أشعة الشمس، ماذا ينفعك أن تعترف أنها ساطعة إن لم تتعرض لها؟ ماذا ينفعك أن تؤمن أن الله موجود، وأنه إله ؟ إن لم تتحرك نحوه، أو تقبل عليه، أو تطع أمره.

فالإيمان الصادق ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق.

الآن هذه الحركة إما أن تكون عشوائية، كما في بعض حلقات الدين غير منضبطة، لأننا نؤمن أن العمل الصالح الذي تحدث الله عنه في القرآن لا يكون صالحاً إلا بحالتين، إلا إذا كان خالصاً، وكان صواباً، خالصاً ما ابتلي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، بل إنني عثرت على تفسير رائع لآية من أدق الآيات يقول الله عز وجل:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن)

المفسر قال: كل من عليها فان، ولا يبقى من هذه الدنيا كلها إلا عمل ابتغي به وجه الله سبحانه.

المذيع:

هذا ما أريد بقوله سبحانه وتعالى:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

الأستاذ:

يبقى عمل أريد به وجه الله، لأن فاعل الخير خير من الخير، نيته، خيره يفنى عند قيام الساعة، أنشأ مشفى، أو مدرسة، أو جامعة، انتصر على عدو، حرر أرضًا، انتهى عند قيام الساعة، وفاعل الشر ينتهي كل شره عند قيام الساعة، ألقى قنبلة على هيرويشيما، مات بها ثلاثمئة ألف في ثوان معدودة، لو لم تلقَ لماتوا الألف عند قيام الساعة، فكل شر ينتهي، وكل خير ينتهي، ما الذي يبقى ؟ يبقى فاعل الخير بنيته، وفاعل الشر بنيته، هذا يسعد بنيته إلى أبد الآبدين، وهذا يشقى إلى أبد الآبدين، فلذلك ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، لكن حركة منضبطة بمنهج الله.

المذيع:

كيف يتعرف ضعيف الإيمان على منهج الله كي يقوي إيمانه ؟

الأستاذ:

الآن إذا عرف الله، وأنه هو الغاية، وهو الهدف، وهو المقصود، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، لابد من التحرك نحو الله عن طريق تطبيق أمره ونهيه.

نحن متى نعالج الضغط المرتفع في أجسامنا ؟ حينما نعلم أن ضغطنا مرتفع، فمعرفة الضغط المرتفع أول خطوة لمعالجتنا، إذا لم يقس ضغطه لا يعالجه، أنا كيف أتقرب إلى الله ؟ بأمره، كيف أعرف أمره؟ هنا موضوع هذا اللقاء، لابد من معرفة أمره، المؤمن الصادق لا يشغله شيء إلاّ الذي ينبغي أن يفعله ؟ ما حكم هذا الشيء، هو حلال، أم حرام، أم مباح ؟

المذيع:

تتحدثون عن العلم بالفقه.

الأستاذ:

الوسيلة الوحيدة إلى التقرب إلى الله تطبيق أمره ونهيه، والأمر والنهي عند علماء الفقه.

طلب الفقه حتم واجب أنت بقدر معرفتك بالله ومحبتك له وخوفك منه تبحث عن أمره بالمناسبة المؤمن الصادق قلبه لابد من أن تجتمع فيه مشاعر التعظيم ومشاعر الخوف ومشاعر الحب ورد في الأثر القدسي قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلا أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

لابد من أن تذكرهم بآلائي كي يعظموني، ولابد من أن تذكرهم بنعمائي كي يحبوني ولابد من أن تذكرهم ببلائي كي يخافوني، لمجرد أن تعرف الله لا شيء يعلو عندك على معرفة أمره ونهيه كيف أتقرب إليه ؟

بشكل مبسط: رجل معه مئات ألوف الملايين وكريم جداً يقول لك أحدهم: كيف أصل إليه ؟ كيف أتعرف عليه ؟ كيف أدخل بيته ؟ كيف أسأله ظ فأنت حينما تدرك عظمة الله تبحث عن طريق إليه.

بالمناسبة هناك رجال أقوياء في الحياة قد يكون الأمر كله بيدهم لكن لا طريق لهم ولا سبيل إليهم، لكن الطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الله عز وجل بيده كل شيء وهو يسعد كل مخلقو، ولكن هو رسم إلينا آلاف الطرق إليه، ببيتك في طريق له أن تكون زوجاً صالحاً، والمرأة الصالحة طريق إلى الله، وأن تكون ابناً باراً طريق إلى الله، وأن تكون صانعاً متقناً صادقاً طريق إلى الله، وأن تكون تاجراً رحيماً بالخلق ومعتدلاً في أسعارك طريق إلى الله، وأن تكون طبيباً ومهندساً ومعلماً وأي حرفة من الحرف المشروعة إذا أتقنتها وابتغيت بها وجه الله كفاية أهلك وخدمة المسلمين تكون طريق إلى الله.

الآن عرفت الله كيف أصل إليه ؟ عرفت أن في هذا القصر كنز أين الطريق إلى هذا القصر ؟ هو معرفة الأمر والنهي، معرفة أحكام الفقه، نحن عندنا فرض وحرام، الفرض تتوقف سعادتي على تطبيقه، وعندنا محرم سبب الشقاء الدنيوي والأبدي على طرفي نقيض بعد الفرض يوجد واجب ومباح ومكروه ومحرم، لا يوجد شيء في الحثاة ولا نشاط في بني البشر إلا ويعتبره أحد هذه الأحكام الخمسة، فرض واجب مباح مكروه حرام، حرام يشقيني، الفرض يسعدني، الواجب يحسن سعادتي، والمكروه يخفف شقائي، فأنت حينما تؤمن بالله يجب أن تعتقد أن كل شيء تعتبره الأحكام الخمسة، فرض واجب مباح مكروه حرام

كما تعلم بكل حركة من حركاتك اليومية ما علاقتها بالشرع ؟ حلال أم حرام مكروه أم واجب مباح ؟ وأطبق منهج الله، الآن أصل إليه، وهنا العبرة، عرفته بالكون وبالقرآن وبأفعاله وصلت إليه بالشرع، لذلك قالوا: بالكون تعرفه وبالشرع تعبده.

لذلك ورد في بعض الأحاديث: طلب الفقه حتم واجب على كل مسلم، ولو تلاحظون الآيات القرآنية في مكة كلها كونية لمعرفة الله، أما الآيات في المدينة كلها تشريعات، فكأن الله عز وجل جعل ثقلين كبيرين في الدين معرفته ومعرفة منهجه، بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً قاطبة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

العقيدة.

(فَاعْبُدُونِ (25))

السلوك، جانب علمي، جانب سلوكي، الأنبياء جميعاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

فحياة الإنسان عقيدة وعمل، كما قال شوقي:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد

اعتقاد وحركة، إيمان وسلوك، تصور وفعل، جانب اعتقادي نظري، وجانب سلوكي عملي.

المذيع: فضيلة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي نقطة أخيرة في هذا الحوار هل التساؤل عن الغيبيات والانشغال عن الغيبيات يضعف الإيمان والابتعاد عن هذا الأمر ؟ يقوي الإيمان ؟ هنا البعض يتزعزع بين هذين الأمرين.

الأستاذ: هل من الممكن أن أفهم منكم ماذا تعنون بالغيبيات ؟

المذيع: الغيبيات الآخرة وما يلقى الإنسان من هول يوم القيامة، وما يلقاه في القبر من عذاب ومن نعيم، أمور بعض ضعفاء الإيمان ينشغلون بها، ويشغلون أنفسهم بهذه التساهلات.

الأستاذ: الحقيقة أن هذه الغيبيات جاء بها نصوص قرآنية ونبوية، أنا ضد أن آتي بنصوص ضعيفة لا أصل لها حول هذه الغيبيات.

المذيع: قصدت أيضاً توضيحاً عن قصد الغيبيات أي الأمور الغير المنظورة لبني البشر.

الأستاذ: أنا عندي يقين حسي يقين استدلالي ويقين إخباري، فأنا أحكم عقلي فيما سمح لي وأحكم حواسي فيما أتحرك في حياتي الدنيا، أما الإخبار من الله عز وجل، فإذا أخبرني الله عن مشاهد يوم القيامة، لابد من أقرأها وأتعظ بها، إذا أخبرني الله عن البرزخ وعن عذاب القبر.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

هذه آية في عذاب البرزخ، فأنا ينبغي وواجب علي أن أفهم الأحاديث والآيات التي أخبر الله بها وأخبر نبيه بها عن أهوال يوم القيامة، لكن أن أقف في حدود النص دون أن أزيد عليه.

عندنا قاعدة في أصول الفقه في علم الأصول أن كل شيء غيبي أية زيادة عليه زيادة ظنية، وقد تفعل فعلاً معاكساً، الآن في البلد أشرطة كثيرة عن أهوال يوم القيامة أكثرها أحاديث موضوعة ومبالغ بها، الإنسان ينفعل انفعال سلبي وليس إيجابي، أما حينما أبقى في النصوص الصحيحة التي جاءت في القرآن وفي السنة الصحيحة هذا شيء طبيعي ومتوازي ولا بد منه، فالغيبيات تقوي الإيمان، حينما أدرك أني سأسأل.

((عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

(سنن الترمذي)

هذه أحاديث مهمة جداً، فأنا حينما أقرأ الغيبيات أي النصوص الصحيحة التي تحدثت عن الغيبيات ينبغي أن أقرأها وأعتني بها وأتعظ بها، وأن أدع جانباً ما في الزيادات من أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو قصص للصالحين، هذه قد تكون غير تربوية وغير علمية، أنا من أنصار الواقع، فعندما تأتي بنماذج غيبية غير واقعية وتأويلات وأحاديث ضعيفة ما أنزل الله بها من سلطان تسبب انفعال سلبي ويأس من الدين.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس